الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٣٥١ - رمضان ١٤٢٦هـ - أكتوبر ٢٠٠٥م

ALFAISAL MAGAZINE - NO.351 - Oct.2005

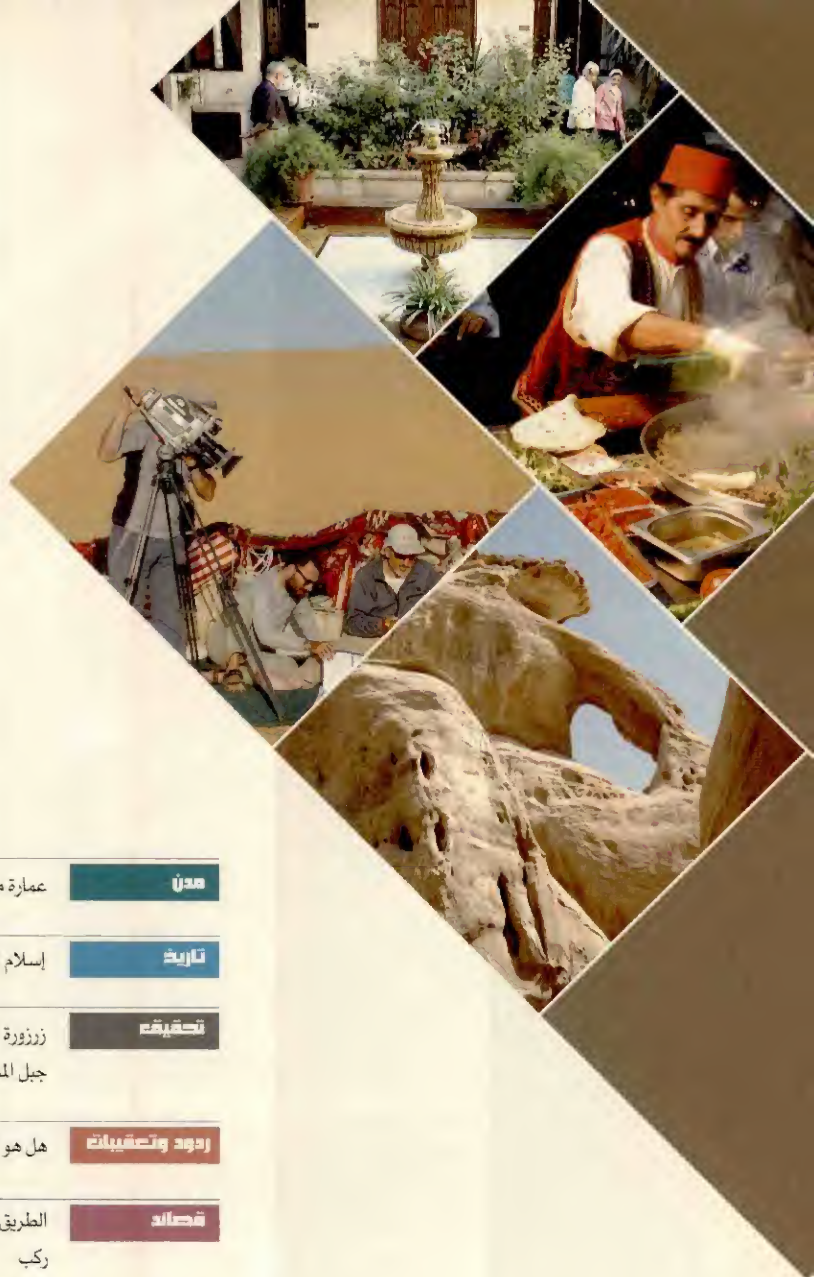
- جبل المحجة كما رأيته
- زرزورة الواحة المجهولة
- رمضان في الأدب التركي



بسم الله الرحمن الرحيم

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية . العدد ٣٥١- رمضان ١٤٢٦هـ . أكتوبر ٢٠٠٥م
ALFAISAL MAGAZINE - No.351 -Oct.2005





زرزورة: الواحة المجهولة في بحر الرمال

لواحة زرزورة تاريخ قديم يقوم على افتراض وجودها، وتسمى على اسم طائر الزرزور، وقد أشار إليها بعض مؤرخي العرب بأنها مدينة عجيبة، تحيط بها الحدائق والبساتين. واعتمد الرحالون الأوربيون على هذه الرؤية العربية لتحديد موقع الواحة، فما نتائج بحثهم عن هذه الواحة المجهولة في بحر الرمال.

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد

مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

هيئة التحرير:

حسين حسن حسين

محسن بن حمد الخرابة

نايف بن مارق الظيط

حوى النبي علي صالح

الإخراج الفني:

الوليد إبراهيم دينار

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ .

المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ . ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ريالاً سعوديًا للأفراد، ٢٥٠ ريالاً سعوديًا للمؤسسات. أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف : ٤٦٥٢٢٥٥ . ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢

ردمد ١١٤٠ . ٠٢٥٨

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدرًا من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي « رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:

يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.

يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.

التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.

تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصًا القديم منه.

ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولاتعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

السعودية ١٠ ريالات . الكويت ٨٠٠ فلس . الإمارات ١٠ دراهم . قطر ١٠ ريالات . البحرين دينار واحد . عُمان ريال واحد . الأردن ٧٥٠ فلس . اليمن ١٠٠ ريال . مصر ٤جنيهات . السودان ١٥٠ دينارًا . المغرب ١٠ دراهم . تونس ٢٥٠، ١دينار . الجزائر ٨٠ دينارًا . العراق ٨٠٠ فلس . سورية ٤٥ ليرة . ليبيا ٨٠٠ درهم . موريتانيا ١٠٠ أوقية . الصومال ٢٠٠٠ شلن . جيبوتي ١٥٠ فرنك . لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية . الباكستان ٢٠ روبية . المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد .

الموزعون

السعودية . الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع . هاتف٤٨٧١٤١٤(٠١)، فاكس ٤٨٧١٤٦٠(٠١). مصر . مؤسسة توزيع الأهرام . شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ . فاكس ٣٣٩١٠٩٦ . ٢٠٢... سورية . المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨. فاكس ٢١٢٢٥٣٢ . ١١. ٠٠٩٦٣. تونس . الشركة التونسية للصحافة . ٣نهج المغرب . ص.ب ٧١٩. فاكس ٧١٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ . ٧١ . ٠٠٢١٦، قطر . دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع . ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ . فاكس ٤٦٦١٨٦٥ . ٠٠٩٧٤، الأردن . شركة وكالة التوزيع الأردنية . ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ . فاكس ٤٦٣٥١٥٢ . ٦ . ٠٠٩٦٢، البحرين . مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ . فاكس ٥٣١٢٨١ . ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة . مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ . فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ . ٤ . ٠٠٩٧١، الكويت . شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ . فاكس ٢٤١٧٨٠٩ . ٠٠٩٦٥، المغرب . الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢ . ٠٠٢١٢، ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣، الجمهورية اليمنية . القائد للنشر والتوزيع ت: ٢٠١٩٠١/٢ . ٣ . ٠٠٩٦٧ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧



رسائلكم

أنصفونا!

اشكر كم على مجلتكم الثقافية، وأتمنى أن تدرسوا اقتراحاتي التي قد تسر كثيرًا من القراء، وهي تخص مسابقة الفيصل وجوائزها، هذه الاقتراحات على النحو الآتي:

ـ أتمنى أن تجعلوا في كل عدد الجائزة الأولى، لمن شارك فترة طويلة، ولم يفز نهائيًا، على أن يكون الفائز في كل مرة من دولة عربية مختلفة، وبهذه الطريقة سوف يشعر الجميع أن لكل مجتهد نصيبًا؛ لأنه، باللأسف وأنا أقيسها على نفسي، وعلى مجموعة من الأشخاص المشاركين في مسابقتكم، بدأ اليأس والإحباط يتسللان إلى أنفسنا بسبب عدم الفوز، في الوقت الذي يوجد فيه مجموعة من الأشخاص يفوزون عدة مرات بأسمائهم وأسماء زوجاتهم وأولادهم وبناتهم، فأرجو أن تعملوا بهذا الاقتراح، ولكم مني فائق الشكر والاحترام.

ـ بقية الجوائز تظل بلا تغيير؛ أي: تبقى بالقرعة، كما تفعلون بالنسبة إليها؛ أي: لا اعتراض عندي على بقية الجوائز.

وأفيدكم أنني من المشتركين الدائمين في مسابقتكم، ولكن مع الأسف لم يحالفني الحظ، على الرغم من السنوات الطويلة التي شاركت فيها.

وأخيرًا أشكركم، وأتمنى أن يتسع صدركم لاقتراحاتي؛ فعتبي مصدره محبتي لمجلتكم العزيزة على القلوب.

والسلام ..

صديق مجلتكم الدائم

عوني حسن مصطفى

عمان ـ الأردن

التحرير:

نشرلك اقتراحاتك، ومع أننا لا نريد الانحياز إلى فئة دون أخرى، إلا أننا سننظر في الأمر، متمنين لك الفوز بإحدى الجوائز قريبًا.

تنبيه

أظن أنه خطأ قد وقع بخصوص الجوابين المتعلقين بالسؤال الأول حول قائل هذا البيت:

وأحبب إذا أحببت، حُبًا مقاربًا

فإنك لا تدري متى أنت نازعُ

فمن المعروف أن قائله هو: «هدبة بن الخشرم العذري»، كما هو مبين في وصية عبدالله بن شداد الشهيرة، وغيرها ... وليس «قيس بن ذريح»، ولا «أبو الأسود الدؤلي» ... فوجب التنبيه ... والسلام.

صفوان ودجني

فأس ـ المغرب

التحرير:

البيت مع بيتين آخرين في ديوان أبي الأسود الدؤلي صنعة أبي سعيد الحسن السكري تحقيق محمد حسن آل ياسين ص ٨٠ –٨١ طبع دا رالكتاب الجديد، بيروت ـ لبنان. والأبيات الثلاثة من وصية أبي الأسود الدؤلي إلى ابنه، وكان له صديق من باهلة، وكان أبو حرب بن أبي الأسود يكثر زيارته وغشيانه، فقال أبو الأسود في ذلك:

وأحبب إذا أحببت حبًا مقاربًا

فإنك لا تدري متى أنت نازع

وأبغض إذا أبغضت بغضًا مقاربًا
فإنك لا تدري متى أنت راجع
وكن معدنًا للحلم واصفح عن الأذى
فإنك راءٍ ما عملت وسامعُ

ووردت الأبيات في أغلب المصادر لأبي الأسود الدؤلي، ووردت في بعضها بلا نسبة أو عزو إلى قائل معين، ووردت في شعر هدبة بن الخشرم العذري جمع وتحقيق د. يحيى الجبوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي العراقية، ١٩٧٦م مع الشعر المنسوب إلى هدبة، وإلى غيره من الشعراء ص ١٤٠.

انظر الأغاني ٣١٨/١٢، والعقد الفريد ٢٨٦/٢، والحماسة البصرية ٦٧/٢، ولباب الآداب ص ٢٥، وأمالي القالي ٢٠٠/٢ وبهجة المجالس ٦٦٥/١، وشعراء النصرانية ص ١١٣.

روعة

أشكركم على سرعة إرسال مكافأة فوزي بالمركز الثاني في مسابقة العدد ٣٣٦، فقد وصلت قبل وصول العدد الذي فيه أسماء الفائزين: مما يدل على حرصكم الشديد، وتعاملكم الرائع مع قراء المجلة والمشتركين في مسابقتها الثقافية.

أسجل إعجابي الشديد لمجلتنا «الفيصل» الرائعة، ونشكر لكم هذا العمل الرائع، والجهد المبذول في إخراج المجلة، وهي بحق من أروع المجلات العربية الثقافية، بل أروعها جميعًا من حيث تنوع المادة الثقافية، وما تحويه من فوائد عظيمة، وموضوعات جميلة متنوعة.

ختامًا تقبلوا خالص الشكر والتقدير

أحمد عمر محمد السقاف

سيؤن - حضرموت

ص. ب ٩٠٥٥ - الجمهورية اليمنية

التحرير:

نشكر لك هذا الإطراء، وما تنوع المادة إلا لتجاوب كتّابها من مختلف الدول، وحرصهم على الكتابة في المجلة، كما أن الاهتمام بالقراء والكتّاب ومشاركاتهم واجب لا يستحق الشكر والثناء، وتقبلوا خالص تحياتنا وتقديرنا.

ردود سريعة

الأخ علاء سالم مهران سالم - أسيوط - مصر:

نشكر لكم مشاعركم الفياضة، ومواساتكم في فقيد الأمة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله - ودعوتكم بالتوفيق والسداد لخادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز، حفظه الله، وقد وصلت رسائل كثيرة بهذا المعنى: مما يدل على ما بين أبناء الأمة العربية والإسلامية من عمق صلات، وصدق مشاعر.

الأخت سوسن عمر عاتكة - حلب - سورية:

نأمل أن تكون إجابة المسابقة في المكان المخصص لها حتى يدخل اسمك في السحب على الجوائز، ويمكنك الاشتراك في مجلة الفيصل الأدبية من خلال قسم الاشتراكات، وللاستفسار يمكنك الاتصال على الرقم ٤٦٥٢٢٥ تحويلة ٦٦٤٠

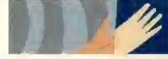
الأخ سامي العسكري - أريانة - تونس:

نشكر لك ملاحظاتك، وهي جديرة بالنظر والتأمل؛ وهذا دليل حرص منك على تطور المجلة، وسوف نأخذها في الحسبان.

الأخ يوسف عبدالكرم عبد الجليل - الإسكندرية - مصر:

نشكر لك ثقتك بمجلتك، وكنا نتمنى تحقيق رغبتك، إلا أن الأمر يبدو خارج إمكاناتنا، وبالنسبة إلى المسابقة، فإن تحديد الفائزين يتم بالقرعة، فنتمنى أن يحالفك الحظ وتفوز بإحدى الجوائز، ونكرر لك الشكر على هذه الثقة.





عمارة مدينة حلب القديمة

محمود زين العابدين

الرياض ـ السعودية

تقع مدينة حلب في الجزء الشمالي من القطر العربي السوري، وهي عاصمة سورية الشمالية (تبعد عن دمشق ٣٥٠ كم)، وتعدّ إحدى أهم المدن وأقدمها في العالم التي ما زالت مأهولة. فقد توالت عليها عدة حضارات، وتتميز بموقع فريد، جعلها تصبح حلقة وصل بين الطرق التجارية العالمية التي تربط الشرق بالغرب، والشمال بالجنوب، وذلك منذ بدأ ارتباط حلب بالإمبراطوريات الكبرى التي تكوّنت بعد فتوحات الإسكندر المكدوني في المشرق العربي.

وقد تم إعلان مدينة حلب القديمة من قبل اليونسكو كموقع للتراث العالمي في عام ١٩٨٦م، انطلاقاً من عراقة المدينة وأصالتها، إضافة إلى أهميتها التاريخية؛ لأنها حافظت على نسيجها العمراني. وتبلغ مساحتها ٣٥٥ هكتاراً، أما عدد سكانها فيصل إلى ١١٠،٠٠٠ نسمة تقريباً، ويشكل هذا الرقم نسبة ٥٪ من مجموع سكان مدينة حلب البالغ ٣،٢٨٣،٠٠٠ نسمة.

لمحة تاريخية

بدأت التجمعات السكانية في مدينة حلب منذ أكثر من ٥٠٠٠ عام، ولها جذور قديمة وعريقة ترجع إلى ما قبل التاريخ. ويقال: إن إبراهيم عليه السلام مرّ بها، وحطّ رحاله على تلتها العالية (حيث القلعة)، وحلب بقرته الشهباء فيها، ومن هنا جاءت تسميتها: حلب الشهباء (١). وفي مراجع أخرى تؤكد أنه قد ورد اسم حلب للمرة الأولى في ألواح إيبلا، المدينة الأثرية التي اكتشفت في تل مرديخ، والتي يعود تاريخها إلى ٢٢٥٠ قبل الميلاد. ولا تزال ملامح العهود الهيلينستية والبيزنطية في النسيج العمراني ظاهرة في تخطيط



قلعة حلب، إحدى أهم قلاع العالم وأقدمها

شبكة الشوارع بالقرب من القلعة، وفي الأسواق.

تبدو تأثيرات العهود الإسلامية المبكرة والأيوبية والمملوكية واضحة في تخطيط حلب القديمة التي أعطت حلب القديمة شكلها، والتي تظهر في الكثير من الأوابد الأثرية الجميلة، وقد بدأت أولى التوسعات خارج حدود أسوار المدينة بالظهور خلال القرن الثالث عشر في الشرق والشمال. إلا أن الجزء الأكبر من النسيج العمراني الموجود اليوم يعود إلى المرحلة العثمانية (١٥١٦ - ١٩١٨) (٢).

الأهمية التجارية لمدينة حلب

كانت مدينة حلب حاضرة مزدهرة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وبقيت ذات مكانة مهمة وعمران وسكان على مر القرون. وتأتي هذه الأهمية من موقعها الإستراتيجي الذي جعلها تقوم بدور مميز في تاريخ المنطقة منذ الممالك الأكادية والعمورية حتى العصور الحديثة. فهي تقع على ملتقى طرق تجارية مهمة في الشمال السوري، وبذلك أصبحت مفتاحاً للمبادلات بين بلاد الرافدين وسورية وفلسطين



ومصر، ومن ثم بين الشرق والغرب، وقد جعلها العموريون عاصمة لملكتهم الواسعة (يمحاض) في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

واستمرت أهمية مدينة حلب التجارية بعد الفتح الإسلامي أيضاً، فقد كانت إحدى أهم محطات طريق الحرير القادم من أقاصي الصين، مما أكسبها أهمية كبيرة من الناحية التجارية والصناعية، وفي العهد المملوكي أصبحت مركزاً تجارياً مهمًا من مراكز تجارة البحر المتوسط العالمية؛ إذ كان يأتي إليها تجار البندقية لشراء الفستق والقطن والعقاقير الطبية كما صارت سوقاً كبرى لأقمشة الحرير، ولا يزال في حلب خان يحمل اسم (خان البنادقة) الذي هو واحد من عشرات الخانات التجارية القديمة المنتشرة في أسواق المدينة المستعملة حتى اليوم. أما في العهد العثماني فقد أصبحت مركز تجارة الشرق المتوجهة إلى إستانبول، ومنذ أواخر القرن السادس عشر نشأت لحلب علاقات تجارية مهمة مع فرنسا وإنكلترا وهولندا، ومن هنا انتقلت إليها أنماط العمارة الأوروبية، وتزيينات الباروك التي لا تزال تشاهد في كثير من مبانيها على الأبواب والنوافذ والسقوف (٣).

وتتميز مدينة حلب بنسيج عمراني فريد، وبعدد كبير من المباني التاريخية، والأوابد الأثرية الموجودة

قلعة حلب تقع وسط المدينة القديمة، وعلى هضبة يصل ارتفاعها إلى ٤٠ متراً، وهي من كبرى قلاع العالم وأقدمها وتتميز بشكل إهليلجي. يحيط بها خندق كانوا يملؤونه بالماء في حالة الحروب والحصارات. ويتم الدخول إليها عن طريق مدخل أمامي ذي برج بشرفات دفاعية





صحن الجامع الأموي بمدينة حلب



انتشار الأفنية في جميع العمائر بمدينة حلب

فيها. وسنتعرف إلى أهم تلك المباني التاريخية المنتشرة في مدينة حلب القديمة، وإلى تاريخ تشييدها، وإلى العصر الذي شيدت فيه، وما يحمله هذا العصر من مميزات معمارية.

بدخول السلطان العثماني سليم، شهدت مدينة حلب نهضة عمرانية واسعة، وطرازاً معماريا يحمل الأسلوب العثماني في تفاصيله وتصميمه، وهذا ما نلاحظه في عمارة المساجد العثمانية، وعمارة البيوت التقليدية والخانات والأسواق

بيئة حلب الجيولوجية

تتمتع الهضبة التي تطورت عليها مدينة حلب ببنية جيولوجية ذات طبيعة رسوبية عامة، تكونت في الغالب، في الحقبة الجيولوجية الثانية بعصريها الجوراسي والكريتاسي، وتتألف هذه الرسوبيات ـ على الغالب ـ من كربونات الكالسيوم ذات النسبة المختلفة من الشوائب، مما يعلل وجود الكثير من المقالع الحجرية التي ما زالت حلب تستقي منها اليوم المادة الرئيسة المميزة لبنائها، وانعكس ذلك على شكل عمارتها، فنلاحظ التركيز في مادة الحجارة، والاعتماد على هذه المادة المتينة والصلبة في عمران مدينة حلب.

وقد ارتبطت نوعية مواد البناء بمعطيات البيئة الجيولوجية للمنطقة، فانتشار الحجارة، وتوافرها بكثرة

في منطقة حلب جعلاها المادة الأساسية في إنشاء البيوت العربية، فالمعمار المصمم راعى توافر مواد البناء خلال تصميمه ودراسته للحجوم والمساحات. فالحجارة مادة مثالية ومتينة في البناء والتعمير، وهي مادة أولية ومعروفة منذ القدم، فاستخدمها الإنسان في بناء القلاع والأسوار والقصور والجوامع، وتعامل المعمار العربي مع هذه المادة الصماء تعامل فنان مبدع مرهف الحس، وغني بميراث حضارات سابقة، فاستخدم النقوش على أشكال نباتية فوق الأبواب والنوافذ، واختار الألوان المتباينة بالمداميك السوداء، والبيضاء المتناوبة، وهذا ما نسميه بالأبلق مع الأشكال الهندسية المختلفة ليدمج الشكل باللون والهندسة بالفن (٤).

جميع هذه المعطيات أفرزت الكثير من الأوابد التاريخية التي ظل معظمها صامداً إلى يومنا هذا على الرغم مما واجهته هذه المدينة من زلازل وحرائق ومصائب، تعود هذه الأوابد إلى عدة عهود سنتناول بعض تلك النماذج المختارة للتعرف إلى أهم مميزات كل عصر إسلامي، وإلى جميع أشكال العمارة العسكرية والدينية والمدنية.

قلعة حلب نموذجاً للعمارة العسكرية

تعد قلعة حلب من كبرى قلاع العالم وأقدمها، وتقع وسط المدينة القديمة، وعلى هضبة يصل ارتفاعها إلى ٤٠ متراً، وتتميز بشكل إهليلجي، يحيط بها خندق كانوا يملؤونه بالماء في حالة الحروب والحصارات، ويتم الدخول إليها عن طريق مدخل أمامي ذي برج بشرفات دفاعية، وكان هناك في السابق - قبل عهد الظاهر غازي - درج خشبي متحرك يربط بين المدخل الأمامي والخندق، وهو قابل للرفع في حالات الحرب، ثم تحول إلى درج حجري ثابت (٥).

ومن المؤكد أن مكان قلعة حلب الأساسي هو مرتفع طبيعي أضيف إليه ارتفاع اصطناعي، بحيث أخذ شكل التل العالي المرتفع في وسط المدينة (المركز). وقد كشفت التقيبات الأثرية عن وجود البقايا التي تعود إلى العصر الحثي من خلال معبد الإله تيشوب، ومن ثم معبد الإله حدد الآرامي، وغيره من المعابد التي بنيت في عهود لاحقة، كلها تؤكد وجود القلعة منذ الألف الثاني قبل الميلاد، أو على الأقل وجود المركز (الأكروبول). ولكن أقدم المنشآت الباقية إلى الآن تعود إلى العصرين الأيوبي والمملوكي؛ وذلك من خلال الأبراج والأبواب التي شيدت في العصر الأيوبي والتي تم تجديدها في العصر المملوكي (٦).

لمحة تاريخية إلى القلعة

يعود تاريخ تشييد قلعة حلب إلى عهد أحد قواد الإسكندر المكدوني إذ اختار ذلك التل الشامخ ليكون معسكراً لجنوده، ولما احتل الرومان هذه البلاد أضافوا إلى القلعة منشآت لا تزال آثارها بادية للعيان، وأن البيزنطيين من بعدهم تركوا بصماتهم فيها. في حين كان الفرس يعملون فيها الخراب والدمار حين تعصف بها جيوشهم متغلبة على الجيوش البيزنطية. ثم يعود البزنطيون إليها ليرمموا ما هدمه

الفناء الداخلي لبيت سيسي بعدما تحول إلى مطعم





فناء بيت وكيل، وقد تحول إلى فندق

الفرس، ويضيفوا إليها تحصينات وتعزيزات أخرى.

وفي عام ٦٣٦م حاصرتها الجيوش العربية، وأخذ الحصار يطول، وصمدت بفضل تحصيناتها وعتادها الغزير، ومؤونتها الوافرة، حتى تمكن الفاتحون من الاستيلاء عليها عن طريق الحيلة والدهاء؛ وذلك باستيلائهم على أحد أبوابها في بادئ الأمر، وقد وقع قائدها البيزنطي أسيراً بيد الفاتحين.(٧) وكان أول من اهتم بالقلعة في العصر الإسلامي الأمير سيف الدولة الحمداني، الذي أمر بعمارتها وتحصينها، وبنى سوراً لمدينة حلب؛ لأنه كان في صراع عنيف مع البيزنطيين، فأصبحت القلعة مقراً لإقامته وصارت مقراً دائماً للحكام في المدينة من بعده، واستمرت العناية بالقلعة في العهود اللاحقة، فقد بنى نور الدين الزنكي (وهو ينتمي أصلاً إلى العهد السلجوقي) أبنية كثيرة فيها وذكر سوفاجيه تفصيلات الأعمال التي نفّذت في عهد نور الدين: إذ رمّم كامل القلعة، وأعاد بناء سورها، وبنى فيها مسجداً. ولكن الازدهار الكبير الذي شهدته القلعة كان في عصر الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي الذي ترك لنا آثاراً عسكرية معمارية مهمة، ويقول سوفاجيه: إن القلعة بشكلها الحالي ترجع إلى عهد الملك غازي؛ أي:



النافورة في فندق ديوان رسمي، أحد البيوت التقليدية التي تعود إلى العهد العثماني

إلى مـا بعـد سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٩م. وقـد أشـاد المؤرخـون بأعمـال الظاهر غـازي في القلعة، ورأوا أن المجموعة المعمارية والتحصينات التي أقامها تشكل إعجازاً في التحصين في نسق العمـارة العسكرية في القرون الوسطى، فقد جدد حصونها، وبنى منحدراتها التي تبدأ من السور وتنتهي في قعر الخندق، بناءً متقناً كالجدران لكي يتعذّر التسلّق عليها. وفي العهد المملوكي، جدد عمارتها الأشرف خليل بن قلاوون، ثم جددّ بعض أجزائها السلطان الملك الناصر برقوق. . وكانت آخر الترميمات قد حدثت أيام السلطان قانصوه الغوري آخر



السلاطين المماليك. والجدير بالذكر أن الترميمات المملوكية أبقت على شيء من مظاهر القلعة الجميلة (٨).

ميزات عمارة القلعة

تعكس عمارة القلعة التطور الذي وصلت إليه فنون العمارة العسكرية من خلال طريقة عمارتها، وبأشكال أبراجها المربعة والمستطيلة والسداسية، وبالمدخل المتعرج، والأعمدة العريضة في السور الذي يجعل الجدار متماسكاً بالإضافة إلى المسامير الحجرية في السور الضخم، والكوات المتعددة لرشق السهام والأبواب الحديدية المصفحة، والمعترضات الهندسية التي تؤلف عنصراً زخرفياً ذا طابع جمالي في المنشآت المدنية، كالقصر الملكي، وقاعة العرش، وأعالي الأبواب (٩).

إضافة إلى استخدام الممر الخارجي المكشوف، بحيث يسمح للمدافعين ضرب المهاجمين الذين يتمكنون من كسر خط الدفاع الأول. ولا يؤدي الجسر مباشرة إلى المدخل الرئيس، وإنما ينحرف بزاوية قائمة ليؤدي إلى المدخل، وضلعا الزاوية عبارة عن جدارين مجهزين بالسقاطات، ومرامي السهام التي تسمح بالقضاء على العدو المهاجم بأعداد صغيرة بسبب ضيق المساحة التي تتقدم المدخل، كما تمنعهم من استخدام الأداة القديمة في تحطيم الأبواب (الكبش)، وهذا النوع من المداخل يسمى المداخل المنكسرة (الباشورة)، وهي المداخل التي يرجع فضل تصميمها إلى المعماريين العرب (١٠).

مداخل القلعة

في عام ١١٨٣م ضم السلطان صلاح الدين الأيوبي قلعة حلب إلى الدولة العربية الموحدة، وجعلها قاعدة لضرب الفرنج، وولّى ابنه (الظاهر غازي) حاكماً عليها، فوسّع مملكته، ووطّد حكمه، وانصرف كلياً إلى تحصين القلاع وبنائها في جميع المنطقة الشمالية، وقد تقدم فن التحصين العسكري في زمن الأيوبيين، فأنشأ للقلعة مدخلاً جديداً، وحفر خندقاً عميقاً يملأ بالمياه بوساطة قنوات تصب فيه، وأقام عليه جسراً تحمله ثمانية أقواس متفاوتة في الارتفاع. وينتهي الجسر بباب حديد كبيرة

وقد رصف سطح القلعة من أسفل السور حتى أسفل الخندق بقطع من الأحجار الملس يتعذر على المهاجم تسلق السطح، ويصون تربته من الحت والتآكّل بفعل الأمطار والعوامل الطبيعية فتمطره مع الزمن. وقد أنشأ أبواباً سرية، وحفر الصهاريج لحفظ المياه، وأضاف إلى القصر أبنية جديدة، وأنشأ فيها حماماً وحديقة، وشيد حجرات للإدارة، وأقام مسجداً جامعاً في عام ١٢١٠م، وله مئذنة شاهقة على شكل مربع، يمكن الاستفادة منها كمركز للمراقبة (١١).

عناصر القلعة

للقلعة عدد من العناصر الرئيسة، أهمها:

ـ الأبراج: في القلعة عدد من الأبراج، وأهمها البرج الأول، وهو مستطيل الشكل، وقد جدّد بناؤه في أواخر عهد المماليك بزمن (قانصوه الغوري)، وتشهد على ذلك الكتابات المنقوشة عليه، وتقوم عليه نتوءات لإلقاء القذائف والحمم الملتهبة على المهاجمين، ويليه بعد مسافة قصيرة البرج الثاني، وهناك برج السفح الجنوبي الواقع خارج السور، والمرتفع على نصف منحدر سفح القلعة في مسافة متوسطة بين الخندق والسور، ويتجه بابه نحو الشمال، وهناك برج السور الشمالي والمتصل بالثكنة التي بناها إبراهيم باشا بواسطة درج، إضافة إلى برج السفح الشمالي، الواقع خارج السور في منتصف السفح، ويتألف من أروقة، وإلى الجنوب منه ممر يقودنا إلى البرج البارز الكبير في سور القلعة الشمالي، الذي يعود تاريخ بنائه إلى القرن الخامس عشر الميلادي (١٢).

ـ الأبواب: للقلعة عدد من الأبواب، أهمها باب الحيات، وهو باب البرج الرئيس، ويتميز بشكله الغليظ؛ لكونه مصفحاً بالمسامير الحديدية الضخمة، وقد زيّن مصراعاه بشرائط أفقية، وبحدوات الخيل، وتعلوه كتابة تشير إلى تاريخ ترميمه، ويليه باب ثامدي، وقد زيّن أعلاه بنقش صورة أسدين متقابلين بينهما شجرة. وهناك الباب الثالث الذي يقودنا إلى ممار القلعة السرية وقنواتها تحت الأرض، ثم الباب الرابع الواقع أمام ضريح (الخضر)، ويعلوه نحت بارز على شكل أسدين، أحدهما يضحك، والآخر يبكي، وهو من إنجازات القرن الثالث عشر الميلادي. وباب الجبل الواقع شرق باب القلعة، والذي انتهت عمارته عام ١٢١٤م، أما الباب الشمالي فيقع في الطرف الشمالي لسور القلعة، وباب السر.والذي يؤدي إلى باب الأربعين القريب من حمام السلطان على شفير خندق القلعة من الجهة المقابلة (١٣).

ـ القاعات: يقع في القلعة خمس قاعات رئيسة:

أولاها: قاعة الدفاع الكبرى، والمؤلفة من حجرات متجاورة تطل مباشرة على مدخل القلعة الرئيس، وقد زوّدت بكوّات وثغرات بارزة لترمي العدو بحمم القذائف الملتهبة، والسوائل النارية والسهام، وهناك قاعة الدفاع الأولى، وحجرات الدفاع والمستودعات، إضافة إلى القاعة الكبرى، والواقعة تحت مستوى أرض القلعة، يقع في زاويتها الشمالية الغربية (كوة) تؤدي إلى مستودع كبير كانت تحفظ فيه الحبوب والمؤن، وعلف الرواحل. أما أهم القاعات وأكبرها فهي قاعة العرش، وقد بناها قايتباي،

البيت العربي في سورية خلال الفترة العثمانية ما هو إلا امتداد لعدة حضارات، كان آخرها الأموية والعباسية، فللبيت العربي عراقة منذ القدم، ولم يأخذ شكلاً خاصاً خلال الفترة العثمانية، لأن العثمانيين اعتنوا واهتموا ببناء القصور والبيوت الكبيرة

وكان سقفها مؤلفاً من تسع قباب ترتكز على أربع دعائم، ذات زخارف ونقوش من عهد مملوكي، يقع في جدارها الجنوبي نافذة كبيرة تطل على المدينة، وهناك ثماني نوافذ صغيرة أخرى موزعة في أرجائها. كما يوجد القصر الملكي، وهو قصر جميل بابه كبير وفخم تعلوه مقرنصات شيدت بالحجارة السود والصفر على شكل مداميك متساوية، أرضه مبلطة بالرخام والمرمر والحجر المصقول، يتوسطه حوض ماء، وأنشئ في جداره سبيل ماء، إضافة إلى وجود حمام مؤلف من تسع حجرات وحجرة عاشرة لخلع الثياب، وقد جهز بأنابيب مصنوعة من الفخار للمياه الحارة والباردة. ويوجد في القلعة مسجد إبراهيم الخليل، الذي شيّده نور الدين زنكي عام ١١٦٢م، ثم رمم بعد ذلك مرات كثيرة. إضافة إلى الجامع الكبير، وتكنة إبراهيم باشا، الواقعة إلى الشرق من الجامع الكبير، وعدد من صهاريج المياه والآبار (١٤).

أسوار مدينة حلب و أبوابها

إن الموقع الجغرافي والإستراتيجي لمدينة حلب جعلها مركز اهتمام منذ القدم، فبنيت الأسوار والأبراج ضمن عدة مراحل، خاصة بعد الفتح العربي الإسلامي لها في عهد السلطان نور الدين زنكي، وما تبعه من سلاطين،

شهد مركز مدينة حلب القديمة نمواً تجارياً باهراً، فبفضل الخرائط التي وضعها جان سوفاجيه نستطيع تقدير مساحة الوسط التجاري خلال الفترة العثمانية في حلب بـ ١٠,٦ هكتارات. علماً أن مساحته بلغت خمسة هكتارات في بدايات القرن السادس عشر

فقد وصل عدد الأبراج إلى مئة وثمانية وعشرين برجاً، خضعت فيما بعد للهدم في أثر الهجمات والمعارك التي مرت على مدينة حلب الشهباء.

اشتهرت مدينة حلب أيضا بأبوابها المحيطة بها، إلا أن معظم هذه الأبواب رافقها الهدم، ولم يبق منها سوى بعضها، مثل: باب قنسرين، وباب إنطاكية، وباب الحديد، وباب النصر، ويتألف الباب من طابقين أحياناً، وبغرف للعتاد والذخيرة أو للجنود، إضافة إلى الأبراج الدفاعية والفتحات والسقاطات كما هو عليه الحال في القلاع؛ لأن الغاية الدفاعية واحدة، والمبدأ التصميمي مشترك بينهما (١٥).

ومن الأبواب المهمة التي تمّ هدمها، باب المقام، فقد تهدّم في الثلاثينيات من القرن الماضي، ولم يبق منه سوى قنطرته. أما عن الأبواب الباقية فنجد باب قنسرين، الذي يعدّ من أجمل أبواب حلب، وقد جدّده الملك المؤيد شيخ سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥م. ويمثل قلعة دفاعية مصغرة فريدة، وهناك باب إنطاكية، الذي يعدّ من أقدم أبواب مدينة حلب، وبابها الرئيس، وقد خرج منه سكان حلب إبان الفتح الإسلامي على يد أبي عبيدة بن الجراح سنة ١٤ هـ /٦٣٦م. للترحيب بالفاتحين المسلمين؛ ليجد سكان حلب فيهم الخلاص من ظلم الحكاّم الرومان. ومن بين الأبواب الأخرى التي حافظت على عمارتها، باب الحديد المؤلف من بابين يعلوهما برج حصين، وقد جدّده السلطان قانصوه الغوري، ولا يزال الباب ماثلاً إلى يومنا هذا بدرفتيه المصفحتين بالمسامير الحديدية الغليظة. وهناك أيضاً باب النصر، الواقع في السور الشمالي، ويتميز بأبراجه الدفاعية الجانبية، وقد جدّده الملك الظاهر غازي سنة ٦١٠هـ / ١٢١٤م.

العهد الأموي (٤١ ـ ١٣٢هـ / ٦٦١ ـ ٧٥٠م)

لقد أدى انتقال مركز الخلافة إلى بلاد الشام

واتخاذ مدينة دمشق عاصمة للدولة الأموية، إلى الاحتكاك بالفنون المحلية التي كانت سائدة في بلاد الشام، تلك الفنون التي كانت نتيجة لجهود المعماريين والعمال السوريين الذين اكتسبوا خبرة واسعة على مر العصور في شتى المجالات المعمارية والفنية، كما أن اتساع رقعة الدولة الإسلامية، واستتاب الأمن في كل الولايات الإسلامية، دفعا بالخلفاء المسلمين إلى الاهتمام بالعمارة والفنون، وبدأ بناء المباني التي تضاهي المباني الساسانية والبيزنطية لتليق بعظمة الدين الإسلامي، وهيبة الدولة العربية الإسلامية (١٦).

الجامع الأموي (الكبير) نموذجاً: (٩٦هـ /٧١٦م)

يعد الجامع الأموي أحد أهم النماذج لعمارة المساجد الأموية، ويقع في قلب مدينة حلب القديمة - حي سويقة حاتم - والجامع من حيث المخطط العام يشبه الجامع الأموي في دمشق، وتقول بعض المصادر التاريخية: إن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بناه ليضاهي به جامع دمشق الذي بناه أخوه الوليد بن عبد الملك في دمشق سنة ٨٧ هـ / ٧٠٦م.(١٧) وفي سنة ٣٥١هـ /٩٦٢م أحرقه (نقفور فوكاس) ملك الروم عندما اجتاح حلب عنوة بعد حصار محكم، وأعمل فيها النهب والحريق سبعة أيام كاملة، فرممه سيف الدولة الحمداني، وفي سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م أحرقه الإسماعيليون مع الأسواق المجاورة التي تحيط به في أثناء فتنة داخلية قامت في المدينة، فأعاد بناءه السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكي، وزاد في سعته، وقطع له أعمدة صفراً من بعاذين (وهي من قرى حلب)، ووسع القبلية باتجاه الشرق، وبنى الرواقات الغربية، وفي سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م استولى التتار بقيادة هولاكو على حلب، وأحرق حائط الجامع القبلي، فأعيد بناؤه في عهد الملك الظاهر بيبرس، وعقد الجمالون على القبلية والغربية، وعمل له سقف متقن سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م. ثم أحرقه التتار مرة أخرى، واحترق السقف الذي كان جمالونياً خشبياً، فرمم سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م، وعمل سقف القبلية قبواً، وفي هذه العمارة بني المحراب الكبير الذي ما زال باقياً إلى الآن (١٨). ولم تكن العناية به أيام العثمانيين أقل شأناً، فأولوه الكثير من الإصلاحات والترميمات، التي تمت على عهدهم، كان في طليعتها صحن الجامع والأروقة، والواجهة القبلية (١٩).

إن الترميمات والتعديلات التي أدخلت على الجامع أفقدته الكثير من أصالته المعمارية، ولم يتبق منه سوى مخططه العام، وهو مستطيل الشكل (١٠٥× ٨٠) متراً، فقد تعرض إلى عدد من الحرائق والتخريب نتيجة للحروب والغزوات والزلازل، مما أزال معالم عمارته الأصلية. وبقي الشكل العام لبناء الجامع أيام سليمان بن عبد الملك على ما هو عليه من حيث مكان القبلية

الجامع الأموي أحد النماذج لعمارة المساجد الأموية، بناه الخليفة سليمان بن عبد الملك ليضاهي به جامع دمشق الذي بناه أخوه الوليد بن عبد الملك في سنة ٨٧هـ -٧٠٦م

كان الجامع لايقل عن جامع دمشق فخامة، وزخرفة بالفسيفساء والرخام، ولكن ادال العباسيون الأمويين واجتاحوا قواعدهم، سطوا على هذا الجامع، ونقضوا مافيه من رخام وفسيفساء، ونقلوها إلى جامع الأنبار



والأروقة والأبواب، وتمثل عمارته الحالية مزيجاً من عمارة العصر المملوكي والعثماني، أما المئذنة الحالية فتعود إلى العصر السلجوقي.

يبلغ مسطح الجامع الحالي نحو ثمانية آلاف متر مربع، ويحيط به من الجهة الشمالية ساحة محاذية للشارع المتجه شرقاً نحو قلعة حلب، ومن الجهة الشرقية سوق (المناديل)، وسوق (الصاغة)، والمحلات فيهما مبنية على جدار الرواق الشرقي وجزء من القبلية. ومن الجهة الجنوبية سوق (الحبال)، وسوق (الصرمايتية)، والمحلات فيهما مبنية على جدار القبلية الجنوبي، ومن الجهة الغربية سوق (المسامير) حيث لا توجد محلات تجارية على الجدار الغربي للجامع.

وكان الجامع لا يقل عن جامع دمشق فخامة، وزخرفة بالفسيفساء والرخام، ولكن حين أدال العباسيون الأمويين

انتشار الأسواق المسقوفة بمدينة حلب



تتميز أزقة مدينة حلب بضيقها وتعرجها، وارتفاع جدرانها

واجتاحوا قواعدهم، وكانت خطتهم الانتقامية أن يبيدوا أحياءهم، ويعفوا على آثارهم، ويشوهوا أخبارهم، فسطوا على هذا الجامع ونقضوا ما فيه من رخام وفسيفساء وآلات نقلوها إلى جامع الأنبار (الأنبار مدينة على الفرات غرب بغداد بينهما عشرة فراسخ)، وقد ألمت به بعد جوائح العباسيين عدة جوائح كادت تأتي عليه بأكمله (٢٠).

الحرم (القبلية)

يقع الحرم على امتداد الضلع الجنوبي من الصحن والجزأين الجنوبيين للرواقين الشرقي والغربي، وتتميز

واجهة الحرم بزخارف ونقوش رائعة، وقد توازعتها أقواس متتالية مؤلفة من خمسة عشر عقداً، ويتوسط هذه العقود مدخل القبلية وهو غاية في دقة الصنع واستكمال الزينة، يتألف من عقد حجري محدب، أحجاره ركبت مرسومة على طريقة المعشقات - المزررات، وصفحة العقد الخارجية للمدخل زخرفت بزينة زخرفية من الخطوط المتشابكة على طريقة الضفر المتداخل، قوامها اللونان الأصفر والأسود، وتعود هذه الزخارف إلى الفترة المملوكية (٢١).

ويتألف الحرم من ثلاثة أروقة قائمة تحملها ثمانون عضادة حجرية، موزعة على صفوف متماثلة، وسقف الحرم بطريقة القبو المتقاطع. ويضم المنبر الواقع إلى يمين المحراب الأيسر، الذي جدد في العهد المملوكي في القرن الرابع عشر الميلادي، كما يضم ثلاثة محاريب وهي المحراب الأوسط، والمحراب الأيمن والمحراب الأيسر، إضافة إلى حجرة الخطيب (الوالي)، وتقع إلى جانب المنبر من جهة الغرب، وهي صغيرة الحجم، والحجرة النبوية الواقعة على يسار المحراب على شكل غرفة مربعة، وهناك ثلاث مقصورات (مقصورة الوالي، ومقصورة قراسنقر، ومقصورة القاضي) والسدة الواقعة مقابل المحراب الكبير، وترتفع فوق المدخل الأوسط للحرم.

الصحن

صحن الجامع رحب واسع الأرجاء، أبعاده (٧٩) متراً طولاً، و(٤٧) عرضاً، أرضيته مبلطة بمختلف الأحجار المصقولة: الصفر والسود وغيرها، توازعت أطرافها ووسطها تقسيمات ووحدات ضمت أشكالاً مختلفة، تناوب فيها الحجر الملون من أسود وأصفر، ومرمري أبيض، وسماقي. ويحيط بالصحن في أعلى الجدران، وعلى أطرافها الأربعة وامتدادها ظلة حجرية برزت إلى مسافة متر تقوم على حوامل حجرية زخرفية بديعة، ويرتفع من فوق المظلة شرافات حجرية ارتسمت بشكل طريف رتيب أخاذ، علماً أن بعض أجزاء الظلة والشرافات تعود إلى أواخر العهد العثماني تشبيهاً بالأقسام الأصيلة التي ترقى إلى العهد المملوكي، كما هو واضح في الرواق الغربي.

ويضم الصحن الحوض الكبير المعدّ للوضوء، وهو سداسي الشكل تحت الظلة التي تعتليها قبة ارتفعت على أعمدة رخامية صفر. أقيم هذا الحوض في سنة ١٣٠٢هـ (١٨٨٤ - ١٨٨٥م) تجديداً للحوض السابق القديم، ويتوسطه جرن صغير حديث الصنع انبثقت منه نافورة الماء، وإلى الطرف الجنوبي منه يقوم سبيل الماء، وقوامه بحرة وفوارة تخرج الماء، وهو مبني بالحجر الأصفر المصقول المنقوش، يعتليه من أطرافه حاجز نحاسي، وقبته المخروطية المنحسرة الوسط، والمغلفة بصفائح الرصاص، ترتكز على أعمدة صفر مضلعة ناعمة. شيد هذا السبيل سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م) تجديداً لسبيل سابق له أيضاً. وفي الصحن مصطبة حجرية يرقى إليها عبر مراق صغيرة يحيط بها درابزين حجري طوله (٤,٩٠) م، وعرضه (٣,٥٠) م، وترتفع أرضيتها عن صحن الجامع إلى علو المتر تقريباً، يعتليها المؤذنون والمنشدون كالسدة التي بداخل القبلية، عندما تمتد صفوف المصلين إلى الصحن بعد أن تمتلئ بهم رحاب القبلية، أو عندما تؤدى الصلاة في صحن الجامع. وهناك المزولة - التي

الموقع الجغرافي لمدينة حلب جعلها مركز اهتمام منذ القدم، فبنيت الأسوار والأبراج ضمن عدة مراحل، خاصة بعد الفتح العربي الإسلامي لها في عهد السلطان نور الدين زنكي، وما تبعه من سلاطين، فقد وصل عدد الأبراج إلى مئة وثمانية وعشرين برجاً

تعرف بالبسيط ـ تقوم على عمود صغير مزخرف، في أعلاه فوهة ثبت عليها البسيط أو المزولة، تغطى بطاسة نحاسية، وتقفل لتفتح عند الحاجة. كانت هذه الآلة تستعمل سابقاً لمعرفة أوقات الصلاة في الظهر والعصر، ويوجد مزولة شمسية أيضاً، منقوشة على لوحة مرمرية التصقت بالجدار، وتقع على الجدار المطل على الصحن من الرواق الشمالي، لتحدد ساعات النهار وأوقات الصلاة من خلال السيخ الحديدي الذي يحتل وسطها (٢٢).

الأروقة

للجامع ثلاثة أروقة انتصبت في جهاته الشمالية والشرقية والغربية، وعقدت بطريقة القبو المتقاطع ـ الغمس بتعريف البنائين الحلبيين ـ محمولة على دعائم حجرية ضخمة، وتطل على الصحن من خلال عقود متتالية:

ـ الرواق الشمالي: يأخذ بمعظم طرفه الشمالي، وإلى جانبه عقدان قد سدا: أحدهما مدخل المئذنة، ويقوم على رواقين، يتقدم أحدهما الآخر، معقودين بطريقة القبو المتقاطع على دائم ضخمة، وفيه الموضأ الذي يستمد من القسطل.

ـ الرواق الغربي: يأخذ بالطرف الغربي من الصحن، يؤلفه عشرة عقود تطل على الصحن: أحدهما هو مدخل الباب الغربي، وبناء الباب الحالي حديث العهد جددت واجهته مع الباب الشمالي استكمالاً لطرازه، وهو باب يرقى إلى أواخر العهد العثماني، وعلى التحديد سنة ثلاثمئة وألف من الهجرة ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) أقامه والي حلب جميل باشا بعد أن حصل على إذن من الآستانة بنقض الرواق القديم لتوهنه.

ـ الرواق الشرقي: يأخذ بقسم الطرف الشرقي من صحن الجامع، ويقوم على عقود ستة، ويتألف من رواقين متتالين، يتقدم أحدهما الآخر، وتتصدرهما غرف صغيرة الحجم، وعقد سابع اتخذ مدخلاً لباب الجامع الشرقي.

يتم الدخول إلى صحن الجامع عبر أربعة أبواب، الأول منها يسمى باب النحاسين، ويتجه نحو القبلية، والثاني في الشرق، ويسمى باب سوق الطيبية، والثالث باب الجراكسية، أما الرابع ففي الغرب، ويسمى بباب المساميرية. وأسماء الأبواب مأخوذة من أسماء الأسواق المسماة بهذه الأسماء، والتي تنفتح عليها الأبواب (٢٣).

المئذنة

على الرغم من أن المئذنة تعود إلى عصر لاحق، ولكنها تبقى مرتبطة عضوياً بالجامع فالمئذنة تقع في الجهة الشمالية الغربية من الجامع، مبنية على غرار المآذن البرجية المربعة الشكل، ويبلغ ارتفاعها ٤٢ متراً تقريباً، ويصعد إليها من باب صغير يؤدي إلى درجات عددها ١٤٥ درجة تؤدي إلى الموقف الأخير للمآذن، وطوقت المئذنة بأربعة أدوار يحمل كل منها زخارف تختلف في كل دور عن الآخر (٢٤).

المئذنة مربعة المسقط يراوح طول ضلعها بين (٤,٩٢٩) م و(٤,٦٥)م وفق مقاطع مختلفة لجسم المئذنة في مستويات متتالية، وتتناقص أبعاد أضلاعها كلما ارتفعنا نحو الأعلى، وحسب طبقاتها المختلفة. وتتكون من

الترميمات والتعديلات التي أدخلت على الجامع أفقدته الكثير من أصالته المعمارية، ولم يتبق منه سوى مخططه العام، وهو مستطيل الشكل. فقد تعرض إلى عدد من الحرائق والتخريب نتيجة للحروب والغزوات والزلازل، مما أزال معالم عمارته الأصلية

خمس طبقات تحدّ كلاً منها نصوص كتابية بالخطين الكوفي المورق والنسخي، تحيط بأضلاعها الأربعة، ومن طبقة أخيرة هي طبقة شرفة المؤذن، والجوسق، والقبة الكروية التي تنتهي بها المئذنة، علماً أن الارتفاع الكلّي للمئذنة (٤٥،٣٩)م.

وقد شهد الجامع الكثير من أعمال الترميم والصيانة، كان آخرها الأعمال الحالية بعد أن بادر الرئيس الراحل حافظ الأسد بإصدار القرار الجمهوري رقم ١٩٩٩/٣ والخاص بتشكيل لجنة لإنجاز أعمال صيانة الجامع وترميمه، وبمتابعة واهتمام شخصي من السيد الرئيس بشار حافظ الأسد تشكلت اللجنة برئاسة السيد محافظ حلب وعضوية ممثلين لكل من جامعة حلب، ومؤسسة تنفيذ الإنشاءات العسكرية، ومديرية أوقاف حلب، ومديرية الآثار ومتاحف حلب،

لقطة داخلية للقلعة ويبدو في الصورة الحمام والجامع



وجمعية العاديات. وقد تم استكمال معظم أعمال ترميم الجامع، وتم الانتهاء من أعمال التدعيم بالكامل، إضافة إلى معظم أعمال الترميم، ويجري إعداد دراسات لازمة لأعمال تأهيل الجامع وساحته الخارجية.

العهد المملوكي (٦٥٩ ـ ٩٢٢هـ / ١٢٦٠ ـ ١٥١٦م)

يقسم عصر المماليك إلى فترتين، المماليك البحرية، وقد امتد حكمها من عام ١٢٥٠م إلى ١٣٨٢م، والمماليك الشراكسية والبرجية، وقد استمروا في الحكم حتى عام ١٥١٦م، حيث قضى العثمانيون عليهم. وقد اشتهر في العصر المملوكي ببناء المباني العامة، مثل: المدارس ذات الإيوانات والأضرحة ذات القباب، والحمامات، والبيمارستانات، والخانات. ومن مميزات العمارة المملوكية الاهتمام بواجهات المباني، وذلك بوضع المداميك المتناوبة أفقياً أحجار صفراء تعلوها مداميك أخرى حمراء قانئة أو سوداء ولإحداث التوازن بين هذه الخطوط الأفقية التي تعتمد على ألوان المداميك عملت تجاويف أو حنايا عمودية طويلة تشمل حائط البناء كله تقريباً، وفتحت فيها نوافذ تنتهي من أعلى بكورنيش من المقرنصات تعلوه شرفات مسننة، وهذه الحنيات الرئيسة بما تحدثه من ظل ونور تساعد على توسيع السطح وإعطاء الإحساس بارتفاع البناء، كذلك زينوا الواجهات بأشرطة من الكتابات والآيات القرآنية لإضافة نغمة ملمسية وضوئية للواجهة، وبذلك يتأكد ارتفاع الواجهة في وحدة شديدة الاتساق مع عناصر الزخرفة (٢٥). وكنموذج للعمارة المملوكية ستتم دراسة حمام يلبغا الناصري.

حمام يلبغا الناصري نموذج للعمارة المملوكية

يعدّ حمام يلبغا الناصري، أجمل حمامات حلب جميعاً، ويقع أمام البرج الجنوبي لقلعة حلب، ويرجع بناؤه إلى أوائل حكم المماليك في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. وعندما تولى الأمير المملوكي سيف الدولة يلبغا الناصري قام بترميم الحمام ووضع اسمه عليه، وكان للحمام ثلاثة سراديب توصله بالقلعة والمدينة.

وقد عرف بناء الحمامات منذ أقدم العصور في الحضارات العربية القديمة، ولكن العرب استفادوا من بناء الحمامات الرومانية في تطوير أسلوب إنشاء الحمامات وتصميمها، وكانت المدن العربية والإسلامية زاخرة بالحمامات، وقد عرفت في مدينة حلب الكثير من الحمامات، التي تنتشر في أحيائها وتصدر المصادر التاريخية أن عدد الحمامات في حلب وصل أحياناً إلى مئة وسبعة وسبعين حماماً، إلى جانب الحمامات في الدور الواسعة الخاصة بالأثرياء، ومن الحمامات التي تعود إلى العصر المملوكي، وما زالت قائمة حتى الآن، ومحافظة على طابعها الأصيل، حمام يلبغا. وتتميز الواجهة الخارجية للحمام بتزينها بمداميك متناوبة باللونين الأسود والأصفر. يؤدي إلى داخل الحمام مدخل صغير، يليه ممر منكسر يؤدي إلى القسم البراني (المشلح)، وهو واسع يتألف من أربعة إيوانات معقودة، وفي كل إيوان مصطبة وفجوات قوسية لوضع الملابس، وفي وسطه حوض ماء مثمن الشكل في وسطه نافورة للماء، ويعلو القسم البراني قبة تستند إلى أكتاف قناطر الإيوانات بواسطة زوايا مثلثية كروية. وقطعت القبة من الأعلى لتشكل منفذاً للنور مثمن الشكل إلى جانب ثماني نوافذ مستطيلة أخرى. القبة مزينة بزخارف نباتية مدهونة باللون الأحمر والأزرق وفي الجهة الشرقية من القسم البراني مدخل يؤدي بواسطة ممر منكسر إلى القسمين الأوسط الداخلي (الفاتر ـ الساخن)، وكل قسم مؤلف من قاعات رئيسة يحيط بكل منها أربعة إيوانات، بها غرف صغيرة، في كل منها جرن حجري. ويعلو


باب الحديد الذي جدده الغوري

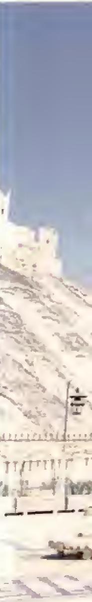

مدخل حمام يلبغا المملوكي

القسم الرئيس في كل منها قبة فيها منافذ دائرية الشكل مغطاة بقطع الزجاج للإنارة، ومنها لتصاعد البخار. أرضية القسم الداخلي (الساخن) مبلطة بأحجار صغيرة متناوبة باللونين الأسود والأصفر بأساليب هندسية متداخلة بديعة التناسق. كما يضم الحمام غرف مستودع المياه وموقد التسخين والبئر التي تجاور مستودع التسخين، وتعدّ حمام يلبغا الناصري من الحمامات الفريدة التي ما زالت تحافظ على طابعها الأصيل، على الرغم من أنها تعود إلى العصر المملوكي (٢٦).

العهد العثماني: (١٥١٦ ـ ١٩١٨م)

دخل السلطان سليم مدينة حلب عام ١٥١٧م، منتصراً على المماليك، بعدما قتل قائدهم قانصوه الغوري في المعركة الحاسمة بين الدولة العثمانية ودولة المماليك في منطقة مرج دابق الواقعة على مشارف مدينة حلب، وقد أكرم العثمانيون الغوري بعد مماته فأقاموا عليه صلاة الجنازة، ودفنوه في مشارف حلب (٢٧). ولتمتد مدة الحكم العثماني على مدينة حلب أربعة قرون، وقد حدث نمو

تعكس عمارة القلعة التطور الذي وصلت إليه فنون العمارة العسكرية من خلال طريقة عمارتها ،وأشكال أبراجها المربعة والمستطيلة والسداسية، والمدخل المتعرج، والأعمدة العريضة في السور الذي يجعل الجدار متماسكاً، بالإضافة إلى المسامير الحجرية في السور الضخم



عمراني في تلك الفترة، فقد كانت مساحة حلب ٢٣٨ هكتاراً في عام ١٥١٦م، ثم غدت ٣٦٧ هكتاراً في أوائل القرن التاسع عشر، أما عن عدد السكان فكان يقدر بـ ١٢٠.٠٠٠ نسمة في عام ١٧٩٠م، بعد أن كان ٦٠.٠٠٠ نسمة في عام ١٥٧٠م (٢٨).

وبذلك فتحت صفحة جديدة في عامرة مدينة حلب بدخول السلطان العثماني سليم، شهدت خلالها مدينة حلب نهضة عمرانية واسعة، وطرازاً معمارياً يحمل الأسلوب العثماني في تفاصيله وتصميمه، وهذا ما نلاحظه في عمارة المساجد العثمانية، وعمارة البيوت التقليدية والخانات والأسواق، وغيرها من المباني الأخرى، وللتعرف إلى هذا الطراز العثماني، لابد أن ندرس النسيج العمراني للمدينة، إضافة إلى دراسة أهم النماذج المنتشرة في مدينة حلب القديمة، التي تعود إلى العهد العثماني.

أحياء مدينة حلب وأزقتها

يتألف الحي من مجموعة منازل ملتصقة فيما بينها، وموزعة بشكل غير منتظم، والبيت العربي هو وحدة سكنية متكاملة بعناصره المعمارية. كما تطل الأكشاك أو المشربيات الخشبية (الروشان) بزخرفتها الرائعة على الأزقة لتتماشى مع النسيج العمراني للحي. وإذا ما

يعدّ حمام يلبغا الناصري، أجمل حمامات حلب، ويقع أمام البرج الجنوبي لقلعة حلب، ويرجع بناؤه إلى أوائل حكم المماليك في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. وعندما تولى الأمير المملوكي سيف الدولة يلبغا الناصري قام بترميم الحمام، ووضع اسمه عليه

خرجنا إلى الأزقة الضيقة والمتعرجة، نجد السقيفة أو الساباطات المغطية للطرق، كي تقوم بعملية التظليل، مثلما تقوم الجدران المرتفعة بالمهمة نفسها مع اختزان الهواء الرطب في الليل، ليكون مصدر تلطيف في ساعات النهار. كما نلاحظ ارتباط هذه الأزقة بمركز الحي حيث يوجد المسجد والسوق وساحة للجلوس أو الاستراحة (٢٩).

وفق مبدأ الخصوصية بين الجيران، نلاحظ مراعاة عدم فتح باب البيت مباشرة إلى الخارج، كذا الأمر بالنسبة إلى النوافذ الخارجية، فتكون مرتفعة وصغيرة، ولا تتقابل نافذتان لبيتين مختلفين، وهذه سمة أخرى من سمات عمارتنا الإسلامية المحلية ذات القيم الاجتماعية الراقية التي راعت حقوق الجار على جميع الأصعدة.

عمارة البيوت العربية التقليدية

إن البيت العربي في سورية خلال الفترة العثمانية ما هو إلا امتداد لعدة حضارات، كان آخرها الأموية والعباسية، فللبيت العربي عراقة منذ القدم، ولم يأخذ شكلاً خاصاً خلال الفترة العثمانية، إلا أن العثمانيين اعتنوا واهتموا ببناء القصور والبيوت الكبيرة(٣٠). وتتميز عمارة البيوت التقليدية في مدينة حلب - التي تعود إلى العهد العثماني بانطوائيتها نحو بيئتها الداخلية (الفناء - صحن البيت)، وذلك بتقليل عدد النوافذ الخارجية، انطلاقاً من تعاليم ديننا الإسلامي الذي أمرنا بالتستر والحشمة. إلا أن البيئة الداخلية للبيت جعلت منه متحفاً غنياً بالزخارف والنقوش والمنمنمات الإسلامية.

للبيت باب رئيس متواضع ينقلنا إلى الفناء (الحوش) من خلال درج حجري ضيق، يربط بين المدخل وصحن البيت، محققاً مبدأ العازلية والفصل عن المدخل، فتتميز البيوت التقليدية بالمدخل المنكسر الذي يساهم في حجب الرؤية عن سكان البيت والمارة، أو وجود ممر طويل

يساعد على ضمان حرمة سكان البيت. ويتميز فناء البيت بالوساعة والجمالية اللتين حظي بهما من خلال الزخارف الحجرية التي تعتلي الأبواب والنوافذ، ووجود الإيوان الذي يعد عنصراً معمارياً مهماً من عناصر البيت التقليدي في سورية، وللإيوان مستوى أعلى من مستويات أرضية صحن البيت، ويعتليه قوس مزخرف بالنقوش الحجرية، ويقع على يمين الإيوان ويساره غرفتان متقابلتان بشكل متناظر، أما الأرضية الواقعة أمام الإيوان مباشرة فتتميز باستخدام الرخام الملون فيها بأشكال هندسية وكأنها بساط مزركش؛ مما يدلنا على أهمية الإيوان في البيت العربي. وتقع أمام الإيوان مباشرة القاعة الرئيسة، وكانت مخصصة لاستقبال الضيوف، كما وتتميز بمساحتها الواسعة، وبارتفاع سقفها، وبالعناية في تزيينات سقفها الخشبي، وواجهات درف الخزائن الجدارية الخشبية، إضافة إلى أثاثها المطعّم بالصدف. وفي وسط صحن البيت يوجد بركة الماء، كذلك هناك مجموعة من النباتات والأشجار التي اعتمد عليها المعمار في التظليل والخضرة والجمال. ويوجد في صحن البيت البئر الذي كان يستغل في السابق للشرب أو للاستعمالات الأخرى.

أما قسم النوم فيقع في الدور العلوي، ويسمى بالحرملك، فقد تم فصل قسم المعيشة عن قسم النوم لضمان العزل والحرمة، وينقص عدد غرف الدور العلوي لوصول أشعة الشمس في فصل الشتاء، ويتم الصعود إلى الدور العلوي بواسطة الدرج المتصل بصحن البيت، إضافة إلى الأسطح المسوّرة بجدران مرتفعة.

عمارة المساجد العثمانية بمدينة حلب

كانت سورية مركز اهتمام جميع السلاطين العثمانيين خلال فترة حكمهم لها التي امتدت من عام ١٥١٦م (بدخول السلطان سليم الأول سورية بعد معركة مرج دابق)، وحتى عام ١٩١٨م. وقد أنشأ السلاطين المساجد والمدارس والتكايا، وغيرها من المباني المهمة، ذات الطراز العثماني، فظهرت القبب الكبيرة مغطية مساحات واسعة على شكل قطاع (جزء من كرة)، وتستند القبة إلى رقبة دائرية من الداخل، أما من الخارج فلها بروزات يصل عددها إلى ١٦ بروزاً تتوزع بينها النوافذ للإنارة، وفي كل زاوية دعامتان، هذا بالإضافة إلى خلو القبلية من الأعمدة والدعامات التي كانت تقطع صفوف المصلين، وتحجب الرؤية عن الخطيب، أما المآذن فتميزت في شكلها شبه الدائري؛ لأنها مؤلفة من ١٦ ضلعاً ومن شرفة ونهاية مخروطية لتصبح أشبه بأقلام الرصاص المدببة، وظهور الإيوانات المرتفعة عن مستوى أرضية القبلية (٣١). ومن أهم المساجد والمدارس التي شيدت في العهد العثماني:

كانت مدينة حلب حاضرة مزدهرة منذ الألف الثالث قبل الميلاد، وبقيت ذات مكانة مهمة وعمران وسكان على مر القرون، وتأتي هذه الأهمية من موقعها الإستراتيجي الذي جعلها تقوم بدور مميز في تاريخ المنطقة

يختلف خان الشونة عن باقي خانات مدينة حلب، إذ إنه يتألف من طابق واحد، وسوقين متعامدين، وفناء داخلي، وأبواب أربعة، بينما الخانات الأخرى تتألف من طابقين، وفناء يتوسط الخان



المدرسة الخسروية إحدى أهم المدارس العثمانية

المدرسة الخسروية:

تم إنشاء هذه المدرسة عام ١٥٣٦م، فقد قام المعماري سنان ببناء المدرسة، وبأمر من الوالي خسرو باشا بن سنان، في عهد السلطان سليمان الأول القانوني. وتقع في ساحة بزة غرب السلطانية، جوار قلعة حلب (أمام مدخل القلعة)، وتعدّ أولى المدارس العثمانية التي شيدت في سورية بشكل عام وأقدمها، وفي مدينة حلب بشكل خاص، وعلى الرغم من تواضع المدرسة من حيث القياس، مقارنة بمشروعات سنان التي نفذها فيما بعد في مدينة إستانبول، وغيرها، إلاّ أنها من أهم المدارس الإسلامية، وتساير، وبنجاح، الموقع الذي أقيمت عليه، وتختلف عما سبقها من المدارس والمساجد، لتشكل بداية الحقبة العثمانية في تاريخ مدينة حلب، فقد ظهر أول مرة في عمارة المساجد التخطيط المعتمد على القبة الواحدة، يتقدم القبلية رواق، سقفه خمس قباب محمولة على أقواس عرضية وطويلة جدارية، محمولة بدورها على ستة أعمدة دائرية المقطع، وتيجان مقرنصة، وهي ذات قواعد دائرية أيضاً. وتقع المئذنة في يمين المدرسة، وتعد مئذنة غليظة، وبطول متوسط، إذا ما قووزنت





في حلب.. عراقة تفصح عنها عمارتها

بالمآذن العثمانية الأخرى ذات الطول السامق، على الرغم من أنها تعكس الطراز العثماني، من حيث الشكل العام (قلم رصاص).

جامع العادلية:

أنشئ هذا الجامع عام ١٥٥٥م في ساحة بزة بمحلة السفاحية، بأمر من محمد باشا بن أحمد بن دوقة كين، وفي عهد السلطان سليمان الأول القانوني. وصحن الجامع فسيح، وذو مسقط شبه منحرف، طول ضلعه الجنوبي ٥١,٥ متراً، يقع في وسطه الشادروان الدائري الشكل، والمسقوف بمظلة خشبية سداسية الشكل، ومحمولة على ستة أعمدة من الحجر الأصفر، وذات تيجان بسيطة، ويتوسط هذه المظلة قبة خشبية مدببة ومصفحة بطبقة رصاصية، وفرشت أرض الجامع بالحجارة البيضاء المصقولة، أما أرض الصحن حول البركة، فمفروشة بالرخام الأبيض والأصفر والحجر الأصفر والحجر الأسود، وانتظمت في أشكال هندسية رائعة.

جامع البهرمية في حلب:

أنشأه والي حلب بهرام باشا بن مصطفى باشا بن عبد المعين عام ١٥٨٢م، ويقع في سوق السقطية بمحلة الجلوم الكبرى. ويشتمل الجامع على أربعة جدران محيطة مبنية بحجارة النحيت، وعلى صحن مفروش بالبلاط الأصفر طوله ٥٠ ذراعاً، وعرضه ١٩ ذراعاً.

المدرسة العثمانية في حلب:

أنشئت هذه المدرسة عام ١٧٣٠م في مدينة حلب، سميت بالعثمانية نسبة إلى بانيها: عثمان بن عبد الرحمن باشا. وكانت مركزاً مهماً لتدريس الطلبة على أيدي العلماء ولإقامتهم أيضاً (أشبه بالمدرسة الداخلية)، فللمدرسة أربعون حجرة صغيرة مسقوفة في شكل معقود أو مقبب، لإقامة الأساتذة والطلبة، ولكل غرفة موقد جداري مستقل، ونافذة مطلة على صحن المدرسة، يقيم في هذه الغرف حالياً طلاب الشريعة والمحتاجون، إضافة إلى الإمام والمؤذن.

خانات مدينة حلب

شهد مركز مدينة حلب القديمة نمواً تجارياً باهراً،

فبفضل الخرائط التي وضعها جان سوفاجيه نستطيع تقدير مساحة الوسط التجاري خلال الفترة العثمانية في حلب والمعروف باسم (المدينة) بـ ١٠.٦ هكتارات، علماً أن مساحته بلغت خمسة هكتارات في بدايات القرن السادس عشر، وهذا يعني أن مساحة الوسط التجاري قد تضاعفت خلال الفترة العثمانية، كما استطعنا تأكيد وجود /٣١/ سوقاً من أصل /٥٦/ و /١٩/ خاناً من أصل /٥٣/ خانًا في الوسط التجاري نفسه.

وقد نتج النمو المطرد للوسط التجاري (المدينة) في حلب عن المشروعات المعمارية والعمرانية الواسعة النطاق على يد باشاوات حلب المتعاقبين في القرن السادس عشر، وعن أعمال الوقف المرتبطة بتلك المشروعات. لذلك يبدو لنا أن ذلك النوع قد أخذ مجراه الطبيعي. تألفت أوقاف خسرو باشا لجامعه الكبير الذي أمر ببنائه في عام ١٥٤٤م من قيسارية احتوت على ٥٠ دكاناً، وخان احتوى على ٩٥ دكاناً. ثم سوق انضمت فيما بعد إلى خان قرت بك، وفي عام ١٥٥٥م، أمر الوالي محمد باشا دوقاكين زاده ببناء جامع العادلية، وأوقف لها أربعة أسواق مؤلفة من ١٥٧ دكاناً محاذية للجامع نفسه (سوق النحاسين، سوق الجوخ، العلبية وسوق الفرائين)، وثلاثة خانات (العلبية والنحاسين والفرائين)، وقد احتلت جميعها مساحة ثلاثة هكتارات.

أما أوقاف محمد باشا في عام ١٥٧٤م في (المدينة)، فكانت مؤلفة من خان الجمرك، الذي شغل وحده مساحة ٠.٦ هكتار، و ١٢٩ عقاراً، وقيسارية واحدة، وقد ألحق بالخان سوقان: سوق خان الجمرك، وسوق السقطية، واحتوى كلاهما على ٣٤٤ دكاناً. وأخيراً أمر الوالي بهرام باشا في عام ١٥٨٣م ببناء سوقين احتويا على ٢٩ دكاناً وقيسارية مكونة من ٣٥ غرفة، وذلك إلى الشمال من جامعه. نجم عن تلك الأعمال الأربعة أن تضاعفت مساحة (المدينة) في حلب، وتوسعت على أسس تنظيمية إلى الجنوب من الخط الرئيس للأسواق. كان لهذا النمو العمراني مظهر منهجي في المخطط التنظيمي العام للمدينة، ولعله من أسباب ذلك الطابع المنتظم للشوارع في وسط مدينة حلب. بعدئذ نقل بناه المنشآت الوقفية خلال بحثهم عن مساحات فارغة مراكز مشروعاتهم نحو الغرب، وكان كل مشروع وقفي جديد يبدأ عند الحد الغربي للمشروع الذي سبقه، وهكذا نشأ تعاقب منطقي في التوسع العمراني نحو الغرب بغير تخطيط مسبق (٣٢).

تتألف وقفيات باشوات حلب خلال القرن السادس عشر في الجزء الجنوبي من (المدينة) أو الوسط التجاري، مع عدد من الأسواق التي كان لبعض منها طابع معماري حقيقي ومتصلة معمارياً مع البناء الموقوف من أجله بجملة من العقود والقباب، مثل سوق خان الجمرك، وسوق السقطية المشيد في عام ١٥٧٤م، والمتصل مع باب خان الجمرك، وسوق بهرام باشا، الذي يتصل في الشمال بجامع بهرام باشا نفسه بواسطة ثلاث قباب فوق الباب الفخم للجامع، وثلاث قباب أخرى فوق مدخل القيسارية التي كانت موقوفة أيضاً للجامع نفسه (٣٣).

خان الشونة:

وللتعرف إلى عمارة الخانات سندرس خان الشونة، إذ يعدّ من أهم الأماكن السياحية في مدينة حلب، ويؤدي دوراً مهماً في دعم الاقتصاد الوطني، ويستقطب السيّاح والزوّار من داخل سورية وخارجها، كما يساهم في عملية الترويج السياحي والتنمية الاقتصادية. وكانت خطة وزارة السياحة تهدف من ذلك إلى المحافظة على الصناعات التقليدية، والمهن اليدوية، وحمايتها من الاندثار في زمن اكتساح الآلة للأسواق وتدفق الإنتاج الكمي، وكذلك كانت الخطة تهدف إلى الاهتمام بهذا الموقع الأثري المهم وإعادته إلى الأضواء، وتوظيفه بشكل سياحي يظهر عظمة تاريخ الحرفيين ومهارتهم، واستقطاب السيّاح

ليطّلعوا على عراقة البناء، ومهارة الصنعة.

يقع خان الشونة إلى جنوب باب قلعة حلب الرئيس، وشمال جامع الخسروية التي تشغل حالياً قسماً منه الثانوية الشرعية. بني هذا السوق في عهد والي حلب خسرو باشا سنة ٩٥٥ هـ/ ١٥٤٨م ملاصقاً لجامع الخسروية، ووقفاً له. وكان يؤخذ ريعه للإنفاق على طلبة العلم الذين يدرسون العلوم الشرعية في المدرسة. وعندما تعرضت مدينة حلب لزلزال مدّمر سنة ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢١ م تضرر السوق بشكل كبير، وأغلق حتى بداية هذا القرن، ثم وضعت الدولة خطة لاستصلاح العقارات المتضررة من جراء الزلزال، فسُنَّ قانون دعي بقانون الإجازتين، ويقضي بأن كل شخص يقوم باستصلاح عقار مهدم من جراء الزلزال يصبح في ملكيته، وقد استغل في ذلك القنصل الإيطالي بول ماركوبيلي هذا القانون، وعمد إلى ترميم السوق جزئياً، وأصبح في ملكيته. وكان الخان قد استخدم في السابق كمستودع للحبوب والغلال والشونة، وهي عشبة كانت تستخدم علفاً للحيوانات، ومنها أخذ السوق اسمه. والشوين: يعني التخزين، وقد أطلق عليه اسم خان خطأ؛ وذلك لأن الخانات تحولت إلى مستودعات، وصار يطلق على كل مستودع اسم خان، وهذا ما حصل لخان الشونة بعد تغير وظيفته.

عناصر الخان:

يتألف الخان من قيساريتين متعامدتين الأولى تفتح باتجاه شمال جنوب، والثانية باتجاه الشرق، وتتوزع الدكاكين على طرفي هاتين القيساريتين، وتتميز أروقة السوق بأقواسها المنتظمة والفتحات الخاصة بالإضاءة والتهوية السقفية والجانبية، وتتميز أبواب المحلات الخشبية بالزخارف الجميلة، وبطريقة الفتح والإغلاق التقليدية، وبأعمال الزخرفة الإسلامية على الخشب المنتشرة في السوق، وكذلك الفوانيس النحاسية المتميزة.

للسوق فناء داخلي واسع تزيد مساحته على (٧٥٠م٢) تتوسطه بركة ماء، وعلى جانبيه سلسبيل وعرائش خشبية مزخرفة، وتحيط به أحواض الزرع الغنية التي تضيف إليه سحراً ونضارة، وهناك تراس (سطح) أفقي ذو مساحة شاسعة يتربع فوق المحلات، وهو ذو إطلالة رائعة على قلعة حلب، وعلى جامع الخسروية من طرفه الآخر.

محتويات الخان:

يختلف خان الشونة عن باقي خانات مدينة حلب، إذ إنه يتألف من طابق واحد، وسوقين متعامدين، وفناء داخلي، وأبواب أربعة، بينما الخانات الأخرى تتألف من طابقين، وفناء يتوسط الخان، ويستخدم الطابق الأول للتجارة، وإسطبلاً للدواب بينما يستخدم الطابق الثاني منزلاً للإقامة، وهذا يدل على أن اسم خان أطلق خطأ على هذا السوق؛ وذلك لكونه تحول إلى مستودع في بعض مراحله أسوة بباقي خانات المدينة، وصبغ باسمها، على الرغم من أنه سوق تجاري منذ تأسيسه. تم استملاك الخان من قبل وزارة الثقافة سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢ م، التي بدورها تنازلت عنه لوزارة السياحة التي باشرت بترميمه لتحويله إلى سوق للمهن اليدوية، وقد روعي في الترميم المحافظة على شكل الخان، ونسيجه المعماري، ووظيفته كسوق تجاري على طرازه القديم نفسه من حيث البناء والزخرفة والتزيينات، وتوزيع

يعود تاريخ تشييد قلعة حلب إلى عهد أحد قواد الإسكندر المكدوني إذ اختار ذلك التل الشامخ ليكون معسكراً لجنوده. ولما احتل الرومان هذه البلاد أضافوا إلى القلعة منشآت لا تزال آثارها بادية للعيان. وأن البيزنطيين من بعدهم تركوا بصماتهم فيها

الإنارة، وطريقة زراعة الفناء الداخلي، وأبواب المحلات، ورسوم الأرضيات، مع التمازج الرائع بين الحجر الأبيض والحجر الأسود، فنرى الحجر الأبيض الذي ينقل البرودة متداخلاً بتشكيلات هندسية رائعة مع الحجر الأسود الذي ينقل الدفء من مكان إلى آخر. ونرى أيضاً الزجاج المعشق والملون على الشبابيك والنوافذ بالتشكيلات التراثية ذاتها، والفوانيس النحاسية الموزعة هنا وهناك بانسجام وتناغم جميلين. إضافة إلى الزخرفة الإسلامية على الخشبيات والسجاد اليدوي ذي النقوش الجميلة، والكتابات الشعرية المكتوبة بالخط العربي الأنيق، والمحاطة بالزخارف على جدران الغرف كنموذج للغرفة الحلبية العتيقة. وضع السوق في الاستثمار سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م من قبل مديرية السياحة في حلب، فتم تشكيل لجنة من المختصين قامت باختيار عدد من الحرفيين المهرة في مدينة حلب، وتسليمهم محلات السوق بأجور رمزية ليباشروا إحياء حرفهم فيه.

أسواق مدينة حلب

ذكر الرحالة الفرنسي سوفاجيه عن أسواق حلب، التي زارها في القرن السابع عشر الميلادي، أن لها مكانة مرموقة بين المراكز التجارية العالمية في تلك الفترة، وهي

في عام ١١٨٣م ضم السلطان صلاح الدين الأيوبي قلعة حلب إلى الدولة العربية الموحدة، وجعلها قاعدة لضرب الفرنج، وولّى ابنه (الظاهر غازي) حاكماً عليها، فوسّع مملكته، ووطّد حكمه، وانصرف كلياً إلى تحصين القلاع وبنائها في جميع المنطقة الشمالية

الفترة الذهبية التي تطورت وازدهرت فيها (المدينة). إنها أهم نموذج عمراني لمراكز مدن العالم الإسلامي حول البحر الأبيض المتوسط، وفي الشرق الأوسط، تكاملت وازدهرت خلال القرن السابع عشر الميلادي وما بعده وأدّت دوراً اقتصادياً كبيراً بين الشرق والغرب، ولا تزال حتى اليوم المركز التجاري الرئيس لمدينة حلب ومنطقتها الواسعة تغطي مساحة ١٦ هكتارًا، وأهم محور فيها يمتد من القلعة شرقاً حتى باب إنطاكية غرباً بطول كيلو متر، وعرض نصف كيلومتر، وفيها أسواق موازية للمحور أو متعامدة معه وقد غطيت بسقوف حجرية على شكل العقود، كما احتفظت بأرضيتها الحجرية: فهي باردة صيفاً، وحارة شتاءً، ويبلغ طول هذه الأسواق سبعة كيلومترات ولا تزال تحتفظ بطابعها الشرقي الأصيل منذ القرن الثالث عشر الميلادي حتى الآن. وتباع في أسواق حلب القديمة كل حاجات الإنسان، إذ يجد فيها كل ما يريده ورغم ظهور أسواق تجارية حديثة في أكثر من حي من أحياء مدينة حلب إلا أن الأسواق القديمة لا تزال المركز الرئيس الذي يرتاده الجميع، بالإضافة إلى ذلك نجد هذا التكامل الرائع في النسيج العضوي للمدينة القديمة بوجود الأحياء القريبة من الأسواق والخانات، مع عدد من الجوامع والمدارس والبيمارستانات، وغيرها. وتتميز أسواق حلب بتخصصها، فيحتوي كل سوق على صنف معين، ويحمل السوق اسم هذه السلعة، مثل سوق الصاغة المخصص لبيع الذهب، وسوق الحبال، والمخصص لبيع الحبال، وسوق العطارين، والمخصص لبيع البهارات والتوابل، وغيره من الأسواق الأخرى المرتبطة فيما بينها.

إحياء مدينة حلب القديمة

تحافظ مدينة حلب القديمة على عراقتها وأصالتها، وعلى نسيجها العمراني المتميز، إذ تقوم جميع الجهات

المسؤولة عن حماية حلب بالحفاظ على هذه المدينة، ومن أهم هذه الجهات: المديرية العامة للآثار والمتاحف، ومديرية السياحة، ومديرية الثقافة، ومديرية الأوقاف، إضافة إلى مجلس المدينة والمحافظة، ونقابة المهندسين، وجمعية العاديات، وإدارة مشروع المخطط التنظيمي العام لمدينة حلب، وجامعة حلب - كلية العمارة والتخطيط. فقد قامت جميع هذه الأطراف بإحداث لجنة تسمى لجنة حماية المدينة القديمة؛ وذلك عام ١٩٨٤م، وفي عام ١٩٨٥م تم إحداث مكتب خاص بالمدينة القديمة، لتلقي طلبات سكان هذه البيوت الذين يودون ترميم بيوتهم أو إعادة بنائها، ثم تلاها عام ١٩٩٠م صدور قرار /٣٩/ عن مجلس المدينة حول مشروع نظام ضابطة البناء.

وكان هناك تعاون بين لجنة حماية المدينة القديمة، وبعض المؤسسات والجهات التي تعنى بالتراث العمراني، مثل مؤسسة الآغاخان للثقافة التي أخذت على عاتقها الحفاظ على الأوابد الأثرية والفراغات العامة والمناطق التاريخية وإحيائها؛ لتعمل كحوافز للتطوير الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وذلك عبر فرعها المسمى " برنامج دعم المدن التاريخية" فتتعاون مؤسسة الآغاخان مع مديرية الآثار لزيادة استقرار منشآت قلعة حلب وتطويرها سياحياً، وضمن برنامج مشروع إحياء حلب القديمة تقوم المؤسسة بتنفيذ دراسة عمرانية لمحيط قلعة حلب بالتعاون مع مديرية المدينة القديمة، والوكالة الألمانية للتعاون التقني GTZ، وهناك تعاون مع الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي؛ فقد قدّم حتى اليوم مبلغ مليوني دولار أمريكي لدعم عملية إحياء حلب القديمة (٢٤)، ومما يؤكد نجاح دور الجهات المسؤولة بإعادة إحياء مدينة حلب القديمة، فقد فازت بجائزة فيرونيكا ردج غرين من جامعة هارفرد الأمريكية عن مشروع إحياء حلب القديمة، وهي جائزة تقدم لأفضل عمل هندسي عالمي متميز، إضافة إلى جائزة التراث المعماري من منظمة المدن العربية عن مشروعي باب قنسرين ومنطقة الجديدة.

كما قرر المؤتمر الإسلامي الرابع لوزراء الثقافة الذي عقد في الجزائر في شهر (ديسمبر) كانون الأول من عام ٢٠٠٤م، اختيار مدينة حلب عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ٢٠٠٦ في المنطقة العربية، وكلّف المؤتمر المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم متابعة تنفيذ هذا القرار مع وزارة الثقافة في سورية، وسيتم الاحتفاء بمدينة حلب كعاصمة للثقافة الإسلامية من خلال عدد من الأنشطة الثقافية،

عمارة حلب استحقت اهتمام الجهات المعنية بالحفاظ على التراث الإنساني



مثل: عقد المؤتمرات والندوات والمحاضرات حول تاريخ المدينة الثقافي، وأعلامها، وإسهامها العلمي والحضاري في التراث الإسلامي، ومعالمها الأثرية، وتنظيم زيارات للمشاركين إلى المتاحف وأهم المعالم الأثرية، ومكتبات المدينة العتيقة والحديثة، والاطلاع على مخطوطاتها ووثائقها ومقتنياتها، وزيارة مراكز إشعاعها الثقافي كالمساجد والقصور والزوايا والأسواق العتيقة، وإقامة معارض لمختلف الصناعات التقليدية.

المراجع والهوامش

١. سورية: وزارة السياحة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، حزيران (يونيو) ١٩٨٧، ص١٧٠.
٢. إحياء مدينة حلب القديمة - التطوير العمراني في موقع للتراث الحضاري العالمي: مديرية المدينة القديمة والوكالة الألمانية للتعاون التقني، حلب الجمهورية العربية السورية ٢٠٠٤م، ص ٦٠.
٣. سورية، ص ١٧٣ - ١٧٤.
٤. بحث مشارك في المؤتمر الدولي: المسكن ذو الفناء الداخلي في المدن العربية، توجهات نحو القرن الحادي والعشرين، حمص، الجمهورية العربية السورية، جامعة البعث، كلية الهندسة المعمارية، ١١ - ١٣ نوفمبر (تشرين الثاني) ٢٠٠٠م. ونشر في مجلة الفيصل العلمية - المجلد الأول - العدد الأول - ربيع الآخر - جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ - يونيو - أغسطس ٢٠٠٣م.
٥. تاريخ العمارة العسكرية بين الحصون والقلاع والأسوار، محمود زين العابدين، مجلة الحرس الوطني، العدد ٢٠٩ - شعبان ١٤٢٠ هـ، الموافق نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٩٩م.
٦. الخضر، عبد المعطي: تاريخ العمارة (٣)، العمارة في العصور الوسطى، العمارة الإسلامية والأوروبية، مطبعة جامعة حلب، حلب، الجمهورية العربية السورية، ١٩٩٠م، ج٣، ص ١٠٤.
٧. ساطع، أكرم: القلاع والحصون في سورية، نشر وتوزيع: دار دمشق ومكتبة أطلس، دمشق، الجمهورية العربية السورية، ١٩٧٥م، ص ٥٤ - ٥٥.
٨. قاجة، جمعة أحمد: موسوعة فن العمارة الإسلامية، دار الملتقى للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م، ص ٢١١ - ٢١٢.
٩. أكرم ساطع القلاع والحصون في سورية، ص ٥٨.
١٠. د. عبد المعطي الخضر: تاريخ العمارة - العمارة في العصور الوسطى - العمارة الإسلامية والأوروبية، الجزء ٣، ص ١٠٤.
١١. أكرم ساطع: القلاع والحصون في سورية، ص ٥٦ - ٥٧.
١٢. المصدر نفسه، ص ٦٠ - ٦١.
١٣. المصدر نفسه، ص ٦١ - ٦٢.
١٤. المصدر نفسه، ص ٦٢ - ٦٥.
١٥. تاريخ العمارة العسكرية بين الحصون والقلاع والأسوار - مجلة الحرس الوطني
١٦. د. عبد المعطي الخضر: تاريخ العمارة - العمارة في العصور الوسطى - العمارة الإسلامية والأوروبية، الجزء ٣ ص ٨ - ٩.
١٧. المصدر نفسه، ص ٢٣.
١٨. عثمان، نجوى: الهندسة الإنشائية في مساجد حلب، رسالة قدّمت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العلوم التطبيقية، منشورات جامعة حلب، معهد التراث العلمي العربي، حلب، ١٩٩٢م، ص١٥٩ - ١٦٠.
١٩. فارس، محمد كامل: الجامع الكبير بحلب تاريخه ومعالمه، منشورات دار القلم العربي بحلب، الطبعة الأولى، حلب، الجمهورية العربية السورية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ١٨.
٢٠. المصدر نفسه، ص ١٦.
٢١. المصدر نفسه، ص ٢٤.
٢٢. المصدر نفسه، ص ٢٠ - ٢٦ - ٢٧.
٢٣. د. عبد المعطي الخضر: تاريخ العمارة - العمارة في العصور الوسطى - العمارة الإسلامية والأوروبية، الجزء ٣، ص ٢٤.
٢٤. المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٥.
٢٥. المصدر نفسه، ج٣، ص ١٢.
٢٦. المرجع السابق نفسه، ص ١٢٧ - ١٢٨.
٢٧. حرب، محمد: العثمانيون في التاريخ والحضارة - دار القلم - دمشق، الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٩م، ص ٢٩.
٢٨. ريمون، أندريه: العواصم العربية عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية، تعريب قاسم طوير - دار المجد - دمشق ١٩٨٦م، ص ١٤.
٢٩. مدننا الإسلامية وتاريخها المعماري، محمود زين العابدين، صحيفة الرياض، العدد ١١٥١١ - ٢٢ رمضان ١٤٢٠هـ، الموافق ٣٠ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٩م.
٣٠. زين العابدين، محمود: جولة تاريخية في عمارة البيت العربي والبيت التركي، خاص، الرياض، المملكة العربية السعودية ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ٢٣٩.
٣١. صحيفة الحياة، ١٠ ربيع الأول ١٤٢٢ هـ، الموافق ٢ حزيران/يونيو ٢٠٠١م، العدد ١٣٩٥٧.
٣٢. أندريه ريمون ص ٣٧ - ٣٩ - ٤٠.
٣٣. المرجع السابق نفسه، ص ٥٢ - ٥٣.
٣٤. كتيب إحياء مدينة حلب القديمة

بحوث ومقالات

- العمارة العثمانية في سورية، محمود زين العابدين، صحيفة الحياة، العدد ١٣٩٥٧، ١٠ ربيع الأول ١٤٢٢ هـ، الموافق ٢ حزيران(يونيو)٢٠٠١م.
- بحث مشارك في الملتقى الثقافي: التراث العمراني في الجمهورية العربية السورية، الرياض - مركز الملك عبد العزيز التاريخي، ١٩ شعبان ١٤٢٥، الموافق ٣ أكتوبر ٢٠٠٤م، نظمته مؤسسة التراث بالتعاون مع سفارة الجمهورية العربية السورية.





إسلام الرحالين الغربيين.. قناع أم اقتناع؟!

يوسف بن عبدالرحمن الذكير

الرياض ـ السعودية

توخيًا للحذر من زلل الوقوع في منزلق الحكم على الأمر من مُنطلق موقف مُسبق. يقود إلى انتقائية أحادية النظرة. تبدي كل ما من شأنه إسناد الحُكم. وتغفل. بل وتخفي كل ما قد يفند أو يدحض ذلك الرأي. وتحاشيًا لشمولية تعميم ذلك الحكم على الكل. فتأخذ البريء بجريرة المدان دونما بينة أو برهان. فلعل السبيل الأسلم يكمن في استعراض الظروف الزمانية والمكانية. وسلوك أهم الرحالين المستشرقين وأشهرهم ممن أسلم.

ولكن قبل السير في ذلك السبيل، قد يحسن تجهيز ركائب الذهن بمؤنة ملاحظتين تيسران السير، وتمهدان السبيل. أولاهما: أن الدين بالنسبة إلى أغلب الأوربيين، اضمحل دوره منذ ما سُمّي بعصر التنوير، فتتالت موجات من الإلحاد والهزء بالدين بلغت أوجها في الثورة الشيوعية الروسية، بعد ما بدأت، حسبما ذكره المؤرخون بالثورة الفرنسية وما تلاها، ولعل في إسلام نابليون إبان احتلاله لمصر، وارتداده عنه حال عودته إلى بلاده خير مثال ودليل على مدى اضمحلال أهمية الدين والإيمان في عقول الأوربيين.

الملاحظة الثانية الجديرة بالاهتمام تكمن في أن جميع من أسلم من الرحالين المستشرقين رام دخول المدينتين المشرفتين: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، المحرم دخولهما على غير المسلمين، أما من سبقهم من الرحالين النصارى إلى دخولهما فقد تخفّى بأزياء المسلمين، وتسمّى بأسمائهم، ولا شك في أن عددًا منهم قد تظاهر بأداء ما على المسلم من شعائر، خشية افتضاح أمرهم، مما كان له تأثير كبير على من ادّعى الإسلام، أو أعلن وأشهر إسلامه من بعدهم، إلى



درجة لم تقف عند حدود الطرد، بل وأدت إلى هلاك أحدهم!

لا يستبعد أن يكون ادّعاء نابليون بونابرت اعتناق الإسلام قد ألهم، وحفز الرحالين الأوربيين إلى السير على خطاه، إذ لم تمض بضع سنين، حتى شهد التاريخ إشهار إسلام أحد أوائل رحاليهم المشهورين !

أولريخ جاسبارسيتزن

رحالة ألماني مغامر، زار بلاد الشام عام ١٨٠٦م، منقبًا عن الآثار، ومؤلفًا كتابًا عن رحلته، وصف فيه مشاهداته وتجاربه مع قبائل البدو الرحل في بادية الشام والبتراء، وتأثر به من قدم من بعده من الرحالين الأوربيين. وقد أشهر إسلامه عام ١٨٠٩م، ليرافق بعثة الحج المصرية إلى الديار المقدسة، فدخل مكة المكرمة في العشرين من شهر أكتوبر من تلك السنة، ثم زار المدينة المنورة، ليكتب وصفًا عن الأولى، ويرسم مخططًا مفصلاً عن الثانية!

رحل بعدها إلى اليمن فعثر على الكثير من الكتابات الأثرية، لكنه دفع ثمنًا غاليًا لرحلته تلك، وهل أغلى من الحياة ثمنًا لرحله؟ .. فقد ألقي القبض عليه هناك، وأودع



مشهد للسوق سنة ١٣٥٢ هـ تم التقاطه من القصر باتجاه الغرب

السجن ليقضي فيه نحبه، مسمومًا حسبما قيل!

فهل كان افتضاح زيف إسلامه، أم الشك في نواياه، وخاصة لما عرف عنه من رسم ووصف للأماكن التي زارها، قد اتخذ برهانًا على اتهامه بالتجسس للغرب، هو السبب في نهاية حياته بتلك الطريقة المأساوية؟! إن كان في شح المعلومات، وغموض الملابسات ما لا يتيح الحكم في سبب سجنه وموته على وجه الدقة واليقين، فقد يكون الإتيان على ذكر سيرة حياته ونهايته، وإن كان بشكل خاطف، توطئة وتمهيدًا لاستشراف صحة إسلام أربعة من أشهر الرحالين المستشرقين، أولهم كان معاصرًا له، وحظي بشهرة واهتمام لا في زمانه فحسب، بل وانكب على ترجمة أعماله نخبة من أبرز المؤرخين الأكاديميين السعوديين على الرغم من مرور ما يزيد على (١٥٠) عامًا على صدورها. فهو لم يكن موضوعيًا يلتزم الدقة والحيادية في أعماله فحسب، بل ونال الصيت



والشهرة مع أنه توفي وهو في ريعان شبابه، إذ لم يزد عمره حين مات في القاهرة بالحمى التي أصيب بها في أثناء رحلته الوحيدة إلى الأرض المقدسة، على (٣١) عامًا ! .. ذلك هو الرحالة المستشرق المتعدد الأسماء والانتماء.

بيركهارت

ولد يوهان لودفيك بيركهات Johann Ludwig Burckhart عام ١٧٨٤م في إحدى أجمل ما خلق الله من جنان على الأرض، مدينة لوزان السويسرية المحاطة بالخضرة والجبال، المرصعة الذرا بالثلوج، الزاهية سفوحها بالشجر والخضرة والمروج، والمطلة على إحدى أجمل البحيرات الأوربية العذبة، فلا عجب أن باتت ضفافها بعدما أنعم الله على أهل الصحراء بالثروة، محط أنظار شبابها، والمصيف المفضل لا لشيوخها وأثريائها فحسب، بل وحتى للمتفتحين من رجال الرأي والفكر الحامدين السائحين!.. إلا أن ذلك السحر، وجمال الطبيعة الخلاب، لم يوهنا ويقعدا يوهان عن طلب العلم، فسافر إلى ألمانيا ليتلقى تعليمه الأكاديمي في «لا يبزج» أولاً، ويكمله في جامعة «توبنجن» لينتقل إلى بريطانيا مدرسًا في جامعات لندن وكيمبردج مغيرًا انتماءه بحصوله على الجنسية البريطانية، ومعدلاً اسمه إلى جون لويس بريكهارت، الذي لم يكن سوى التغير الأول من سلسلة تبديل وتعديل لأسمائه الخمسة! ..

موضوعيته وحياده، في كتاباته عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأنصاره، مع أن زيارته للحجاز كانت برعاية أعدائها وحمايتهم، لم يحظيا بإعجاب من قام بترجمة أعماله من المؤرخين السعوديين واهتمامهم فحسب، بل ربما كانا السبب في التعاطف معه وترجيح صحة إسلامه، من قبل علامة الجزيرة الراحل حمد الجاسر - رحمه الله - حينما قال عنه في كتابه «رحالة غربيون في بلادنا» ما نصه: «والغريب في أمر هذا المستشرق - أو أمر الناس حوله - أنه رغم أدائه فريضة الحج، وإكمال شعائره، واختيار اسم يدل على إسلامه .. فقد كان ينظر إلى هذا الجانب من حياته نظرة شك وارتياب» ... إلاّ أن ذلك القول لا يجب أن يحجب حقائق أخرى عن ذلك المستشرق تثير الارتياب والشك، ورد ذكرها في الكتاب ذاته!..

فمما ذكره الأستاذ الراحل حمد الجاسر - رحمه الله - عنه في كتابه، أن بيركهارت قد حصل على مساعدة من الجمعية الإفريقية البريطانية، بعدما وطّد صلاته بأمثالها من الجمعيات، للقيام برحلة إلى تمبكتو لمرافقة حجاج تلك البلاد عند عودتهم من مكة المكرمة ، فغادر بريطانيا وهو في الخامسة والعشرين من عمره إلى جزيرة مالطة بمظهر طبيب هندي يدعى إبراهيم، ومن مالطة قدم إلى الشام!

بداية مريبة تثير الشكوك، بلا شك، أكثر مما تدعو إلى الاطمئنان، وتطرح تساؤلات منطقية مشروعة حول ما أعلن من أهداف، ومن قام بتمويل رحلته! .. فإن كان الهدف هو مرافقة الحجاج إلى تمبكتو مثلما قيل، فما الداعي للتخفي بمظهر طبيب هندي، وما الحاجة للتسمي باسم عربي هو إبراهيم؟!، فتلك المدينة، لا تحرم زيارة غير المسلمين، ولا تمنع الأجانب من القدوم إليها، فقد سبق أن زارها أوربيون من جهات أخرى غير مرافقة الحجاج؟! .. ثم إن الشام لا تقع على طريق عودة حجاج تلك المدينة، بل وخارج إفريقية التي هي محل اهتمام الجمعية الإفريقية التي قيل: إنها مولت رحلته، ولا يخفى على أحد تغطية تمويل الرحلات من جهات لا يرغب بالتصريح عنها تحت مسميات جمعيات جغرافية أو تاريخية!.. النقطة الثالثة الأكثر إثارة للريبة والشك، أنه لم يحاول الوصول إلى إفريقية بعد قدومه إلى الشام، بل أقام في مدينة حلب، وتجول مع القبائل العربية في بادية الشام سنتين، منتحلاً اسمه الرابع الشيخ حاج إبراهيم بن عبدالله اللوزاني، فأتقن اللغة العربية، واللهجات البدوية، وتعلم مبادئ الدين الإسلامي، فأين تمبكتو من كل



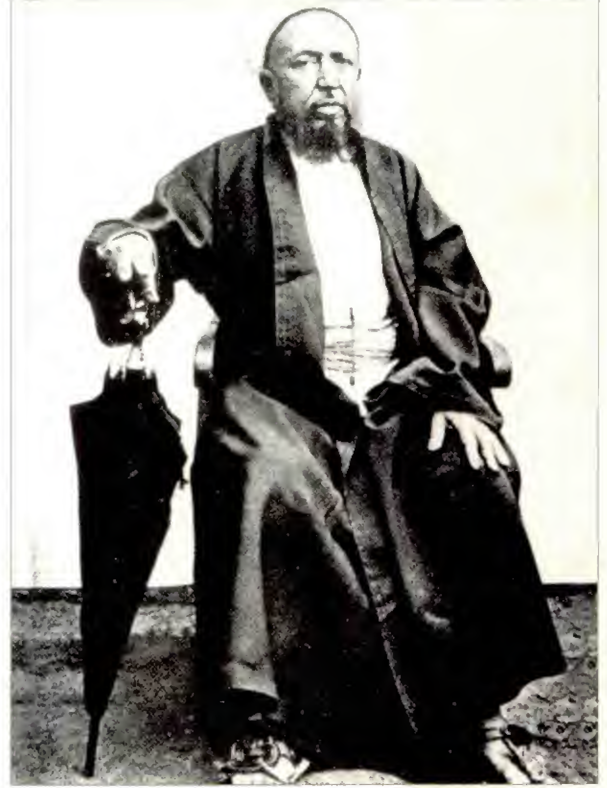
القصر الملكي في مكة المكرمة (تصوير فيلبي عام ١٩٣٥م)

ذلك؟ بل وأين أهداف استكشاف إفريقية، إن كانت الجمعية الإفريقية، هي حقًا الممول الحقيقي لتلك الرحلة؟! التفسير الأقرب إلى المنطق يكمن فيما أورده العلامة الراحل حمد الجاسر - رحمه الله - في الكتاب ذاته من أن بيركهارت قد اطلع على رحلة الألماني سيتزن، فسار على خطاه ! وما يرجح ذلك الاحتمال أنه سافر بعد ذلك إلى القاهرة، فتعرف إلى أرمني يدعى بوصري، كما سماه المعربون الأكاديميون أمثال د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي، ود. عبدالرحمن عبدالله الشيخ، أو بوساري كما ذكره الدكتور عبدالله الصالح العثيمين في ترجمتهم لمؤلفاته، فحروف اسمه الإنجليزية Basari تقبل الاحتمالين. كان ذلك الرجل الأرمني هو الطبيب الخاص لحاكم مصر آنذاك محمد علي باشا، فتمكن عن طريقه، بعد ما أعلن إسلامه، من الحصول على إذن للسفر، وخطاب توصية من محمد علي باسمه الخامس الشيخ إبراهيم الشامي، إلى ولاته وحكامه في الحجاز آنذاك بتسهيل أمره، وذلك بعد أن توطدت صلاته وحظي بعدة مقابلات مع حاكم مصر.

إلا أن من أشد ما يثير الشك، ويبعث الريبة، ما جاء في الكتاب ذاته، كان ما ذكره من أن محمد علي باشا استدعاه إلى الطائف بعد وصوله إليها، ولم يكن قد مر على إقامة بيركهارت في مكة المكرمة سوى ٤٠ يومًا، لما كان يراه في بيركهارت من أنه جاسوس إنجليزي سيذهب إلى الهند ليقدم تقريرًا عما شاهده في الجزيرة العربية، ومحمد علي، كما يعترف به أعداؤه قبل أتباعه، رجل لا ينقصه الذكاء، ولا يخلو من حنكة ودهاء وخبرة ومعرفة بالرجال، وقد قابله، وتحدث إليه أكثر من مرة، فلا بد أن يكون قد لمس منه ما أثار ظنونه، وأوقد ريبته وشكه.!.

ثاني أولئك المستشرقين هو الهولندي كرستيان سنوك هورخرونيه C. Snouk Horgronje، الذي ربما كان إسلامه وسلوكه وطرده من مكة المكرمة مثار جدال واختلاف حاد منذ ما يزيد على قرن من الزمان، وما زال، ولا يدانيه فيه إسلام مستشرق آخر!.

فلكل من قضية إسلامه ومسلكه وطرده قصة مثيرة تستحق السرد، لا لتبيان مدى الخلاف حول كل منها فحسب، بل لإبراز ما كان من تلهف وتنافس بين قمم المستشرقين الأوربيين ودولهم للاستئثار بنوادر الآثار، وريادة الجديد من الأبحاث، وما يبذلون في سبيل ذلك من جهد ومكابدة، وتفان وتضحية، لا يدانيها أولو الشأن من أهل البلاد أنفسهم، يشهد بذلك من لا يضارعه آخر فيما سخّر من حياته وماله في شدّ الرحال إلى أمات المكتبات،



طبيب من مكة المكرمة (تصوير هورخرونية) عام ١٨٨٥م)

علامة الجزيرة الراحل حمد الجاسر - رحمه الله - في قوله: «لقد كان لنا وللغربيين نمطان في حياتنا، عشنا شظفًا وشدة وفقرًا ومن لازم ذلك أن نكون أقوى صبرًا، وأشد جلدًا وتحمل المشاق من أولئك الذين عاشوا عيشة ترف ورخاء ونعمة، ولكن الأمر بعكس ذلك .. فالعالم منهم يفطم نفسه .. متحملاً جميع ما يعترضه من مشاق، وما هكذا حالة الباحث منا!».

كان حمد الجاسر من أشد منتقدي ذلك المستشرق، ومن أبرز المشككين في إسلامه دون أن ينكر فضله ومدى إعجابه بكتاباته، من خلال وصفه لما اطلع عليه من مؤلفه الشهير «صفحات في تاريخ مكة المكرمة» بأنه من أمتع ما قرأه، إن لم يكن أمتعها. بل وأفاض وأسهب في عرضه وثنائه على ذلك الكتاب، فإن كان للحق أن يقال ففي ما بذلته دارة الملك عبدالعزيز من إخراج للكتاب ما يوجب الثناء والإعجاب، وخاصة لما جاء في توطئة مقدمة الكتاب توطئة بلغت عشرات الصفحات. زانتها موضوعية وحيادية في عرض ما للمؤلف هورخرونيه من فضل، وما عليه من مآخذ، وملابسات كل من القضايا الثلاث محل الخلاف من تفاصيل ضافية ومعلومات وافية، ما يشكل خير مرجع ومدخل لاستعراض القضايا المثيرة الثلاث، بدءًا بعرض سريع موجز عن سيرة حياته وسلوكياته! ..

ولد هورخرونيه في هولندا عام ١٨٥٧م، ووقف نفسه لدراسة اللغات والآداب السامية، وعلى وجه الخصوص الإسلامية منها، فكانت أطروحته في نيل شهادة الدكتوراه بحثاً بعنوان: «الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي». سافر بعدها إلى ألمانيا ليعمل تحت إشراف أحد أشهر أقطاب الاستشراق، البروفيسور الألماني نولدكه، الذي لم يكن له منافس في عصره سوى الفرنسي الذي لا يقل عنه أهمية وشهرة أرنست رينان .. منافسة ملامحها ستبرز من خلال ملابسات قصة طرد هورخرونيه من مكة المكرمة، بتلك الصورة المفاجئة والطريقة الحازمة !.. كان قد دخل مكة المكرمة تحت اسم مستعار هو عبدالغفار، ليؤلف عن تاريخها وأحوالها، خلال الأشهر الستة ونصف الشهر التي قضاها فيها، وهذا ما عده المختصون قمة كتابات قمم الكتاب المستشرقين الأربعة (باديا، وبيركهارت وبيرتون وهورخرونيه) عن مكة المكرمة.

ما إن صدر كتابه في مجلدين بعد طرده من مكة المكرمة حتى ذاع صيته، واشتهر، فعرضت عليه جامعة كيمبردج الإنجليزية الشهيرة، كرسي أستاذ اللغة العربية، كما عُرضت عليه مناصب مماثلة من جامعات ألمانيا وهولندا، إلا أنه

رفضها جميعًا، مفضلاً العمل مستشارًا للحكومة الهولندية للشؤون الإسلامية في مستعمراتها الإندونيسية ! ... في ذلك أول ما يثير الدهشة والاستغراب، بل والشك والارتياب!.. إذ كيف يفضل عالم باحث وظيفة مستشار في جزر مستعمرات نائية، على أبرز المناصب العلمية في أعرق الجامعات الأوربية، التي تتيح له فرصة الاستمرار في أبحاثه بما توفر من مناهل ومراجع ومصادر، إن كان هدفه حقًا البحث العلمي المجرد؟!. ومما يزيد من حدة الشك والارتياب، أنه خصص فصلاً كاملاً من ٩٠ صفحة من كتابه الشهير لتفصيل أوضاع الجالية الإندونيسية ونشاطها في مكة المكرمة وتحليل هذه الأوضاع في حين لم يخصص ما يماثلها أو يدانيها عن أي جالية أخرى، بل وفصل فيه وحلل علاقة الحجاج الإندونيسيين لا بعلمائهم في مكة المكرمة فحسب، ولا مدى تأثرهم بما يجري في العالم الإسلامي من مقاومة للمستعمرين، بل علاقة الحجاج بتشجيع الثورة ضد المستعمرين الهولنديين في إندونيسيا. ومما زاد في التشكيك في أهدافه الحقيقية الخفية، ورسّخ الارتياب في سلامة ما ادّعاه من إسلام، هو تجسسه على المسلمين طوال السبعة عشر عامًا التي قضاها مستشارًا للحكومة الهولندية في إندونيسيا، وتحريضه حكومته على الفتك بالمسلمين، والقضاء على ثورتهم ضدهم، وذلك بقتل علمائهم وقادتهم، مما كان السبب الأساسي للاعتقاد بزيف ادّعائه الإسلام. فلو كان إسلامه أصيلاً لا غبار عليه، لما تم طرده من مكة المكرمة أصلاً، والذي كانت مسبباته بحد ذاته، محل خلاف بين المهتمين، لما انطوت عليه روايات طرده من فصول مثيرة شائقة، لا تبرز تنافس أقطاب المستشرقين في الاستحواذ على أهم الآثار العربية (حجر تيماء الشهير الذي يشكو التشرد والغربة في دهاليز متحف اللوفر الباريسي الشهير، ينتظر مطالبة الغيورين من أهله بإعادته إلى وطنه)، بل لما يلف أحداثها من غموض وألغاز أقرب ما تكون إلى روايات الجاسوسية الدولية المفعمة بضبابية حبائل التآمر والاغتيال والدس وغموضها، مما يؤهلها لأن تكون جديرة بالسرد والتفحص والتمعن.

اتفقت الحكومة الفرنسية في عام ١٨٧٨م مع عالم من منطقة الألزاس المتنازع عليها مع ألمانيا، يدعى شارل هوبر على السفر إلى الجزيرة العربية، والتجوال فيها، وتقديم تقرير عن منطقة نجد. وصل هوبر إلى تيماء فعثر في أثناء تجواله على حجر أثري أثار انتباهه، اشتهر فيما بعد بحجر تيماء Tiema Stone.

عاد هوبر بعد خمس سنوات عام ١٨٨٣م إلى تيماء بصحبة مستشرق ألماني يدعى يوليوس أويتنج Julius Euting الذي كثيرًا ما اشتكى في كتابه «رحلة داخل الجزيرة العربية» المعرب والصادر عن دارة الملك عبدالعزيز، عن رحلته تلك من تهرب رفيقه هوبر من التعاون والتملص من إرشاده إلى مكامن الآثار في تلك المنطقة!..

تمكن هوبر في رحلته تلك من الحصول على ذلك الحجر بعد إرضاء صاحب المنزل الموجود الحجر على سوره، وإقناع أمير تيماء عبدالعزيز بن رمان، وافترق الرفيقان المتنافسان بعد ذلك.

اصطحب هوبر الحجر معه إلى حائل التي يحمل إلى أميرها آنذاك محمد بن رشيد هدايا من سيوف وأسلحة، يقول عنها العلامة الراحل حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ: إن

كانت أول إطلالة لفيلبي على الإسلام من شرفة اللغة العربية حين تعلمها في الهند، إلى جانب تعلمه اللغتين البنجابية والأوردية، بعدما أتقن اللغتين الفارسية والهندوستانية بجامعة كيمبردج

أهل حائل ما زالوا يذكرون منها السيوف الهوبرية. أودع هوبر الحجر أمانة لدى أمير حائل وأسرع بعدما أوجس خيفة من رفيقه الألماني أويتنج بالذهاب إلى جدة ليرسل صورة الحجر وملاحظاته عنه عن طريق القنصل الفرنسي، إلى قطب الاستشراق الفرنسي أرنست رينان عازمًا العودة إلى حائل، لاسترداد الحجر ومحاولة حمله وإرساله إلى باريس.

كان توجسه في محله، إذ ما إن وصل الألماني يوليوس أويتنج إلى القدس، حتى أرسل بدوره ملحوظات عن ذلك الحجر إلى قطب الاستشراق الألماني! .. والذي زاد أحداث القصة وتيرة وتوترًا وإثارة، كان مقتل شارل هوبر الفرنسي على يد مرافقيه وأدلائه، بعيد خروجه من جدة!.

نفخ مقتل هوبر ضرام صراع الحصول على الحجر، فاستعان القنصل الفرنسي، بمنفي جزائري يدعى سي عزيز الذي أخبره في أثناء المساومة للاتفاق على أتعابه التي بلغت ٥٠٠٠ فرنك مقابل إحضار الحجر من حائل، بأن شخصًا آخر دفع له ضعف ذلك المبلغ ليحضره له. حامت الشكوك حول هورخرونيه الذي كان في جدة آنذاك،لإتقان اللغة العربية، وتوطيد علاقاته، وإقامة اتصالاته، لتمهيد دخوله إلى مكة المكرمة. فنفى علاقته بمقتله، إلاّ أنه اعترف بإرساله خطابًا إلى أستاذه أويتنج مؤكدًا له إمكانية وصول الحجر إلى جدة سالمًا!.. فما كان من القنصل الفرنسي إلا أن زود الصحف الفرنسية بتلك

أولريخ جاسبارسيتزن رحالة ألماني مغامر، زار بلاد الشام عام ١٨٠٦م، منقبًا عن الآثار، ومؤلفًا كتابًا عن رحلته، وصف فيه مشاهداته وتجاربه مع قبائل البدو الرحل في بادية الشام والبتراء

الأخبار والشكوك، لتصدر مقالة في جريدة الزمان Le Temps الفرنسية تناولت فيها مقتل هوبر، ومحاولة سرقة الحجر من قبل الهولندي هورخرونيه، فنقلت عنها الخبر جريدة إسطنبول العثمانية لتقول: إن هناك هولنديًا يتخفى تحت اسم عبدالغفار يحاول سرقة نقوش أثرية. أوعزت السلطات العثمانية إلى واليها في مكة المكرمة بطرد ذلك الهولندي فورًا دون إبداء الأسباب، فما كان من القائم مقام العثماني النائب عن الوالي الغائب إلاّ أن طلب منه المغادرة خلال ساعات مخفورًا بجنديين إلى جدة !..

تباينت ردود أفعال المؤرخين العرب تجاه تلك القصة، فبينما أيدها الدكتور قاسم السامرائي الذي تربطه علاقات، ويتقن لغة المستشرقين الهولنديين، إذ ألمح إليها خير الدين الزركلي في «الأعلام» حين كتب ما نصه: «أنه دخل مكة متسميًا بعبد الغفار، ومكث في «سوق الليل» خمسة أشهر، واضطر إلى مغادرتها فجأة قبل حلول موسم الحج لانكشاف أمره، لكلمات تفوه بها وكيل قنصل فرنسا في جدة في بعض المجالس».

أما الأستاذ حمد الجاسر - رحمه الله - فقد رفض أن يكون حجر تيماء ومقتل الفرنسي هوبر سببًا في إخراج هورخرونيه من مكة المكرمة، فقال عنها: إنها قصة مختلقة، هدفها تغطية افتضاح أمره، لتمكينه من إكمال مهمته في السفر إلى إندونيسيا والتجسس على المسلمين بادعّائه الإسلام. وقد أورد في ذلك حججًا لتفنيد القصة، إلا أنها - للأسف - لا تصمد أمام التمحيص والتدقيق!..

فقد ذكر عن مقتل هوبر ما حدثه به الأستاذ فهد المارك أن الأمير محمد بن رشيد أوعز إلى رجل من قومه يدعى ابن شميلان حين أوجس ريبة من تصرفات هوبر، بالقيام بقتله إذا بلغ بلدة العلا خارج حدود بلاد ابن رشيد!.. ضعف تلك القصة لا يكمن في صعوبة تصديق أن الأمير محمد بن رشيد، بكل ما عرفه عنه من حكمة وحنكة وسياسة مكنته

من التربع على سدة الحكم طوال ما يزيد على ٢٦ عامًا، شهدت فيها البلاد أطول فترة من الاستقرار والازدهار، لا يعقل أن يغدر بضيف أهداه من ثمين الهدايا ما بات حديث الناس فحسب، بل إن تسلسل الأحداث لو صحت تلك الرواية، لكان مقتل هوبر قبل دخوله جدة التي إن وصلها تمكن من إبلاغ المعلومات للقنصل الفرنسي، والإبحار منها هاربًا، ولكن مقتله كان بعد خروجه؛ مما يرجح بقوة أن السبب كان الطمع فيما حمل من أموال من القنصل الفرنسي لتغطية تكاليف نقل ذلك الحجر، الذي لم يمنعه من إحضاره معه إلى جدة إلا ربما قلة ما كان معه من أموال لتغطية تلك التكاليف التي قد تكون السبب الأساسي في حضوره إلى جدة، ونيته العودة إلى حائل.

أما القول بأن الحجر كان ثقيلاً يصل وزنه إلى ١٥٠ كيلاً مما حتّم نقله إلى العلا لا جدة، كما ورد في القصة، إذ نقل منها عن طريق السكة الحديدية إلى دمشق، ثم إلى باريس، فأول ضعف في ذلك الفرض أن من يقدر على حمل الحجر على ظهور الجمال من تيماء إلى حائل، ثم من حائل إلى العلا، يستطيع إيصاله بالوسيلة نفسها إلى جدة !.. أما ما ينقصه تمامًا، فهو ما ورد في هامش صفحة تلك القصة من تعقيب يقول: «في ذلك التاريخ لم يكن خط سكة الحديد قد أنشئ بعد»..!

لكن تأييد السبب أو تفنيده في طرده من مكة المكرمة لا يضعف مطلقًا رؤية الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - من زيف ادعاء هورخرونيه بالإسلام، فهناك دلائل قوية أنه لم يسلم أصلاً !!..

يورد الدكتور قاسم السامرائي دليلين على إسلامه، تفنيدًا على حد تعبيره لمزاعم المستشرقين أن وصوله إلى مكة المكرمة كان ناجمًا عن نفوذ القنصل الهولندي وعلاقاته بعلماء مكة المكرمة وواليها، ولم يكن عن طريق إشهار إسلامه. أولهما: أن المذكرات التي كتبها هورخرونيه بخط يده، والتي اطّلع عليها في مكتبة جامعة ليدن تظهر أن عملية إشهار إسلامه تمت على يد قاضي جدة إسماعيل آغا، وبحضور شاهدين. وثانيهما خطاب من النبيل الإندونيسي رادون أبو بكر يدعوه فيه: «الأخ في الله الشيخ الأمجد عبدالغفار» ويزيد أنه من غير المعقول أن يدعو الباشا وإلي مكة هورخرونيه لزيارته فيها دون التأكد من إسلامه فذلك محرم شرعًا ..

ولكن بالعودة إلى تلك المذكرات الوارد نصها في تطئة المقدمة السابق ذكرها، نجد أن هورخرونيه قد كتب ما نصه حرفيًا: «زارني إسماعيل آغا قاضي جدة، في بيت رادن أبو بكر، حيث كنت أقيم، وبصحبته رجلان من جانب الوالي». فهو لم يشر من قريب أو بعيد إلى اعتناقه الإسلام على يده فضلاً عن إعلانه وإشهاره، ولم يتمكن أحد من توثيق اعتناقه الإسلام عن طريق سجلات قضاة جدة !.. أما استشهاده بعبارة (الأخ في الله)، الواردة في خطاب من أقام في بيته، فهي ليست بينة على إسلامه، فهي توجه لكل من آمن بالله من أهل الكتاب، فالإثبات كان سيكون أمتن وأصلب لو كانت العبارة تقول: «الأخ في الإسلام» !.. وإن كان لا مجال للجدال في تحريم دخول غير المسلمين إلى مكة المكرمة، فالتاريخ يثبت أن بعض النصارى قد دخلوا مكة المكرمة عن طريق أهل النفوذ، فقد ذكر (الأزرقي) في «تاريخه» عن مكة المكرمة، أن عبدالملك بن مروان بعث رجلاً

حصل بيركهارت على مساعدة من الجمعية الإفريقية البريطانية، بعدما وطّد صلاته بأمثالها من الجمعيات، للقيام برحلة إلى تمبكتو لمرافقة حجاج تلك البلاد عند عودتهم من مكة المكرمة



صورة من سنة ١٣٤٨هـ عبر أسطح المباني في الرياض، حيث يظهر في المقدمة جزء من السوق، وفي أعلى اليمين يمكن رؤية حصن المصمك

نصرانيًا مهندسًا لترميم وإصلاح ما حاق بالكعبة المشرفة من تصدع على إثر سيل عظيم، سمي بسيل الجحافل سنة ٨٠هـ. كما أن أول مستشرق نصراني زار مكة المكرمة، كان الإيطالي فارتيما الذي دخلها برفقة أحد الضباط الأتراك المكلفين حماية حجاج الشام، إضافة إلى ما ذكره الرحالة الفرنسي تاميزيه من أنه كان على إمرة سلاح المدفعية عام ١٣٨٤م في المدينة المنورة رجل إنجليزي يدعى أتكينز، بل وتذكر مصادر التاريخ الموثقة أن إبراهيم باشا بعد ما استولى على المدينة المنورة في حملته الشهيرة نصّب عليها مملوكًا نصرانيًا من أصل بريطاني يدعى توماس كيث!..

أما ما قيل كإثبات جديد من أن الوثائق التي لم تفتح إلا عام ١٩٩٧م، بناءً على توصية من ابنته بعدم فتحها قبل ذلك التاريخ، فأسند فتحها إلى لجنة خاصة في أثناء عقد جامعة ليدن لمؤتمر بهذه المناسبة، وكان ممن حضره معالي الشيخ أحمد زكي يماني، والدكتور معراج مرزا (أحد مترجمي كتاب هورخرونيه)، إضافة إلى حفيده المسلم الذي أكد أنه رأى رسالة من جده ضمن تلك الأوراق يعلن فيها أنه مسلم، وقد رأت اللجنة الرسمية المكلفة تمزيقها؛ لأن ذلك سيكون مخيبًا لآمال الكثيرين من عشاقه، إضافة إلى مردوده السلبي على الجامعة، فذلك ما لا يقبله عقل،

إذ لا يعقل أن تقوم لجنة رسمية مكلفة من جامعة تعد من أعرق مراكز الاستشراق وأهمها في العالم بتمزيق وثيقة رسمية مهما كانت محتوياتها، فضلاً عما ستحدث تلك الأخبار إن نشرت في صحيفة أوربية من فضيحة مدوية تفوق آثارها السلبية عشرات المرات، سلبية الإعلان عن إسلامه. أما السبب الآخر من التأثير المخيب للآمال على عشاقه فيدحضه أن السجلات الرسمية البلدية المحفوظة في دار الوثائق بمدينة ليدن تذكر أن هورخرونيه قد كتب بخط يده بجانب حقل الدين في هذا السجل بلا دين!.. فهل يكون تخييب آمال عشاقه أشد في انتمائه إلى دين سماوي، من كونه ملحداً بلا دين؟! .. لعل في ذلك ما يثبت أن ما ادعّاه هورخرونيه من انتماء إلى الإسلام لم يثبت صحته أصلاً، فضلاً عن زيفه!..

البولندي ليوبولد Leopold يمكن وصفه دون تردد بأنه الاستثناء !.. لا لكونه الرحالة الأوربي الوحيد الذي كان يهودياً قبل أن يسلم، ولا لأنه الوحيد من المستشرقين على الإطلاق الذي تسنم منصب مندوب دولة إسلامية في الأمم المتحدة، وليس لأنه أسلم بعدما جرب عدداً من المعتقدات والاتجاهات، بل لأنه الوحيد الذي يمكن القول عنه وبكل ثقة واطمئنان: إن إسلامه لم يكن قناعة لتحقيق مآرب أو أهدف، بل نجم عن إيمان واقتناع؟!..

ولد ليوبولد في مدينة لوو Lwow البولندية، التي عرفت أيضاً باسم لمبرج Lemberg عام ١٩٠٠م، وكانت تلك المدينة آنذاك، تابعة للإمبراطورية النمساوية. عائلته لم تكن عائلة يهودية عادية، إذ كان لها تاريخ ارتباط عريق بالمؤسسة الدينية اليهودية، فقد ارتقى عدد من أسلافه سلالم المراتب الكهنوتية، بل أن جدّه لأبيه كان حاخام مقاطعة بوكوفينا النمساوية آنذاك.

قضى طفولة سعيدة بين كنف والديه في بحبوحة ويسر، فقد كان أبوه محامياً ناجحاً، وأمه من عائلة مصرفية ثرية، في بيت محاط بأشجار الكستناء، وسط مدينة تغفو بين الغابات والحقول .. لم يبخل عليه أبوه بعطاء، فقد كان يصطحبه في رحلات لكبريات العواصم القريبة، والمنتجعات البعيدة .. فيينا .. برلين .. جبال الألب، وبحار البلطيق والشمال في العطلات، ويقضي الإجازات الأسبوعية في رحلات إلى المتنزهات والغابات بصحبة أبويه وأقرانه.

في صباه وضح ميله إلى قراءة التاريخ والشعر والفلسفة، وكان عليه حسب تقاليد عائلته اليهودية، تلقي العلوم الدينية العبرانية على يد مدرسين خصوصيين، فأتقن اللغة العبرية، وشيئاً من الآرامية، وتعلم العهد القديم، وعرف الفرق بين تلمود بابل وتلمود أورشليم، وهو ما زال في الثالثة عشرة من عمره، إلا أن ذلك التعليم غرس في نفسه بذرة الشك والارتياب!.. إذ بدا له الخالق حسب نص تعبيره، وكأنه إله مشغول البال بصورة غريبة، بمصاير أمة واحدة، لا كخالق الناس أجمعين ! شكل ذلك الشعور المبكر بداية رحلة بحث مضنٍ، طال سنين، حتى هداه الله إلى الدين اليقين .. ففي السابعة عشر اقتنع بفلسفة «لاوتسي» الصينية، لكنه ما إن وصل إلى مرحلته الجامعية حتى بدأت تلك الأفكار تتراجع أمام اقتناع جديد بمدرسة «فرويد» التحليلية النفسية، وما أتت به من دوافع اللاوعي في تشكيل شخصية الإنسان وتأثيرها في مساحة حياته ... إلا أنها اضمحلت بدورها حين ترك فيينا إلى

عاد هوبر بعد خمس سنوات إلى تيماء بصحبة مستشرق ألماني يدعى يوليوس أويتنج الذي كثيراً ما اشتكى في كتابه "رحلة داخل الجزيرة العربية" من تهرب رفيقه هوبر من إرشاده إلى مكامن الآثار في تلك المنطقة

برلين المكتظة بالمقاهي والمنتديات، الزاخرة بالأدباء والفنانين والمفكرين ... والمتثاقفين حيث تقام حلقات النقاش لتتصارع على حلبتها ديكة الماركسية والثورية والديمقراطية إلا أن كل تلك الأفكار والتيارات لم ترو ظمأ ما كان يشعر به تجاهها من خواء روحي!.. كانت أوربا آنذاك تعيش فترة رخاء ما بعد الحرب العالمية الأولى، فانهمك الناس جريًا خلف المصالح المادية، وجنيًا للملذات الحسية .. إلههم المادة، ومعابدهم المصانع الجبارة، ودور عرض السينما، وصالات الرقص .. كهانها الصرافون والسياسيون ونجوم السينما .. حسب وصفه الأدبي البليغ في كتابه الشائق «الطريق إلى الإسلام» وإن لم يسلم من مبالغات تصل إلى حد الخيال في كثير من صفحاته .. كتاب تفرغ لكتابته عام ١٩٥٢م بعدما استقال من منصب رفيع مهم يطمع فيه الكثيرون!. منصب الوزير المفوض لدولة باكستان الإسلامية لدى الأمم المتحدة، لكن جهده لم يخيب، فقد ترجم الكتاب إلى أربع لغات أوربية، إضافة إلى الأوردية، وأخيرًا إلى العربية التي أعيد طبعه بها لرواجه، تسع مرات حتى عام ١٩٩٧م.

نقطة التحول من حياة الضياع التي عاشها، بل قاساها في برلين، جاءت حينما استلم رسالة من خاله دوريان الذي كان طبيبًا نفسيًا يرأس مستشفى للأمراض العقلية بالقدس، إبان الهجرة المتزايدة لليهود إلى فلسطين .. شعوره بالغربة

استعان القنصل الفرنسي بمنفي جزائري يدعى سي عزيز الذي أخبره في أثناء المساومة للاتفاق على أتعابه التي بلغت ٥٠٠٠ فرنك مقابل إحضار الحجر من حائل. بأن شخصًا آخر دفع له ضعف ذلك المبلغ ليحضره له

والعزلة، دفع خاله إلى البحث عن رفيق من أهله يؤنس وحدته، فبعث برسالته تلك إلى ابن أخته يعرض عليه السفر إلى القدس متكفلاً بكل مصروفات الرحلة، بما فيها تذاكر السفر ذهابًا وإيابًا !.. ولكن ما إن وطأت قدماه أراضي البلدان العربية الإسلامية، حتى تملكته الدهشة مما رأى !.

طيبة، وسكينة واطمئنان، لم يرها إبان كل مراحل حياته، خلال كل ما عايشه في مختلف حواجز ما زار نم بلدان! بدوي شاركه مقصورة القطار ما بين الإسكندرية والقدس، وما إن حان إفطار الصباح، حتى ابتاع من إحدى المحطات فطيرة شطرها نصفين ليتقاسمها معه دون معرفة سابقة، بعفوية وطيبة فطرية لم يعهدها من قبل! .. مشاهد ما رأى من نافذة غرفته في بيت خاله المطلة على باحة خلفية تتجمع فيها الأنعام الحاملة لخيرات أرياف فلسطين من فواكه وخضراوات، يديرها شيخ يترأس مجموعة من العمال.. ثيابهم رثة .. وطعامهم لا يتعدى الخبز والجبن والزيتون .. يكدحون طوال اليوم .. لكن ما إن يرتفع صوت الأذان حتى يصطفوا خلف شيخهم يؤدون الصلاة، وعلى وجوهه ترتسم سعادة وسكينة وطمأنينة، لم يرها من قبل!. تجربة فريدة كانت بمنزلة إطلالة جديدة، قلبت رأسًا على عقب كل مفاهيمه القديمة المستقاة من مؤلفات أوربية وإعلام يشوه الإسلام!.. مضت أربع سنين وهو يعاني حيرة جذب وشد بين ما يسمعه من أصحابه ومعارفه في مقاهي برلين، وما يقرؤه ويراه في أثناء تجواله في البلدان الإسلامية، في زياراته المتكررة، قبل أن يهديه الله إلى دينه القويم، على إثر حادثة مؤثرة رواها للشيخ عبدالله بن بليهد في فناء مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، حسبما كتب في كتابه ..! كان مع زوجته في إحدى عربات قطار الأنفاق في برلين، يجلس قبالته رجل وزوجته تبدو عليهما آثار النعمة والثراء، ولكن الذي لفت انتباهه كان العبوس والتجهم المرتسمين على وجهيهما، لفت انتباه زوجته، وتلفت فيما

حوله، ليرى علامات القلق والشقاء لا تكاد تفارق وجهًا من الوجوه على الرغم مما يبدو عليهم من مظاهر الغنى واليسر والثراء، فأخذته الحيرة كل مأخذ، شعب لا يكاد ينقصه شيء من الماديات .. ينعم بأرقى مستويات المعيشة في العالم .. ويتمتع بكل ما يخطر ولا يخطر على البال من ملذات .. ومع ذلك يرتسم العبوس والقلق والشقاء على الوجوه!.. ما إن عاد إلى بيته وألقى نظرة على مكتبه، حتى رأى نسخة مفتوحة من القرآن الكريم .. هم بإغلاقه فوقعت عينه على الاية الكريمة: ﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر. كلا سوف تعلمون. ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾. فاعتراه صمت عميق، ثم التفت إلى زوجته قائلاً: (أصغي إلى هذا .. أليس هذا جوابًا لما لفتُّ انتباهك له في القطار؟) .. زال كل شك، وتردد فجأة، وغمرته سكينة وطمأنينة .. فسأله الشيخ البليهد عما فعله بعد ذلك فقال: إنه ذهب إلى رئيس الجالية الإسلامية في برلين ليعلن إسلامه على يديه .. فما إن أتم الله نعمته عليه حتى غير اسمه إلى محمد أسد .. تعريبًا لمقطع (ليوLeo) من اسمه السابق الذي معناه أسد ..

فهل يتسرب أدنى شك لمؤرخ أو باحث محايد، إن كان إسلام محمد أسد كان قناعًا أم كان بعد تفكير وتأمل، ومقارنة واقتناع؟!

وأخيرًا نصل إلى آخر أشهر وأغزر من كتب، وأطول من أقام في البلاد العربية من الرحالين الغربيين هاري سانت جون فيلبي H. ST. Jphn Philby شهرته كانت أحد أهداف حياته التي حققها، لا من خلال صلاته واتصالاته بأعظم رجال عصره ممن كان لهم دور حاسم في التأثير في أحداث ومجرى التاريخ، كالملك عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله - ورئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل، والسير بيرس كوكس، وعشرات كانت لهم أدوار محورية فيما جرى من أحداث، ولا من خلال عشرات المقالات التي نشرتها كبريات الصحف الغربية، أدّى ما اكتنفها من جرأة وصراحة في معارضته السياسية الخارجية لحكومة بلاده إلى اعتقاله في الهند في أثناء الحرب العالمية الأخيرة، وإرساله إلى بريطانيا ليحتجز فيها لعدة شهور، بل قد لا يدانيه أحد فيما كتب عنه من أبحاث ومقالات وكتب!..

غزارة إنتاج قد يكفي لإبرازها الاستشهاد بما أورده الدكتور عبدالله الصالح العثيمين في مقدمة ترجمته لكتابه «بعثة إلى نجد» من أنها بلغت أكثر من ثلاثين كتابًا منشورًا وغير منشور، وما ذكره العلامة الراحل حمد الجاسر من أنه رأى في أثناء زيارته له بمنزله، غرفة مستطيلة مملوءة بالأضابير، وصلت بعد وفاته «بطريقة أو أخرى !..» إلى مركز الشرق الأوسط في كلية سانت أنتوني St. Anthony بجامعة أوكسفورد فبلغت ما يملأ (٥٠) صندوقًا كما جاء نصًا في كتاب «رحالة غربيون في بلادنا»، لا شك في أنها تمثل كنزًا من المعلومات والوثائق لمؤرخي المستقبل وبحاثة!. أما مدة إقامته وعدد رحلاته الاستكشافية فلا يضارعه أو يدانيه فيهما أحد من الرحالين الغربيين قبله. فقد قضى عشرات السنين ما بين العراق والأردن ومصر ولبنان والجزيرة العربية، إلا أن غالبيتها العظمى، كانت برفقة الملك عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله - ورعايته، التي هي أساس شهرته، فقد امتدت زياراته وإقامته على مدى ٤٦ عامًا منذ

ولد هورخرونيه في هولندا عام ١٨٥٧م. ووقف نفسه لدراسة اللغات والآداب السامية، وخصوصاً الإسلامية منها، فكانت أطروحته في نيل شهادة الدكتوراه بحثاً بعنوان: "الحج عند المسلمين وأهميته في الدين الإسلامي"

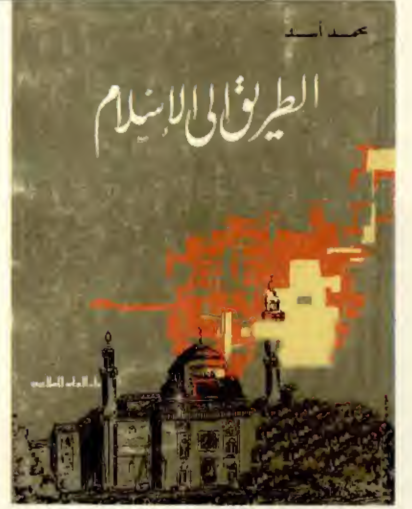


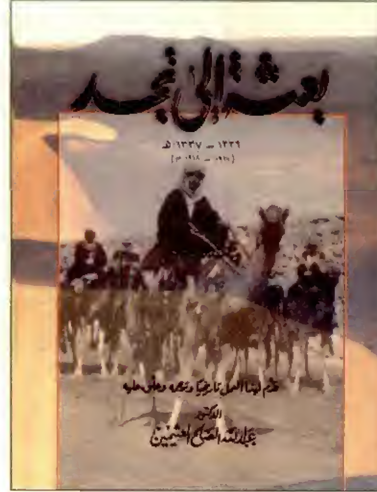
الاحتفال بعيد الفطر في مكة المكرمة (تصوير فيلبي عام ١٩٣١م)

دخل العراق عام ١٩١٤م، حتى وفاته في بيروت عام ١٩٦٠م، قضى معظمها في الجزيرة العربية.

إن كان اعتداده برأيه وجرأته وصلابته قد تسببت في إبعاده عن العراق والأردن، واعتقاله في الهند، واحتجازه في بريطانيا من قبل الحكومة البريطانية، فقد كان لها أثر معاكس لدى الملك عبدالعزيز، وإن كانت تصل إلى الحدة في النقاش والجدال، فقد كان - رحمه الله - من الحكمة - وبعد الرؤية، وسعة الصدر والأفق، ما يثمن معه من يختلف معه، اتباعًا لصدق المأثور القائل «صديقك من صَدَقَك لا من صَدّقك». إلاّ أنّ تلك الصراحة والجرأة، ربما تجاوزت حدودها إلى التكبر والعجرفة «فالأستاذ محمد المانع يروي عن عجرفته أنه حينما حاول أخذ رأيه بكتاب أرسله إليه أخوه عن الفضاء والكون باللغة الإنجليزية، رّد قائلاً: «لا تهتم به فإنك بالتأكيد لن تفهمه!..»، أما تكبره فيكفي الاستشهاد بما ذكره الشيخ حمد الجاسر من أنه حينما زاره مع أحد موظفي الديوان الملكي الأستاذ إبراهيم بن معمر، قابلهما بجفاء، حتى إنه تركهما جالسين صامتين بينما انشغل عنهما بكتاباته، على الرغم من تحديده موعدًا مسبقًا لمقابلتهما !.. ربما كان في ذلك الجانب من شخصيته السبب الأساسي في التشكيك بمقاصده وأهدافه، لا في علاقاته وتشعب صداقاته واتصالاته فحسب، بل وفي اعتناقه الإسلام!..

كانت أول إطلالة لفيلبي على الإسلام من شرفة اللغة





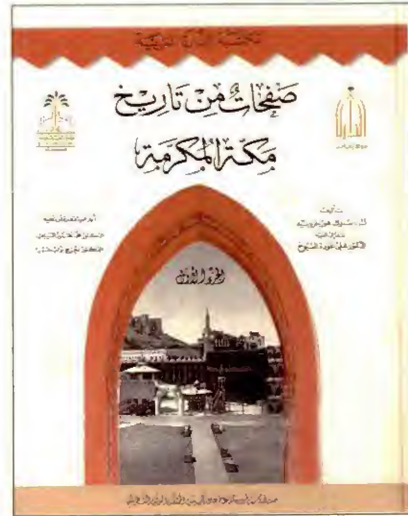
العربية حين تعلمها في الهند التي قضى فيها سبع سنوات، إلى جانب تعلمه اللغتين البنجابية والأوردية، بعدما أتقن اللغتين الفارسية والهندوستانية بجامعة كيمبردج التي التحق بها بعد تخرجه في كلية ترينتي بدرجة امتياز باللغات الحية الحديثة عام ١٩٠٧م، فأتاح له تعلم اللغة العربية الاطلاع على القرآن الكريم والتعاليم الإسلامية، إلا أنه لم يعلن إسلامه حتى عام ١٩٣٠م، فأثار ضجة واستغرابًا، بل وشبه عدم تصديق، كما عبر عنها الأستاذ خير الدين الزركلي في الجزء الرابع من كتابه «شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز» حينما قال: «كنت أول من نشر خبر إسلامه، سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٣٠م، وقد وصلت إليّ رسالة من الطائف إلى القاهرة من يوسف ياسين يقول فيها: (قبل ساعة من كتابة هذه الرسالة أعلن فيلبي بجدة اعتناقه الإسلام) .. اتصلت هاتفيًا برئيس تحرير جريدة المقطم الأستاذ خليل ثابت، وحدثته، ويظهر أنه خشي الخطأ فنشره هكذا: «أخبرنا الأستاذ خير الدين الزركلي أن المستر فيلبي أعلن اعتناقه الإسلام في جدة».. ويضيف أنه من ذلك اليوم أصبح فيلبي يرافق الركب الملكي في الحج وأكثر الأسفار، وهو ما أكده الدكتور عبدالله الصالح العثيمين نقلاً عن أوثق المؤرخين العرب والغربيين، ممن استشهد بهم في مقدمته الوافية عن حياة وكتاباته فيلبي ضمن ترجمته كتاب «رحلة إلى نجد».

أما تفاصيل اعتناق فيلبي الإسلام وخلفياته، فربما كان الأستاذ محمد المانع الذي أفرد فصلاً كاملاً عن فيلبي في كتابه باللغة الإنجليزية «توحيد المملكة العربية السعودية» الذي ترجمه ببعض التصرف المتفق عليه مع المؤلف، إلى اللغة العربية الدكتور عبدالله العثيمين، هو أكثر من أفاض، وفصل تلك الخلفيات، حين قال: «كنت حاضرًا حين نوقش هذا الموضوع (المقصود إسلام فيلبي) مع جلالته. فقال له الملك: إنه إن أصبح مسلمًا، فسيجد

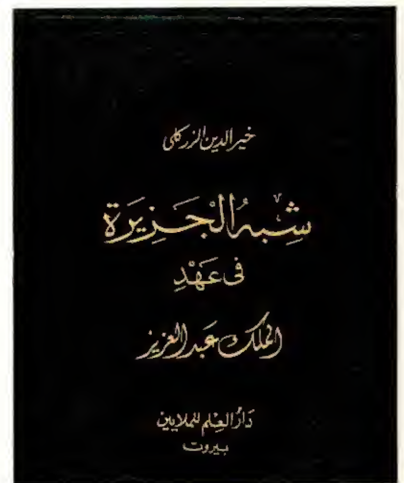
لا يستبعد أن يكون ادّعاء نابليون بونابرت اعتناق الإسلام قد ألهم وحفز الرحالين الأوربيين إلى السير على خطاه. إذ لم تمض بضع سنين حتى شهد التاريخ إشهار إسلام أحد أوائل رحاليهم المشهورين

ترحيبًا، وسيصحبه في أسفاره، بما فيها الحج إلى مكة المكرمة.. لكن فيلبي أبدى نوعًا من التردد .. ثم أخبر الملك أن زوجته لم تكن مرتاحة للفكرة!.. فعرض الملك عليه أن يدفع لها أربعين ألف جنيه إسترليني مقابل طلاقها، ولكن فيلبي أجاب أنه لا يعتقد أن زوجته مستعدة لبيعه مقابل ذلك الثمن، مع أني (والكلام للأستاذ محمد المانع) لا أعلم إن كان قد حاول ذلك معها على الإطلاق. ولا شك أن الملك كان جادًا في عرضه الذي يوضح أن جلالته قد أصبح يقدر مشورة فيلبي ونصائحه تقديرًا كبيرًا».

ويمضي المانع في السرد فيقول: إن نورالإسلام قد طلع أخيرًا على فيلبي عام ١٩٣٠م فأعلن إسلامه، وتسمى بعبدالله بناء على اقتراح الملك، ليحدث له أصعب امتحان لإيمانه، وهو الختان، الذي كان عملية بالغة الإيلام لرجل بالغ «وهي التي لم يذكر أحد أنها أجريت لرحالة قبله أشهر أو ادعى إسلامه» .. وكيف أنه أخذ فورًا إلى الطائف ليقضي بين ربوع جباله وطقسه المنعش فترة نقاهة دامت شهرين، وتعلم أصول العقيدة الإسلامية على يد أحد أشهر علماء المملكة آنذاك الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - رحمه الله - الذي عينه الملك عبدالعزيز لتلك المهمة.



أما فيلبي نفسه، فنراه يلمح إلى خلفيات مناقشاته مع الملك عبدالعزيز حول إسلامه، وإن لم يأت على ما أورده (المانع) من تفاصيل، فهو يؤكد أن الملك عبدالعزيز هو من سماه عبدالله بعد اعتناقه الإسلام، إلا أنه يضفي مسحة درامية على وصوله إلى قراره النهائي باعتناق الإسلام، تحمل إيحاءات ما يشبه المعجزة الإلهية !!.. فيروي في كتاب سيرة حياته المعنون (أيام عربية) المعرب مؤخرًا، أن الإسلام قد اجتذبه بشدة منذ أيامه الأولى في الهند، ويمضي طوال صفحات في سرد أسباب تردده طوال سنين زادت على العشرين، إلى أن يصل إلى تلك الحادثة العجيبة، فيقول ما معناه، أنه فيما كان يعمل في ظهيرة أحد الأيام البالغة الحرارة، الشديدة الرطوبة في جدة، على إنهاء أحد كتبه، سقط رأسه فجأة، ككتلة من الخشب «على حد تعبيره» على الطاولة، وبدت له الدنيا مقلوبة رأسًا على عقب، فما إن تمكن بصعوبة من الزحف والاستلقاء على أريكة قريبة، حتى راح في غيبوبة تامة عدة



ساعات .. استفاق منها فكان عقله الذي كان ناشطًا، قد توصل إلى اتخاذ قرار باعتناق الإسلام.

ويبدو أنه كان مهمومًا مشغول البال بما سيثيره إسلامه من شكوك وأقاويل تتمحور حول ما يستفيد بعد إسلامه من مناصب ورواتب، فنراه يورد بشيء من التفصيل والتركيز رفضه لما اقترحه الملك عبدالعزيز في مجلسه الخاص من منصب، وامتناعه بإصرار عن استلام ما جاء به وزير المالية بتوجيه من الملك من راتب شهري يبلغ خمسين جنيهًا إسترلينيًا. وهو أمر يؤكده المانع في نقله عن الملك عبدالعزيز قوله إن هناك رجلين فقط لم يطلبا منه شيئًا على الإطلاق أحدهما فيلبي..

ومن الجدير بالملاحظة أن جميع من شككوا في إسلامه أو ارتابوا في إيمانه، لم يأتوا بحجة دامغة، أو بينة ظاهرة، سوى ترديد استفادته من استمرارية ملازمة الملك عبدالعزيز في حلّه وترحاله، وخاصة إلى مكة المكرمة أيام الحج التي كان يحرص عليها أشد الحرص، في حين لم يأت أحد منهم بقرينة واحدة أو برهان على عدم التزامه أداء شعائر الإسلام. ومن يقرأ ما كتب، سواء في ذلك الكتاب عن سيرة حياته بما شعر به من طمأنينة وسكينة بعد أداء طواف العمرة، أو ما جاء في كتابه «حاج في الجزيرة العربية» من تعلق بالإسلام من خلال وصفه بأنه الدين الذي انتشر ليكون نورًا يهدي الملايين والملايين لا في آسيا وإفريقية بل حتى في أوربا. وتصديه لتشويه من سبقه من الرحالين الغربيين في دفاعه عن بئر زمزم بقوله: «فهو - بلا شك - أقدس مياه الأرض وأطهرها. إني لا أفهم تشويهاته لدى برتون ووافيل وإلدون ورتر، وغيرهم، فإنه يطيب لي أن أضيف أن البئر محمية من أي تلوث ببناء يغطيها تمامًا»، لا بد أن يقتنع بإيمانه، وهو إيمان يؤكده معاصره الأستاذ محمد المانع في كتابه السابق الذكر، حين نقل عن صديقه محمد الدغيثر أنه سأل فيلبي أن يجيبه بصراحة عن سبب اعتناقه الإسلام، فأجاب أنه درس وقرأ عن كل الديانات الرئيسة في العالم، فاتضح له أن الإسلام هو العقيدة الوحيدة التي تحمل معنى لديه، وهو تأكيد كرره آخر من أجرى حوارًا معه قبل وفاته، ونشره في كتاب «عبدالله فيلبي: قطعة من تاريخ العرب الحديث»، الكاتب والمترجم المعروف الأستاذ خيري حماد، بل أكده بعد مماته الدكتور أحمد زكي يماني الذي نقل عن ابنه وصيته قبيل وفاته بأن يدفن في مقابر المسلمين في بيروت.

أما بعض ما يؤخذ عليه من كتابات عن الإسلام من أنه يدعو إلى الديمقراطية من خلال الآية الكريمة من أن أمر المسلمين شورى بينهم، وينادي بالاشتراكية من خلال

جميع من أسلم من الرحالين المستشرقين رام دخول المدينتين المشرفتين: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، المحرم دخولهما على غير المسلمين. أما من سبقهم من الرحالين النصارى إلى دخولهما فقد تخفّى بأزياء المسلمين

رفض الأستاذ حمد الجاسر أن يكون حجر تيماء ومقتل الفرنسي هوبر سببًا في إخراج هورخرونيه من مكة المكرمة، فقال عنها: إنها قصة مختلقة، هدفها تغطية افتضاح أمره، لتمكينه من إكمال مهمته في السفر إلى إندونيسيا

الدعوة إلى العدل والمساواة، فما ذلك المأخذ في حقيقته سوى دليل وبرهان على أن ما يطرح من مسميات معاصرة، ما هي في حقيقتها سوى قيمة أصيلة نادى بها الإسلام منذ مئات السنين!..

ويستخلص من ذلك العرض السريع أن علاقة الرحالة الغربيين بالدين الإسلامي الحنيف، مرّت بثلاث مراحل: أولاها التخفي بأزياء وأسماء إسلامية بهدف دخول المدينتين المكرمتين المحرم دخولها على غير المسلمين، من أمثال «بيرتون الإنجليزي وباديا الإسباني». والثانية الإعلان أو التظاهر باعتناق الإسلام قبيل السفر إلى مكة المكرمة، مثل بركهارت السويسري الأصل، وهورخرونيه الهولندي، وهذا ما أثار الشك والريبة في صحة إسلامهم. أما المرحلة الثالثة التي يمثلها محمد أسد ليوبولد البولندي، وعبدالله فيلبي (هاري سانت جون فيلبي الإنجليزي)، فإسلامهم لم يأت ارتجالاً فجائيًا، بل تبلور عبر سنين من التفكير والدراسة والمقارنة، مما لا يكاد يترك أدنى الهوامش للشك في إسلامهم. وهو ما قد يفضي إلى استنتاج مهم قد يحمل بعض التفسير لما يمرّ به الإسلام من حملات تشويه، وربط بالإرهاب دون غيره من الأديان في حاضرنا المعاصر!.

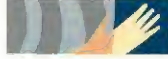
تلك المراحل الثلاث تمثل تحولاً محوريًا في نمط التفكير الغربي، ساد، واستشرى طوال قرون في نظرته المعادية إلى الإسلام. نظرة حملت العداء والكراهية والتشويه منذ الحملات الصليبية، فلم يخل منها حتى من وصفوا بالموضوعية والحيادية في كتاباتهم عن الإسلام. وعلى الرغم من أن ذلك التحول كان بطيئًا في بدايته، وامتد على مدى نحو القرنين، إلا أن وتيرته أخذت بالتسارع في القرن الأخير، لا من خلال اعتذار الفاتيكان الخجول عن الحروب الصليبية، ولا من خلال دفاع أو تحول بعض من أشهر المفكرين من أمثال جاك بيرك، وروجيه جارودي إلى الإسلام فحسب، بل ومن سطوع حقيقة أن الإسلام باعتراف الغربيين قبل غيرهم هو الدين الأكثر انتشارًا في الغرب ذاته!.. فهل ما يتعرض له الإسلام الآن ما هو إلا محاولة لوقف الإسلام وانتشاره ! .. تساؤل جدير بالتأمل ويستثير التفكير!..

المراجع

- صفحات من تاريخ مكة المكرمة: تأليف: ك. سنوك هورخرونيه، نقله إلى العربية: د. علي عودة الشيوخ، أعاد صياغته وعلق عليه: د. محمد محمود السرياني، ود. معراج نواب مرزا. إصدرت دارة الملك عبدالعزيز ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- رحالة غربيون في بلادنا: تأليف: الشيخ حمد الجاسر، إصدار: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر. ١٤١٧هـ.
- بعثة إلى نجد: تأليف سانت جون فيلبي، قدم له وترجمه وعلق عليه: الدكتور عبدالله الصالح العثيمين. إصدار مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- توحيد المملكة العربية السعودية: تأليف الأستاذ محمد المانع، ترجمة الدكتور عبدالله الصالح العثيمين، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.
- شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز: تأليف خير الدين الزركلي، إصدار: دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م
- حاج في الجزيرة العربية: تأليف هاري سانت جون فيلبي «عبدالله فيلبي»، ترجمة أ. د. عبدالقادر محمود عبدالله، إصدار مكتبة العبيكان. الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- الطريق إلى الإسلام: تأليف محمد أسد، نقله إلى العربية عفيف بعلبكي، دار العلم للملايين. إصدار مكتبة العبيكان. الطبعة التاسعة. ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- أيام عربية: سيرة ذاتية . هـ. سانت جون فيلبي، تأليف هاري سانت جون فيلبي (عبدالله فيلبي)، تعريب د. عباس سيد أحمد، مراجعة وتقديم وتعليق: د. فهد عبدالله السماري، ود. محمد حميدان العويضي، أ. عبدالرحمن الشقير. إصدار مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.



تحقيق



زرزورة الواحة المجهولة في بحر الرمال

سمير عطا

القاهرة ـ مصر

عرف بحر الرمال في صحراء مصر الغربية منذ عصر هيرودوت (١)، وقد وصفه بأنه منطقة عظيمة من تلال الرمال جنوب واحة سيوة (٢) التي لم يتيسر لأحد أن يحد مداها من الجنوب. وكان المستكشفون على مر العصور يجوسون خلال حافته بغير أن يتوغلوا فيه حتى عام ١٩٧٣م حين قام الرحالة الألماني رولف Gerhard Rohlfs برحلة من الواحات الداخلة صوب الغرب. وقبل أن يدخل هذه المنطقة أقام علامة سماها المعجزة، وكتب عليها "أيمكن أن تطأ هذا المكان من بعدي قدم إنسان؟"(٣)

ذلك أن بحر الرمال هو من أشد جهات الصحراء الإفريقية الكبرى غموضًا، ويعدّ ظاهرة فريدة من ظواهر العالم الطبيعية التي وقفت ـ وما زالت ـ صامدة أمام التحدي الإنساني للكشف عن غوامضها، ومساحته ٤٠٠ ميل (٦٤٤ كيلو مترًا) طولاً و ٢٠٠ ميل (٣٢٢ كيلو مترًا) عرضًا، على وجه التقريب. وعلى الرغم مما يتصف به من قسوة هائلة وقت الظهيرة، والشمس تلقى بشواظها، على رماله الخادعة فإنه يمتاز بليل هادئ جميل، ويقف كثير من بقاعه الملساء عقبة كؤودًا أمام أجود أنواع السيارات المنشأة خصوصاً لمثل هذا النوع من الصحراء، حتى إنها لا تستطيع أن تقطع أكثر من ٥ أو ٦ أميال في اليوم الواحد.

والزمن لا يعني شيئًا بالنسبة إلى الإنسان وسط هذه الكثبان الرهيبة؛ فهذه الأجيال القديمة التي ابتلعتها رمال الصحراء تبدو لنا وكأنها كانت تعيش بالأمس فقط .. ففي أماكن كثيرة من هذه الصحراء تبدو لنا بين الحين والآخر آثار حياة بائدة وجدت منذ أمد طويل. فقد ظهر الإنسان في هذه البقاع ليجدها أشد ما تكون



خصبًا وخضرة، فعمرها، وسكنها، وأقام حضارات ومدنيات ما زالت مجهولة لنا في كثير من نواحيها. وفي هذه البقاع نجد آثارًا قديمة لطرق كانت تخترقها قوافل الجمال في هذا الفراغ الموحش، وبطول هذه الطرق تظهر بين الحين والآخر آثار هيكل جمل تخلف عن قافلته، ومن هذه الآثار يمكننا أن نستشعر بعض الحماسة التي كانت تدفع تجارة العهد القديم، كما دفعت تجّار عصر الاستكشاف، وتجارة البادية أملاً في جلب البضائع والرقيق وتفريغها على المدن الساحلية العامرة حيث تنتهي هذه الطرق التجارية القديمة، وحيث تقام الأسواق، وتأخذ الحياة دورًا جديدًا مزدحمًا متشابكًا ليس فيه فراغ الصحراء، ولا وحشتها.

لقد كان هؤلاء التجار أول الرواد الذين قاموا بغزو الصحراء في سبيل المال والعبيد، واستطاعوا بمضيّ الزمن أن يكشفوا بعض أسرار الصحراء وأن يربطوا بين أطرافها ومدنها. ثم حدث أن اضمحلت هذه المدن، وبدأت تموت شيئًا فشيئًا لتغير المناخ وجفاف الآبار التي كانت تمدهم بالماء، فرحل الناس عنها، وتخربت هذه

المدن، وبدأت الرمال تزحف عليها فتطمس من معالمها، وتخفيها وسط كثبانها. ومن الرحالين من شاهد هذه الأطلال البائسة تنعى مضيّ الزمن عليها، فعاد ليخبرنا بما شاهد، ومنهم من غرّه سحر الصحراء فأوغل فيها، وشطّ في توغله حتى طوته كثبانها، وراح هو والقديم في طي الزمن. وعلى الرغم من ذلك ما فتئ غيرهم، ومنذ مئات السنين حتى وقتنا الحالي، يتطلعون إلى قهر هذا الغموض الذي تتسربل به البقاع المجهولة في العالم، ومنها تلك المعروفة في الصحراء الكبرى باسم بحر الرمال.

ولما كانت حركة الاستعمار الأوربي قد صاحبها نشاط متزايد لعمليات الكشف الجغرافي الذي سبق حتى حركة الاستعمار نفسها، ومهّد لها، فقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي عدداً من محاولات الكشف الجغرافي للمناطق التي ما زالت مجهولة في العالم .. وكانت صحراء مصر الغربية على رأس أهداف هؤلاء المستكشفين لاستكشاف غوامضها ووضع واحاتها على خرائط المساحة الجيولوجية، ولأغراض استغلالية وسياسية وتجسسية وعسكرية إلى جانب النواحي العلمية. ومنذ عام ١٦٩٨م رحل بونست M. Poncet وهو طبيب فرنسي إلى الواحات الخارجة إبان رحلة له إلى صعيد مصر بعد أن انحرف في مسيره غرباً، وهو يظن أنه يتابع مجرى نهر النيل.

وشهد عامي ١٨١٩ و١٨٢٠م، عدة رحلات ومحاولات للتغلغل في الصحراء الغربية لدراسة أحوال واحاتها وأوضاعها والبحث عن عدد من الواحات المجهولة التي يرد اسمها على لسان البدو والأعراب، مثل: العوينات، وزرزورة التي لا يعرف أحد شيئاً عنها ... وقد بدأ هذه الرحلات بلزوني G. B. Belzoni وهو لاعب سيرك إيطالي - برحلة إلى الواحات البحرية عبر طريق القوافل من بني سويف، وهو يظن أنها واحة سيوة. ويخبرنا الدكتور



محاولات مستمرة من الرحالين لحل لغز الواحة

أحمد فخري (٤) بقصة طريفة عن رحلة بلزوني ومذكراته، فيقول: إن أهل الواحة ظنوا أن مذكرات بلزوني هي أوراق بها طقوس سحرية تبعد الشرب فابتاعوها من خادم بلزوني ليعملوها أحجبة (٥).

وبعد إخفاق حملة نابليون على مصر، عاد إلى مصر برنادينو دروفيتي Bernadino Drovetti - أحد القادة الذين عملوا في مصر تحت لواء نابليون - بعد أن عينته حكومة



سيوة، وعمل رسومات لمعبد سيوة والآثار الجدارية لـ أم عبيد (التي دمرت عام ١٨٩٧م) ... وبذا كانت مذكراته هي السجل الوحيد لهذه الآثار. وقام أيضًا أحد رفقائه وهو فيكتور إهرنبرج Vector Ehrenberg بنشر كتاب بعنوان رحلات في مصر Reisen in Aegybten وفي الوقت نفسه قام أرشيبالد إدمونستون Archibald edmonstone وبعض أصدقائه، ومنهم هوجتون Hoghton، و«ماسترز Masters برحلة إلى الجزء الجنوبي من الواحات الداخلة قادمين من أسيوط عبر درب الطويل، وسار إلى بلاط ثم منها إلى عين أمور، وتخليدًا له أطلقت بعثة رولف Rohlfs التي سنذكرها فيما بعد. اسمه على الجبل الوحيد في الداخلة كذلك قام فردريك كايو Fredric Cailliaud أحد الموظفين الفرنسيين في إدارة محمد علي بعمليات كشفية بطول نهر النيل، ووصل إلى مروي في السودان، كما زار واحات الفيوم وسيوة والبحرية والفرافرة بحثًا عن مواقع المناجم القديمة، والطرق المؤدية إلى الواحات المجهولة، ومنها واحة زرزورة. وفي العام نفسه قام هايد I. Hyde الإنجليزي برحلة إلى هذه البقاع؛ وزعم أنه لم يترك لنا مذكرات عن رحلاته إلا أنه ترك نقشًا لاسمه على بعض الآثار والصخور بها خصوصًا في الواحات الخارجة والداخلة .

الإدارة الفرنسية أول قنصل لها في القاهرة. ولما كان دروفيتي مولعًا بدراسة الآثار القديمة في وادي النيل فقد سمح له محمد علي باشا - والي مصر - بأن يرافق جيشه الذي أرسله إلى سيوة ليفرض سلطانه عليها، وكتب دروفيتي كتابًا عام ١٨٢١م بعنوان: «رحلة إلى الواحات الداخلة» Voyage AL' Oasis De Dakel، كما قام القنصل الألماني فون مينوتولي Von Minutoli برحلة إلى واحة

التاريخ القديم لزرزورة

ولواحة زرزورة تاريخ قديم يقوم على افتراض وجودها، وتسمى على اسم طائر الزرزور، وهو طائر نادر الوجود يعيش في الصحراء، وقد أشار إليها بعض مؤرخي العرب بأنها مدينة عجيبة تحيط بها الحدائق والبساتين، ويعيش فيها قوم انعزلوا عن العالم منذ احتلال الفرس لمصر، وفي عهد عبدالعزيز بن مروان (٥٠هـ) تردد أن بعض الأعراب قد شاهدوا - بعد أن ضلوا طريقهم في الصحراء - واحة غنية بمحصولاتها وفواكهها، فأرسل جيشًا للبحث عن هذه



منطاد في قلب الصحراء في محاولة للهروب من صخب المدينة

الواحة وغزوها، إلا أن الجيش عاد دون أن يعثر عليها. وقيل: إن هذه القصة ربما تتعلق بواحة زرزورة المجهولة أو تشير إلى واحة سيوة التي كانت قد فقدت اتصالها بوادي النيل منذ أزمان سحيقة، وظلت مجهولة حتى عثر عليها موسى بن نصير عام ٨٠هـ، وإن لم يتمكن من غزوها. ولم ترتبط سيوة بالنيل ثانية إلا في القرن الثالث الهجري على أيدي قبائل بني هلال، وغيرهم. وجاء في كتاب الجغرافي العربي أبي عبيدالله البكري (٦) أن أحد أهالي واحة الداخلة رأى (١٠٦٨هـ) امرأة سوداء من العبيد تدخل الواحة قادمة من واحة مجهولة كانت تسمى سابرو في الجنوب الغربي للداخلة، فقبض عليها الأهالي حين همت بسرقة البلح، ولما لم يفهموا لغتها التي تتحدث بها أطلقوا سراحها، إلا أنهم تتبعوها ليصلوا إلى المكان الذي جاءت منه، غير أن المرأة. وقد أحست بهم. اختفت فجأة وكأن الأرض ابتلعتها، فلم يمكن لهم الاهتداء إلى واحة سابرو التي جاءت منها المرأة.

ويقول البكري عن هذه الواحة: إنها واحة مجهولة لم يكن أحد يعرف عنها شيئًا إلى أن ذكرها أعرابي يدعى رحمة بن قايد كان قد عثر عليها مصادفة، ولما عاد إلى البحث عنها لم يتمكن من ذلك. وقد حاول أمير بني قرة

قام القنصل الألماني فون مينوتولي برحلة إلى واحة سيوة، وعمل رسومات لمعبد سيوة والآثار الجدارية لـ أم عبيد (التي دمرت عام ١٨٩٧م) ... وبذا كانت مذكراته هي السجل الوحيد لهذه الآثار. وقام أيضًا أحد رفقائه وهو فيكتور إهرنبرج بنشر كتاب بعنوان "رحلات في مصر"

قبل ذلك (سنة ١٠٢٩هـ) تجريد حملة لاكتشافها إلا أنه لم ينجح. وفي سنة ١٢٢٦هـ ذكر عثمان النابلسي والي منطقة الفيوم - وهو سوري - أن زرزورة هي إحدى القرى المعروفة جنوب غرب الفيوم. وفي كتاب «الجواهر المكنونة» - وهو كتاب ألفه كاتب مجهول في القرن الخامس عشر (الميلادي) ... حدد المؤلف مكان واحة زرزورة على الوجه الآتي: في بلدة (وردشاه) خلف قلعة (السوري) سترى نخيلاً وكروماً وينابيع .. ادخل الوادي، وتابع طريقك إلى أعلاه، وستجد وادياً آخر إلى غربه بين جبلين. ومن هذا الوادي الأخير يبدأ طريق سيقودك إلى زرزورة، حيث ستجد بابها مغلقاً، وهي مدينة بيضاء كالحمامة، وعلى بابها نقش طائر .. خذ المفتاح بيدك من منقار الطائر وافتح باب المدينة.

الرؤية العربية للواحة اعتمدت على هواجس أسطورية



لم تكن زرزورة هي الواحة المجهولة الوحيدة في الصحراء الغربية. بل كانت الروايات تتحدث عن واحتين توجدان بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية لمصر. وقد ظهرت هاتان الواحتان أول مرة على خريطة إفريقية التي نشرها "يوسطوس برتس" عام ١٨٩٢م

محاولات الأوربيين وكتاباتهم

هكذا اعتمدت الرؤية العربية على روايات فردية، وهواجس أسطورية، ومن ثم سادها الغموض والتناقض في تحديد مكان الواحة. ومع ذلك فقد كان استرشاد الرحّالين الغربيين أكثر ما يكون اعتماداً على ما ذكره هؤلاء المؤرخون العرب، وعلى حكايات وروايات مشابهة للأعراب في تحديد موقع الواحة، واتجاهات بحثهم، وما جاء في هذه الروايات عن إمكان العثور على كنوز مخبأة في هذه الواحة.

وأشهر من كتب عنها من الغربيين جاردنر ويلكنسون Gardner WIilkinson عام ١٨٣٥م، والرحالة الألماني رولف Rphlfs عام ١٨٧٤م، وقد كتب ويلكنسون عنها يقول (٧): على مسافة خمسة أيام غرب الطريق الموصل بين (الحز) و (الفرافرة) هناك واحة تسمى (زرزورة) مماثلة لواحة (بارفا) في المساحة، بها بعض أحراج من النخيل، وقليل من عيون المياه المتفجرة، كما أن بها أنقاضاً لمبان قديمة لم يمكن معرفة تاريخها بالتحديد، وقد اكتشفت هذه الواحة عام ١٨٢٦م بواسطة أحد البدو الذي كان يبحث عن جمل له شارد في الصحراء وقد لاحظ أن هناك آثار أقدام لأشخاص، وأقدام دواب وغنم، ولكن الواحة غير مأهولة عندما دخلها، كما أن واحة (جرابابو) تقع على مسيرة ستة أيام غرب واحة (زرزورة) هذه، وعلى مسيرة اثني عشر يوماً من واحة أوجلة بإقليم (برقة). أما واحة (توربو) التي إلى جهة الغرب فإن جميع هذه الواحات تكون مجموعة

واحدة من الواحات المتقاربة، ويغلب على الظن أن وادي (زرزورة) المذكور متصل بمجموعة هذه الواحات.

أما سكان هذه الواحات فهم من السود، ونظن أنهم من الرقيق الذين نزلوا الواحة قادمين مع تجار الرقيق (المجابرة) عن طريق درب العبيد، أو ما يسمى بمسرب العبيد وأنه لا تزال هناك واحات أخرى غربيًا على امتداد الدرب المذكور. وأضاف السير جاردنر ويلكنسون على هامش كتابه الملاحظات الآتية:

أظهرت الدراسات كثيرًا من المعلومات حول قوانين حركة الرمال، ونمو الكثبان الرملية، وطرائق ترويضها. كما كشفت عن كثير من أسرار الصحراء وإمكاناتها المستقبلية، وأزاحت الستار عن بعض أسرار الإنسان القديم، وتطور الحياة البشرية والحيوانية والنباتية في الصحراء





لم يكن المصريون في غيبة عن الحركات الاستكشافية، بل شاركوا فيها وكان لهم السبق في استكشاف بعض المناطق التي لم يزرها الغربيون، بل كانوا منذ عهد الفراعنة على صلة بهذه الواحات، وقاد هذه الحركة الرحالة المصري أحمد حسنين الذي قام في عام ١٩٢٣م برحلة في الصحراء الغربية

- من المعتقد أن الرجال السود الذين غزوا واحة الفرافرة في السنين الماضية، وسلبوا كثيرًا من السكان والموجودات كانوا من سكان هذه الواحة .
- وبمعنى آخر تقع واحة زرزورة غرب الواحات الداخلة، وعلى مسيرة يومين أو ثلاثة، بعدها يمر واد آخر، وبعده واحة جابو، وبعدها يقع وادي الربيان. ويقرر رحالة آخر أنه سمع من بعض أهالي الواحة الداخلة أنهم شاهدوا عام ١٨٤٠م رجلاً وامرأة يسوقان أمامهما بقرة وهما قادمان من واحة زرزورة .

وقد شهد عصر الخديوي إسماعيل . الذي كان يولي عمليات الكشوف الجغرافية اهتمامًا كبيرًا . نشاطًا لعمليات الكشف في الصحراء، ففي عام ١٨٧٣م عرض الجغرافي الألماني جرهارد رولف على الخديوي إسماعيل أن يقوم بعمل رحلات كشفية ودراسية في الصحراء الغربية، وذكر على وجه الخصوص البحث عن مجرى النيل القديم، ومعرفة هل هذه الصحراء قابلة للزراعة، ومحاولة تقصي الحقائق، وجمع أي معلومات عن الواحات المجهولة. كانت بعثته هي أول بعثة منظمة، وأول من تمكن من وضع علامات جغرافية للمواقع التي زارتها البعثة التي ضمت عددًا من البحاثين، منهم كارل زيتل Karl Zittel الجيولوجي(٨) الألماني صاحب كتاب: Plaeontographia (Beitraege Zur Geologie Und Palaeontologie Der Libyschen Wuste) عن المتحجرات من النبات والحيوان في العصور القديمة في الصحراء الليبية، وهو كتاب ما زال واحدًا من أهم المؤلفات عن الصحراء، ويحتوي على أول خريطة جيولوجية لها: ومنهم أيضًا: ولهلم جوردان Wilhellm Jordan أول من وضع خريطة طوبوغرافية (٩) محددة بخطوط الطول والعرض ومستويات الارتفاع عن سطح البحر في المناطق المختلفة في الواحات، و«ريميل P.Remele أول من صور الصحراء الغربية، وب. أشيرسون P. Aschersen (١٠) الذي جمع عددًا من عينات الحياة النباتية، وسمّى أربعة من النباتات الصحراوية بأسماء مشتقة من اسم المستكشف رولف ... واستمرت البعثة في عملها في العام التالي ١٨٧٤م ... وعندما حاول أعضاؤها الوصول إلى واحة الفكرة حال بحر الرمال العظيم بينهم وبين أملهم، فترك رولف في أقصى مكان وصلوا إليه على حافة بحرالرمال . وإلى جوار علامة (المعجزة) . أثر لهذه الزيارة أسموه حقل المطر Regen Feld، فقد تصادف نزول أمطار في هذا الوقت، وهذا ما لا يتكرر إلا كل ١٠ سنوات في المتوسط، وعادوا إلى سيوة ثم القاهرة، ونشر رولف عام ١٨٧٦م كتابًا بعنوان: «ثلاثة أشهر في الصحراء الغربية الليبية» Drei Monate In Der Libyschen Wust، وهو أول عمل مصور عنها .

وجاء في مذكرات رولف عام ١٨٧٤م (١١) أنه سمع عن قصة واحة زرزورة من سكان الواحات الداخلة إلا أن أحدًا منهم لم يستطع تحديد مكانها ... ثم قال في تقريره: إنه في إحدى رحلاته لواحة الداخلة عام ١٨٧٣م سمع هذه القصة: في عام ١٧٧٠م تكررت غارات الأعراب على الواحات .. وكان هؤلاء المغيرون يأتون دائمًا من الصحراء

من اتجاه الجنوب الغربي. ولما كثرت غاراتهم أرسلت حكومة المماليك فرقة من الجنود لمطاردتهم وقد اتبعت هذه الفرقة في مطاردتهم لهؤلاء المغيرين الطريق الذي يسلكه العربان والمغيرون لمسافة سبعة أو ثمانية أميال. وقد قامت قوات المماليك بردم الآبار التي مرت عليها في هذا الطريق ليأمنوا عدم عودة المغيرين ثانية ... وقد كان هذا الطريق مستعملاً في التجارة بين دارفور والواحات الخارجية؛ أي: درب الأربعين .

وفي كتاب «الدليل إلى مصر» المطبوع عام ١٨٩٦م (١٢) بعض الإشارات إلى وجود هذه الواحة، وقد حدد الكتاب أربعة أماكن لوجودها ... استنادًا إلى ما يتناوله الأعراب في أحاديثهم اثنين من هذه المواقع في بحر الرمال واثنين جنوب غرب الواحات الداخلة. وقد وجد الموقعان اللذان يشيران إلى الواحات الداخلة صدى أكبر لدى الرحالين، وذلك لكثرة ما كان يتناقله الأعراب من حكايات تؤيد الواحة في هذا الاتجاه أوقريبًا منه.

وفي عام (١٨٩٦م) قام جورج شفاين فوث Geoge Schwein Furth - عالم النبات والرحالة الألماني، وكان يعمل في مصر ٣٥ عامًا في خدمة الخديوي إسماعيل - بتأسيس مصلحة المساحة الجيولوجية المصرية، وكان قد أسس من قبل الجمعية الجغرافية المصرية عام ١٨٧٥م، كما كان يرأس المعهد المصري الفرنسي Institute D Egypt، وقام بعدة رحلات إلى الصحراء الغربية، واكتشف بعض الحفريات الصخرية في أبو رواش و«الرمسيوم»، وكتب عدة دراسات عن الصحراء الشرقية والغربية. وكان من علماء مصلحة المساحة جون بول John Ball (الذي رأس المصلحة بعد ذلك)، «هوغ بيدنل Hugh Beadnell، وتعدّ المعلومات الطوبوغرافية التي وصفاها من أفضل ما كتب عن الصحراء الغربية حتى ذلك الوقت، وكانا قد ذهبا إلى الواحات البحرية عام ١٨٩٧م، ثم إلى الخارجة في عام ١٨٩٨م. وفي الخارجة وضعا أول مرة خريطة لمنطقة عين أم دباديب موضحين فيها الشكل الحقيقي لجبل الطريف، وخط عرض وطول باريس من قرى الواحات الخارجة، وتم على إثر ذلك نشر عدد من الكتب عن واحات الفرافرة، والداخلة، والبحرية، والخارجة، والفيوم مرفقًا بها خرائط.

لم تشف هذه المحاولات غليل الرحالة والمستكشفين الغربيين؛ لأنها لم تعط على الرغم من ذلك صورة كاملة لاستكناه غوامض الصحراء، ولا سيما ما يتعلق بالواحات المجهولة ... وهذا ما دفع الجمعية الملكية الجغرافية Royale Geographical Society In England إلى تكليف هاردنج كنج Harding king (١٩٠٩/١٩١١م) بعمل مزيد من الكشوف حول الواحات الخارجة والداخلة والواحات المجهولة التي لا يزال يرد ذكرها على ألسنة أعراب الصحراء، وأشارت إليها كتابات الأقدمين. وقد نجح هاردنج كنج في تحديد موقع قرية (أبو منقار) والحدود الشرقية لواحة الفرافرة، وبعض المنخفضات شمال عين آمور، ثم اتجه جنوبًا إلى جنوب الداخلة ميممًا شطر المواقع المفترض أنها لواحتي العوينات، وزرزورة. وفي تقرير له يذكر أن أهالي الواحات الداخلة يروون أنه في عام ١٨٩٥م ظهرت أبقار غريبة في الواحة، كما أنهم

اعتمدت الرؤية العربية على روايات فردية، وهواجس أسطورية، ومن ثم سادها الغموض والتناقض في تحديد مكان الواحة. ومع ذلك فقد كان استرشاد الرحّالين الغربيين أكثر ما يكون اعتمادًا على ما ذكره هؤلاء المؤرخون العرب. وعلى حكايات وروايات مشابهة للأعراب

رأوا امرأة غريبة، ومعها ابنها قادمين من الجنوب، وهي قصة مشابهة لما يرويه أهل الواحة منذ عام ١٨٤٠م، كما يذكرون أنه قد أغار على الواحة قبل عام ١٨٩٥م بعدة سنوات بعض الرجال السود ووصفوهم بأنهم طوال القامة، وشعورهم مدلاة وأظفارهم طويلة، وأنهم نهبوا بعض مأكولات من الأهل، وقد طاردهم أهل الواحة وتتبعوهم مسافة طويلة، حتى وصلوا إلى إحدى الآبار في الطريق فعملوا على تمليحها حتى لا يستفيد المغيرون منها مرة ثانية. وهناك وجه شبه كبير بين هذه القصة وما سمعه رولف عن قوات المماليك، وأضاف هاردنج كنج في تقريره - حسب ما سمعه - أن أحد الأعراب شاهد على بعد مسيرة ثمانية أيام (نحو ٢٤٠ ميلاً - ٣٨٦ كيلو مترًا) جنوب الواحات الداخلة واحة كبيرة فيها أشجار زيتون ونخيل، وبعض آثار خرائب، كما رأى بها بعض الأهالي إلا أنه خاف أن يدخلها .. لذلك كان هاردنج كنج يعتقد كثيرًا بوجود شيء ما في اتجاه الجنوب الغربي من الواحات الداخلة، كما سمع هاردنج كنج عن واحة العوينات أنها تقع جنوب غرب الداخلة فقطع ٢٠٠ ميل في الاتجاه الذي أشار إليه أهل الداخلة إلا أنه لم ير إلا آثار عظام جمل ميت وآثارًا خفيفة لطريق قديم من طرق القوافل، هو الطريق

لواحة زرزورة تاريخ قديم يقوم على افتراض وجودها، وتسمى على اسم طائر الزرزور، وهو طائر نادر الوجود يعيش في الصحراء، وقد أشار إليها بعض مؤرخي العرب بأنها مدينة عجيبة تحيط بها البساتين، ويعيش فيها قوم انعزلوا عن العالم منذ احتلال الفرس لمصر

الموصل فعلاً إلى العوينات غير أنه لم يهتد إليها.

وبعد ٦ سنوات من إخفاق رحلة هاردنج كنج قام جون بول وبرفقته الملازم مورMoore - قائد صف من السيارات الخفيفة - برحلة ميممين شطر بحر الرمال، وسارا من الواحات الداخلة في اتجاه الجنوب الغربي في الطريق الذي سلكه هاردنج كنج، ونجحا في الالتفاف حول نهاية بحر الرمال ... إلا أنهما اضطرا إلى عدم الاستمرار في رحلتهما لنفاد البترول، وما صادفاه من تلال شديدة الوعورة (١٤) إلا أن الخريطة التي وضعها جون بول بعد ذلك لهذه المنطقة من الصحراء والتي راعى فيها قياس مستوى المياه في بعض الواحات مثل: واحتي سليمة، ولاقية، بغرض البحث عن إمكان وجود عيون مائية تحت الصحراء يمكن أن تقوم عليها واحات مجهولة .. وتظهر بعد دراستها - حسب نظريته - استحالة وجود واحات أخرى في هذه المناطق (منطقة الداخلة والعوينات)؛ إذ إن ارتفاع الأرض بها لا يقل عن مئات الأقدام.

ولكن ليس معنى ذلك أن رحلات أو استنتاجات هاردنج كنج، وبول قد جانبهما الحظ تمامًا .. فإن ارتفاع الأرض في هذه المناطق ليس معناه استحالة وجود آبار جوفية، تحدث من تشققات أرضية من تأثير اضطرابات وزلازل أو رياح تكشف عن حفر عميقة فتحدث بها تشققات تضرب سطح الماء من الأرض، وتوجد عددًا من الأودية، وقد عرف أن بدو التبو (١٥) من سكان الكفرة كانوا يعرفون ذلك، ويتجهون إلى هذه الأودية للرعي، ولكنهم كانوا يخفون ذلك عن الأعراب ..

أحمد حسنين ومعاصريه

لم يكن المصريون في غيبة من هذه الحركات الاستكشافية، بل شاركوا فيها (١٦) وكان لهم السبق في استكشاف بعض المناطق التي لم يزرها الغربيون، بل



كانوا منذ عهد الفراعنة على صلة بهذه الواحات، وتحت حمايتهم. وقاد هذه الحركة الرحالة المصري أحمد حسنين الذي قام في عام ١٩٢٣م برحلة في الصحراء الغربية قاطعًا ٣٥٧٢ كيلو مترًا (٢٢٢٠ ميلاً) من السلوم على البحر الأبيض إلى واحة سيوة، ثم الكفرة في ليبيا، ثم الفاشر في السودان ... ونجح أحمد حسنين في استكشاف واحة العوينات وجبلها (١٧) على حدود مصر وليبيا والسودان، وواحة أركنو في ليبيا، وعرف العالم أن المكتشف المصري قد اكتشف: الواحات المجهولة...

لم تكن «زرزورة» هي الواحة المجهولة الوحيدة في الصحراء الغربية، بل كانت الروايات تتحدث عن واحتين توجدان بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية لمصر، وقد ظهرت هاتان الواحتان أول مرة على خريطة إفريقية التي نشرها «يوسطوس برتس Justes Perthus» عام ١٨٩٢م.

بدوي يحمل حقائب رحالة على ظهور الجمال



الزمن لايعني شيئاً للإنسان وسط الكثبان الرملية الكثيفة

فتبين الخريطة واحة صغيرة غير مسماة، وبئرًا في خط عرض ٥١ دقيقة، ٢١درجة، وخط طول ٣ دقائق، ٢٣ درجة، وواحة أخرى لا يسكنها أحد، وغير مسماة على بعد ٤٨ كيلو مترًا إلى الشرق في خط عرض ٥٠ دقيقة، ٣٢١ درجة، وخط طول ٢٩ دقيقة، ٢٣ درجة، وقد وضعتا فوق الخريطة استنادًا إلى أقوال بعض الأعراب. يقول أحمد حسنين الذي كان يعرف كل ذلك (١٨) وجدت ذكر واحة (العوينات) في إحدى الرسائل الحديثة التي كتبها هاردنج كنج عام ١٩١٣م في المجلة الجغرافية «مجلد ٤٢، صفحة ٥٤٢ عند كلامه على (صحراء ليبيا على لسان أهليها)» يقول: «إنه سمع عن محل يسمى (عوانة) أو (عوانات) في منتصف الطريق من «مرجا» إلى «الكفرة»، وبها بئر أو مراع خضراء على أثر الأمطار، وبالخريطة التي كانت ملحقة بهذه الرسالة قدر الموقع المحتمل لهذه الواحة على خط عرض ٣٧ دقيقة، ٢١ درجة، وخط الطول ٤٥ دقيقة، ٢٤ درجة، وتختلف بمقدار ١٣٠ كيلو مترًا عن أقرب الواحتين كما بينت على الخريطة الألمانية (خريطة برتوس). ويقول: «القائمقام تلهو» الذي قام بمحاولات لاستكشاف «تيبستي» و«أروى» و«عنيدي» بين سنوات ١٩١٢و١٩١٧م أن منطقة «العوينات» التي لا تزال مجهولة تقع بالتقريب بين درجتي ٢٢ و٢٣ من خط العرض شمالاً و٢٤ و٢٥ من خط الطول شرقًا، وعلم أن هناك طريقًا بين «العوينات» و«مرجا».

وكان أحمد حسنين يزمع السفر من الكفرة بعد

اكتشافها إلى «دارفور»؛ وذلك بالسير في الطريق التجاري بينهما. وكان يعلم أن هذا الطريق «لم تطأه قدم بدوي أو سوداني لما توهم الناس فيه من الصعاب والمخاطر» ... ولكنه كان يهدف من رحلته من «الكفرة» إلى « دارفور» أن يكون أول من يقطع هذا الطريق بأجمعه، إلاَّ أنه في أثناء أقامته بـ «الهواري» إحدى جهات «الكفرة» سمع أن فرقة فرنسية (١٩) وصلت إلى «بئر سارة» متبعة في سيرها الطريق التجارية الأصلية من «واداي» إلى «الكفرة» وهو الطريق نفسه الذي كان أحمد حسنين يريد أن يسلكه فغيرت هذه القصة وجهة تفكيره صوب الواحات المجهولة، وفضل أن يسعى إلى اكتشافها بدلاً من اتباع خطته الأصلية. ويقول في ذلك: كان غرضي من البداية أن أفرغ قصارى جهدي في استكشاف الواحات المجهولة، حتى إذا خبت في هذا قطعت صحراء ليبيا سائرًا في الطريق المعروفة فاخترقت «واجنجا» و«واداي» ثم انحدرت جنوبًا إلى دارفور.

وفعلا نجح أحمد حسنين في اكتشاف واحتي العوينات وإركنو في أقصى الزاوية الجنوبية الغربية لمصر، وقام بعمل أرصاد لهما، فتبين له أن العوينات تقع على خط العرض الشمالي ٢١ درجة و٥٢ دقيقة و ٥٩ ثانية، وخط الطول الشرقي ٢٤ درجة و ٥٤ دقيقة و١٦ ثانية. وترتفع ٥١٦ مترًا عن سطح البحر .. أما «إركنو» فتقع على خط العرض الشمالي ٢٢ درجة و١٢ دقيقة و٣٢ ثانية، وخط الطول الشرقي ٢٤ درجة و٤٤ دقيقة و ١٥ ثانية، وترتفع ٥٩٨ مترًا عن سطح البحر. وعلى ذلك تكون «العوينات» أبعد ٢٤ كيلو مترًا عما قدره «هاردنج كنج» من واقع أقوال مرشده وتبعد بمقدار ١٥٠ كيلو مترا عن الموقع الذي حددته له الخريطة الألمانية تحت اسم (الواحة التي لا يسكنها أحد) .. أما إركنو، وهي الواحة الصغيرة الواقعة غرب الواحة التي لا يسكنها أحد، فقد ثبت له أنها تبعد ١٨٠ كيلو مترًا عن الموقع الذي تعين على الخريطة الألمانية.

هكذا نجح أحمد حسنين عام ١٩٢٣م في حين أخفق فيه من قبل جاردنر ويلكنسون، ورولف الألماني، و هاردنج كنج، ودكتور بول، وغيرهم.

وإذا كان أحمد حسنين قد أبدى شكّه في إمكانية الوصول إليها من الشرق؛ (لأنه نزل عليها من الشمال الغربي) فقد تمكنت بعثة استكشافية (كانت قائمة أصلاً بكشف مواطن الجراد عام ١٩٣٠م) من الوصول إليها من الجهة الشرقية .. كانت هذه البعثة مكونة من الميجور رالف Ralph، وباجنولد Bagnoldt، ورينوبولد Renobauld، وغيرهم ... ثم تعاقبت الرحلات من بعثات وزارة الزراعة، مثل بعثة الدكتور عبدالسلام المستكاوي، ودوريات الحدود والجيش، وبذلك تم اكتشافها نهائيًا، وأصبح السفر إليها أمرًا عاديًا بالنسبة إلى جوالي الصحراء. وفي هذه الأثناء كان الكولونيل لانسى فورث Lancy Furth قائد سلاح الهجانة بمصلحة الحدود المصرية يقوم برحلتين كبيرتين على ظهور الجمال ١٩٢١- ١٩٢٤م بحثًا عن واحة زرزورة، وغيرها من الواحات المجهولة.

الأولى ابتدأها من الواحات الداخلة متخذًا اتجاهًا شماليًا غربيًا أدى به إلى الطريق نفسه الذي قطعه رولف منت قبل عام ١٨٧٤م، أما الثانية فقد كانت في

السؤال الذي يتراءى لنا الآن هو: أيمكن فعلاً أن يكون لهذه الواحة وجود ... أو كان لها وجود .. أم أنها لا تعدو - منذ البداية - أن تكون مجرد أوهام وأقاصيص وتصورات، لا تستند إلى أساس صحيح؟

اتجاه عكسي؛ إذ ابتدأها من سيوة في اتجاه جنوبي حتى دخل منطقة الغرود من بحرالرمال لمسافة ٢٠٠ ميل (٣٢٢ كيلو مترًا) حتى خط عرض ٢٧ درجة في منطقة تبعد نحو ٥٠ ميلاً غرب الطريق الذي سلكه رولف ... وعلى الرغم من أهمية رحلتيه من الناحية المساحية فإنه لم يعثر على ضالته.

كذلك توغل الأمير كمال الدين حسين عام ١٩٢٥م، ومعه أسطول من السيارات في الصحراء إلى مسافة ٢٠٠ ميل بعد الواحات الداخلة، وكان يصحبه في رحلته تلك الكولونيل جارفس Garfes، والدكتور بال Pal. الموظف بمصلحة المساحة - ولكنهم لم يصلوا إلى أبعد مما وصل إليه بول، والملازم مور .. ثم قام برحلة أخرى برفقة بول مبتدئًا من آخر نقطة وصل إليها في رحلته السابقة بغرض البحث عن أثر الرحالة الألماني رولف الذي تركه في الصحراء إبان رحلته عام ١٨٧٤م .. وقد عثر عليه بالفعل .. ووجد أن هذا الأثر (العلامة) عبارة عن سبعة قناطيس للماء فارغة من بين ٥٠٠ قنطاس كانت مع رولف، وزجاجة بداخل رسالة «إلى من تطأ قدمه هذه الأرض» .. كان العلم أو العلامة مدفونة جزئيًا في سفح تل رملي .. لم يأخذ الأمير كمال الدين الزجاجة والرسالة، وإنما ترك رسالة أخرى باللغة العربية، وضعها في الزجاجة ليقرأها من يتبع آثارهم

من أهم الظواهر الطبيعية في الواحات غرود الرمال، أو تلال الرمال، أو الرمال السيالة المتحركة، وهي تلال رملية هلالية الشكل لها خاصية الحركة البطيئة نحو الجنوب؛ لذلك كان خطرها عظيمًا على المزارع والمباني

فيما بعد. وفي عامي ١٩٢٤و١٩٢٥م كان الأمير قد رأس بعثة متجهة إلى العوينات، وواحة برجا في السودان عن طريق بيرشاب، وبيرطوفاوى.

كما اكتشف على حافة بحر الرمال، ومعه جون بول عام ١٩٢٦م، هضبة جيرية تقع على بعد ١٥٠ كيلو مترًا شمال جبل العوينات، وتغطي مساحة ٧٧٧٠ كيلو مترًا مربعًا، وترتفع عن مستوى الصحراء بـ ٣٠٠ متر (١٠٠٠ قدم) وتنحدر منها مئات الأودية التي تنتهي إلى سطح الصحراء، وأطلق عليها اسم الجلف الكبير(٢٠)، ووضع خريطة لها اتبعها بخريطة إجمالية للصحراء الليبية.

وفي عام ١٩٢٧م شكل حسين سري باشا (الذي أصبح رئيسًا لوزراء مصر فيما بعد) بعثة ضمت مجموعة من الخبراء والجغرافيين للبحث عن «زرزورة»، لكن البعثة عادت دون أن تحقق غرضها. ومع ذلك لم تنقطع رحلات البحث في الصحراء الغربية. فتمت رحلات لـ هوج بيدنل Hugh Beadnell عام ١٩٢٨م، و باجنولد R. A. Bagnold. (في ثلاث رحلات ١٩٢٠ و١٩٣١و١٩٣٨م) وليوفروبينيوس Leo Frabenius، وكيندي شو W. B. Kennedy Shaw، والكونت دي ألماسي Count De Almasy، في الأعوام من ١٩٣١ إلى ١٩٣٥م. وفتحت المجلة الجغرافية الملكية «التي تصدر في لندن صفحاتها لاستعراض الاحتمالات كافة التي يراها الرحالون والمستكشفون. وما يردده الأعراب والأدلاء من أقاويل ... وقد استخلصت من البعوث التي نشرتها «المجلة الجغرافية» ثلاث مناطق يمكن البحث فيها عن زرزورة:

المنطقة الأولى: وتغطي المساحة التي أشار إليها جاردنر في منطقة الغرود في بحر الرمال غرب واحتي الداخلة والفرافرة.

المنطقة الثانية: وهي الواقعة بين واحتي الداخلة والمرجا (مريجة) إلى الجنوب.

والمنطقة الثالثة: وهي الممتدة من الواحة الداخلة باتجاه الجنوب الغربي إلى واحة.

وقد رئي البحث في كل منطقة، ودرست جميع الاعتبارات بالنسبة إلى الأقاويل المنسوبة إلى العربان، وأخطاء المساحة والبوصلة وخطوط السير، وبذلك حوصرت المنطقة التي يمكن أن توجد بها الواحة في مساحة لا تتجاوز ٢٥٠ ميلاً مربعًا، وقد اختص الكولونيل دي لانسي فورث - قائد سلاح الهجانة المصري - بالبحث غربي الداخلة والفرافرة، وكان من أكثر المتحمسين لموضوع زرزورة، ومن أشدهم رغبة في العثور عليها واكتشافها، إلاّ أنه لم يستطع مواصلة رحلاته قبل أن يحقق حلمه لوفاته. أما الدكتور بول، والمستر نيبولد فقد عاودا البحث في المنطقة الواقعة بين واحتي الداخلة والمرجا، وهي منطقة (خالية من غرود الرمال أو الهضاب بل خالية من دلائل الحياة)، كما وصفها هاردنج كنج.

وفي عام ١٩٢٩م مّر بمصر دوق إمارة لختشتاين الذي كان في طريقه إلى شرق إفريقية في رحلة بالسيارة، وكان في صحبته الكونت دي ألماسي (٢١) المجري الجنسية، وهو جاسوس محترف كان يعمل لحساب المخابرات الألمانية .. فقام دي ألماسي وبصحبة قائد الجناح كلايتون R. A. Clayton بعبور الصحراء من العوينات إلى ليبيا واكتشف بعض الرسومات الأثرية في عين دوا بـ العوينات منذ عام ١٩٣٣م. وفي عام ١٩٣٨م، استقل دي ألماسي، وكلايتون طائرة توغلا بها داخل الصحراء إلى مسافة ٣٠٠ كيلو متر من الداخلة لحل لغز واحة زرزورة، وآثار جيش قمبيز - ملك فارس - الذي غطته هو وجيشه رمال الصحراء وهو في طريقه لغزو واحة سيوة (٥٢٤ ق.م) وهناك شاهدا أشجارا كثيفة من السنط ووايا يغص بالحياة النباتية في الجلف الكبير، ولما عجزا عن الهبوط بسبب الحر الشديد، وقلة ما معهما من مياه صالحة للشرب أخذ صورة فوتوغرافية لهذا الوادي، وقد اعتقدا أنه ربما يكون واحة زرزورة.

وكان كلايتون قد عزم على مواصلة استكشافاته في الشتاء التالي، إلاّ أن المنية عاجلته من مرض وبائي قيل:

كانت صحراء مصر الغربية على رأس أهداف المستكشفين لاستكشاف غوامضها ووضع واحاتها على خرائط المساحة الجيولوجية، ولأغراض استغلالية وسياسية وتجسسية وعسكرية إلى جانب النواحي العلمية

رحلات المستكشفين لم تتوقف حتى اليوم





كانت صحراء مصر الغربية دائماً على رأس أهداف المستكشفين الأوربيين

إنه أصيب به في الواحات، فلم يقدر له الكشف عن واحة السنط التي شاهدها مع دي ألماسي من الطائرة.

هكذا كادت تنتهي قصة واحة زرزورة بالإخفاق وعدم النجاح لكل من حاول العثور عليها، وإن كانت الأبحاث التي نشرتها «المجلة الجغرافية»، وقارنت فيها بين نتائج جميع هذه الرحلات، قد حصرت مكان الواحة في منطقة الغرود ببحر الرمال. كما أشار إلى ذلك جاردونر، وإن كانت ترجح أن يكون مكان الواحة قد ينحرف عن المكان الذي أشار إليه بنحو ٦٠ ميلاً.

والسؤال الذي يتراءى لنا الآن هو: أيمكن فعلاً أن يكون لهذه الواحة وجود ... أو كان لها وجود .. أم أنها لا تعدو .

شهد عاما ١٨١٩ و١٨٢٠م عدة رحلات ومحاولات للتغلغل في الصحراء الغربية لدراسة أحوال واحاتها وأوضاعها والبحث عن عدد من الواحات المجهولة التي يرد اسمها على لسان البدو والأعراب، مثل: العوينات، وزرزورة التي لا يعرف أحد شيئًا عنها

منذ البداية - أن تكون مجرد أوهام وأقاصيص وتصورات، ولا تستند إلى أساس صحيح؟ ... ثم ... لماذا كل هذه الصعوبات في تحديد مكان الواحة - إن صح أن لها وجودًا، أو القطع بعدم وجودها؟ إن الإجابة عن ذلك - بلا شك - تكمن في طبيعة بحر الرمال نفسه وغروده وكثبانه..

فرولف الألماني يصف جزءًا من هذا البحر فيقول: «لم يعد في استطاعتنا التماس طريقنا نحو الغرب، وهذه التلال تترامى أمامنا يختلف عرض الواحد منها من كيلو مترين إلى ٤ كيلو مترات، وترتفع نحو ١٠٠ قدم، ولا نكاد نجتاز أحدها حتى تبدو لنا تلال أخرى تجثم وراءه إلى ما لا نهاية. وكانت هذه التلال تتجه تقريبًا من الشمال الغربي في انحراف قليل إلى الجنوب الشرقي ولو حاولنا الاتجاه غربًا فقد يكون من المحتمل أن نقطع في اليوم الأول نحو ٢٠ كيلو مترًا، ونصعد، ونهبط حول ستة تلال، وقد نستطيع أن نقطع مثلها في اليوم التالي، ولكننا في الثالث سيكون علينا أن نجتاز أكثر من ١٥ كيلو مترًا وفي اليوم الرابع لن نتمكن من اجتياز أكثر من عشرة، وكان ذلك أقصى ما تتحمله الجمال، قد نقطع قرابة ٦٥ كيلو مترًا نحو الغرب في أربعة أيام ولكن ماذا بعد ذلك؟

ويضيف اللواء رفعت الجوهري وهو من أفضل من خبروا الصحراء، وكتبوا عنها ... يصف غرود الرمال، فيقول (٢٢): «من أهم الظواهر الطبيعية في الواحات غرود الرمال، أو تلال الرمال، أو الرمال السيالة المتحركة، وهي تلال رملية هلالية الشكل لها خاصية الحركة البطيئة نحو الجنوب؛ لذلك كان خطرها عظيمًا على المزارع والمباني، وكم من بلدة قد زالت، ونخيل قد طمس، وطريق قد ردم تحت هذه الرمال! والغرود التي تعد أخطر أسلحة ضد الإنسان في الواحات. وتتكون هذه الغرود في شكل مجاميع كأمواج البحر، وتختلف في الارتفاع، وقد تصل أحيانا إلى ٥٠ مترًا واتساع نحو ١٠ كيلو مترات، وقد ردمت كثيرًا من العيون والآبار بجهة باريس (٢٣)، وردمت النخيل بناحية عين الفضاء بالواحات الداخلة»، ويضيف قائلاً: «يعتقد سكان الواحات أن الرومان كانوا قد وضعوا في شمال الواحة الخارجة طلسمًا من نحاس على شكل بقرة ليمنع هذه الرمال من الزحف على الواحات، ولكن هذا الطلسم قد كسر، فبطل مفعوله السحري، فطغت الرمال على الواحات بغير شفقة أو رحمة وغطت تحتها مئات من عيون المياه التي حفرها الرومان وكثيرًا من القرى والمدائن العامرة»، وفي كتاب آخر له (٢٤) يقول: «في الجزء الجنوبي من هذه الصحراء تمتد كثبان عظيمة من الرمال المتنقلة لمسافات طويلة واسعة. وهذه الرمال تطغى على الأراضي، وتدفن تحت رمالها الناعمة الغزيرة مساحات عظيمة من الأراضي المنبسطة التي تقدر بمئات من الأميال المربعة. وتتجمع هذه الرمال فتحدث كثبانًا (تلالاً) من الرمال الناعمة، وتسمى بالغرود تسير موازية بارتفاع كبير ممتدة من الشمال أو الشمال الغربي إلى الجنوب أو الجنوب الشرقي في الاتجاه نفسه لسير الرياح الهابة على الصحراء. أما تنقل رياح هذه المنطقة فإنها عملية مستمرة، وفي كل وقت تتغير الأرض، فأحيانا تنحسر هذه الرمال عن بعض الأراضي، فتكشف مناطقها في مساحات واسعة مسطحة مغطاة بالحصى والصوان

ظهر الإنسان في هذه البقاع ليجدها أشد ما تكون خصبًا وخضرة، فعمرها، وسكنها، وأقام حضارات ومدنيات ما زالت مجهولة لنا في كثير من نواحيها. وفي هذه البقاع نجد آثارًا قديمة لطرق كانت تخترقها قوافل الجمال

الصغير الاحمر، وأحيانا تطغى الرمال على مناطق أخرى، فتغطيها، وتعلوها، فلا يظهر منها إلا قممها».

هذه الصورة توحي إلينا أول وهلة إمكانية أن تكون الرمال قد طغت في سيرها على واحة زرزورة، ولم يعد لها وجود، إلاّ أن المعترضين على ذلك يضربون مثلاً بالواحات «البحرية» التي تقع وسط غرود الرمال تماماً. فإن الرمال على الرغم من تحركها وسيرها، لم تستطع أن تغمرها أو تطمسها، وما زالت كما كانت منذ القدم. ويقولون: إنه إذا كانت الرمال تطمس وادياً، أوتطغى على طريق، أو تدفن بئراً فلا يمكن أن تضيع معالم واحة كبيرة كان لها ذكر منذ قديم. وأقصى ما يذهبون إليه أن هذه الرمال يمكن أن تكون قد أحاطت بهذه الواحة، وعزلتها عن المسالك والدروب ... وإنها كانت تظهر بين الحين والحين على لسان بعض الأعراب والبدو الذين يقدر لهم رؤيتها أو السماع عنها بوسيلة أو بأخرى ... ولا شك أن الجمل كان يقوم بالدور الأول في هذا المجال: وذلك حين يضل في الصحراء أو يطيش نتيجة للعطش أو الجوع ... أو قد يظهرها طير طائر، أو حيوان شارد.

إلا أن دارسي الصحراء عامة، وبحر الرمال بصفة خاصة يوردون عدة ملاحظات لا يمكن إغفالها في هذا المجال، منها:

- أن تحركات الغرود في بحر الرمال كشفت بفعل الرياح عن مناطق كانت مجهولة فعلاً إلى عهد قريب، فلم يسبق أن رآها أحد من المستكشفين الأوائل مثل: رولف، ولانسي وفورث، إلا أن هذه المناطق لم تظهر أو تشير إلى آثار واحة مفقودة حتى الآن (٢٥).

- أنه كثيراً ما ينتج من تقلبات الجو زوابع وأمطار عنيفة في أشد جهات الصحراء قحولاً، وتنهمر الأمطار في شبه سيول تكتسح ما أمامها وتسير في مجاري الأودية الجافة أو بين كثبان الرمال حتى تقابل منخفضاً ما بين عدة كثبان فتكون بحيرة هناك يعقبها ظهور نباتات وحشائش، وقد يرد إليه بعض البدو أو العربان، ويقيمون حواليها خيامهم وأغنامهم وإبلهم ... ويصدف أن يشرد جمل من صاحبه فيتبعه إلى حيث توجد هذه الواحة المؤقتة، فيظن الظنون، ويسرح به الخيال إلى واحة حقيقية حتى إذا عاد ليكتشفها مرة ثانية يكون الماء قد جف والزرع قد استهلكه الرعي وعادت الصحراء قفراء كما كانت ... وبذلك (تتوه) الواحة عنه.

- أن توالي الأيام يخلق في الصحراء تغيراً مدهشاً .. يقول أحمد حسنين (٢٦): «إن الرحالة رولف عند مروره (بالظيفن) في طريقة إلى الكفرة عام ١٨٧١م ذكر وجود مساحة كبيرة من النباتات في تلك الجهة، ولكني لم أر فيها خضرة أصلاً، وإنما وقع نظري على أكوام من الحطب الجاف»، ويقول في تفسير ذلك: «إن مرور ٤٥ سنة غيّر معالم تلك الجهات، وربما كان السبب في ذلك اختلاف سريان الماء في طبقات الأرض وانقطاعه عن تلك الجهات اليانعة، فأصبح كل ما فيها حطباً للوقود».

- أنه على الرغم من وجود أساس لما قد يشيعه البدو في تنقلاتهم، فإن خيالهم - وتلك طبيعة الصحراء - تخلق جواً من الغرابة والمبالغة فيما قد ينقل بينهم من الأقاويل، وفي ذلك يقول أحمد حسنين: «إنه قبل أن يكتشف الكفرة كان البدو يزعمون أنها مدينة سحرية

عام (١٨٩١م) قام جورج شفاين فوث ـ عالم النبات والرحالة الألماني. كان يعمل في خدمة الخديوي إسماعيل ـ بتأسيس مصلحة المساحة الجيولوجية المصرية. وكان قد أسس من قبل الجمعية الجغرافية المصرية عام ١٨٧٥م

ذات منازل، سقوفها من الذهب الخالص، واتضح أن دورها مبنية بالطوب النيء .. ويقول: إن لانعكاس الأضواء تأثيرًا عجيبًا في نواحي الصحراء، فيبدو الحجر الصغير على بعد ميل صخرة كبيرة قائمة كأنها علم من أعلام الطريق ويتشكل هيكل الجمل أو الإنسان أو جزء من ذلك الهيكل بأشكال غريبة ... ثم يقول: إن في بكرة النهار فتتراءى البلاد النائية معكوسة في السماء على مقربة من خط الأفق. وليس هذا النوع من السراب خداعًا للبصر كسابقه، ولكنه صورة منعكسة للبلاد الواقعة على مسافة عشرات الأميال قدام رائي السراب، وتنمحي هذه الصورة بغتة إذا توسطت الشمس كبد السماء. ومن أمثلة ذلك ما كان يتناقله



الصحراء تجتذب الفنانين ليصوروا أعمالهم فيها

هذه المظاهر قد لا تخدع البدوي، لأنه خبرها طويلاً .. إلا أنها تضفي على الصحراء مظهرًا يصعب تفسيره على الغرباء أو قليلي الخبرة من أهل الصحراء.

- ثم هناك ذلك السراب المعروف باسم سراب «المدن المعكوسة» وهو غير السراب الذي يعنّ للظمآن إذا ما اشتد به العطش ... ويقول عنه أحمد حسنين: إنه يلوح بعض أهالي الواحات البحرية من أن قافلة ضلت الطريق، وتوغلت في الصحراء جنوب الواحة فإذا أفراد القافلة يشاهدون واحة ذات مساجد مآذنها من الذهب وتحيط ببحيرة نهضت على شواطئها أشجار النخيل فأرجؤوا دخولها إى ما بعد عودتهم من مصر، فلما عادوا يبحثون عنها لم يجدوا لها أثرًا. وهذه


نقوش على جدران أحد الجبال

الملاحظات قد تفسر كثيراً مما كان يتناقله البدو والعربان عن واحة زرزورة. ولكن .. سواء أكانت زرزورة مختفية في مكان ما ... أو كان لها وجود من قبل ثم محته الطبيعة ... أو أنها مجرد أسطورة من أساطير البدو، فقد كان عمل مسح شامل لمنطقة بحر الرمال والجلف الكبير الذي ما زالت بعض أجزائهما غامضة، شيء ضروري من الناحية العلمية والاقتصادية والعسكرية والجغرافية ... وهذا ما حدا بالدكتور فاروق الباز للاهتمام باستكشاف هذا الجزء الجنوبي الغربي من صحراء مصر الغربية (٢٧) وتألفت بعثة مشتركة من جامعة عين شمس ومعهد سمبثونيان الأمريكي (٢٨) الذي يرأسه العالم المصري د. فاروق الباز لدراسة المنطقة بواسطة صور الفضاء عام ١٩٧٨م،



وعلى مدى ثلاث سنوات تم خلالها القيام باثنتي عشرة رحلة، ومقارنة بين سطحها وسطح المريخ مع استخدام القمر الصناعي الأمريكي نيمبوس ٩ في رصد تحركات هذه البعثة وتحديد مسارها (٢٩)، وقد شاركت في هذه البعثة هيئة المساحة الجيولوجية الأمريكية، وجامعة أريزونا، وجامعة كانساس، ومتحف شمال أريزونا، ووكالة ناسا للفضاء ... وقامت البعثة بعمل مسح للمنطقة الواقعة بين الجلف الكبير وجبل العوينات. وكان د. الباز يسجل نتائج دراساته باستخدام جهاز قياس الألوان الذي استخدمه رواد رحلة أبوللو - سيوز، وأظهرت الدراسات كثيرًا من المعلومات حول قوانين حركة الرمال ونمو الكثبان الرملية، وطرائق ترويضها، كما كشفت عن كثير من أسرار الصحراء وإمكاناتها المستقبلية، وأزاحت الستار عن بعض أسرار الإنسان القديم، وتطور الحياة البشرية والحيوانية والنباتية في الصحراء ... لكن واحة زرزورة وآثارها وتحديد موقعها ظلت سرًا مغلقًا أمام كل ما بذله الإنسان في سبيل الكشف عنها. وطبقا لقوانين الحركة في غرود الرمال فقد يأتي اليوم الذي تظهر فيه بعض آثار هذه الواحة .. أو لا يأتي إذا كانت واحة زرزورة. رغم هذا التاريخ. لا تعدو أن تكون أسطورة من أساطير الصحراء .. وإن ظل المصريون يجترون الحديث عنها كأنها حلم من أحلام الماضي، أو نبضة أمل من نبضات المستقبل (٣٠).

شهد عصر الخديوي إسماعيل ـ الذي كان يولي عمليات الكشوف الجغرافية اهتمامًا كبيرًا ـ نشاطًا لعمليات الكشف في الصحراء. ففي عام ١٨٧٣م عرض الجغرافي الألماني جرهارد رولف على الخديوي إسماعيل أن يقوم بعمل رحلات كشفية ودراسية في الصحراء الغربية

الهوامش والمراجع

١. المؤرخ الإغريقي في معرض حديثه عن رحلته إلى مصر.
٢. تضم صحراء مصر الغربية عددًا من الواحات هي: واحة سيوة، والفيوم، والواحات الداخلة والخارجة. والفرافرة والقطارة، إلى جانب عدد من الواحات الأخرى الصغيرة التي يعرفها الإنسان منذ قديم، حتى تم الكشف مؤخرًا عن واحتي «إركنو» في ليبيا و«العوينات» على الحدود المصرية الليبية السودانية على يد الرحالة المصري أحمد حسنين، وكانتا تعرفان لدى الجغرافيين والمؤرخين باسم «الواحتين المجهولتين» اوهذا ما أثار شهية المستكشفين من بعد للكشف عن واحة مجهولة أخرى هي واحة «زرزورة».
٣. عرائس في الرمال: رفعت الجوهري، الدار القومية للطباعة والنشر، ص ١٤٦.
٤. أستاذ مصري عمل في حقل الآثار منذ عام ١٩٣٠م، كما أسس قسم بحوث الصحراء بجامعة القاهرة «فؤاد الأول سابقًا» عام ١٩٤٤م.
5- Aguide to the Oases: Cassandra Vivian, p22.
٦. عرائس في الرمال: مرجع سابق، ص ١٦٥، ١٧١.
٧. حسب ما جاء في كتاب« جون بول»، ص ١٢٠، وعرائس في الرمال، ص ١٦٦. رحلات جيولوجية في صحراء مصر الغربية. د. محمد فتحي عوض الله، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٥٥م، ص١٣٤.
٨. الجيولوجيا: علم دراسة طبقات الأرض.
٩. الطوبوغرافيا: علم تعريف مواقع ومعالم الأرض.
١٠. وقد انفرد «أشيرسون» بالقيام برحلة للواحات البحرية فيما بعد.

١١. عرائس في الرمال: مرجع سابق، ص ١٧٠.
١٢. عرائس في الرمال: مرجع سابق، ص ١٦٥، رحلات جيولوجية في صحراء مصر الغربية، مرجع سابق، ص١٣٧.
١٣. وقد مات «جون بول» في مصر عام ١٩٤٤م بعد أن قضى ٣٤ عاماً شغلها في وضع خرائط مساحية للصحراء المصرية.
١٤. عرائس في الرمال: مرجع سابق، ص ١٤٨.
١٥. سكان واحة «الكفرة» في ليبيا، وكان «التبو» يسيطرون على الصحراء منذ القدم، وهم حاميون يدينون بالإسلام، وقد سرى فيهم الدم الزنجي، ولهم لغة خاصة يتكلمون بها إلى جانب العربية، ولهم عادات تختلف عن عادات البدو. (في صحراء ليبيا: أحمد حسنين، ص ١٤٩).
١٦. وأول هؤلاء الرحالة المصريين «خوفو - حر» الذي سجل على قبره في أسوان منذ ٧ آلاف سنة «سلكت في إحدى رحلاتي إلى السودان درب الواحات الذي يصل بين طيبة» والواحات «الخارجة» ويتفرع إلى شمال إفريقية، ثم يستقيم إلى دارفور.. عرائس في الرمال، ص ٩٠.
١٧. يبلغ ارتفاع جبل العوينات ١٨٩٨ متراً (٦٠٧٣ قدماً) عن مستوى سطح البحر، ويغطي مساحة ١٥٠٠ كيلو متر مربع (٥٧٩ ميلاً). ويطل بسطحه الشمالي على مصر، ويعدّ من أفضل البقاع في الصحراء وذلك لارتفاعه: مما يجعله عرضة لنزول الأمطار وسريانها في جدولين يصبان في بحيرة هي واحة «العوينات» وكان يسكنها وقتذاك ١٠٠ بدوي من قبيلة «الجرعان». وقد اكتشف أحمد حسنين بعض الكتابات الجدارية بالجبل، وقام بتحقيقها بعد ذلك «روبرت موند Robert Mond» عام ١٩٣٨م، ثم «هانز ونكلر Hans A. Winkler»، اللذين أشارا إلى أن هذه الكتابات قد ترجع إلى فترة ٣٢٠٠ ق. م، إذ كانت هذه المنطقة، ومنطقة «الجلف الكبير» تعجان بالحياة.
١٨. في صحراء ليبيا: أحمد حسنين، ص ٣٦١.
١٩. المرجع السابق، ص ١٧٨.
20 - The Lost Oases: Hassanien, A. M. N. Y., London, cent. Co. p301.
٢١. كان «ألماسي»، و«كلايتون» يقومان برحلة البحث عن مصادر المياه في الصحراء للاستفادة منها في المعارك الحربية المتوقعة.. وكان ألماسي يعمل على جميع المحاور مع الإيطاليين والألمان والبريطانيين، ومع ذلك فقد كان علماً من أعلام التجسس الألماني في مصر في الحرب العالمية الثانية، وكانت أهم أهدافه في تلك الحرب تموين قوات روميل بالمياه مع تزويده بأية معلومات استخبارية عن الإنجليز في مصر خاصة في الصحراء الغربية ... كما صاحب الجاسوس الألماني «بيتر مو نكاستر Peter Monkaster» إلى أسيوط عبر الصحراء الغربية من «جالو» جنوب جبل «العوينات».
٢٢. عرائس في الرمال: مرجع سابق، ص ٢٠.
٢٣. بالواحات الخارجة.
٢٤. سيوة، رفعت الجوهري، الدار القومية للطباعة والنشر، ص ٥٨.
٢٥. حدث في سنة ١٩٥١م أن اشتدت العواصف على الواحات «الداخلة». وفي إحدى الليالي القمرية دهش سكان واحة «بشندي» إحدى واحات «الداخلة» عندما نظروا بجانبهم فإذا العواصف قد كشفت عن بقايا معبد فرعوني قرر الدكتور أحمد فخري أنه أقدم معبد في تلك الواحة، وسجل أنه أقيم في عهد الأسرة الثانية عشرة.
٢٦. في صحراء ليبيا: أحمد حسنين، ص ١٦٠.
٢٧. سبقت محاولات د. الباز بعثة Namru الأمريكية عام ١٩٦٧م، وبعثة بلجيكية ليبية مشتركة عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩م، وبعثة المساحة المصرية عام ١٩٦٨م، وبعثة ما قبل التاريخ الأمريكية المشتركة عام ١٩٧٥م، راجع ص ٣٠٠ من Oases....
28- Center For Earth and Planetary Studies of The Smithsonian Institution s National Air and Space Museum.
٢٩. لمزيد من التفاصيل عن هذه البعثة، راجع من العددين ١٠٤، ١٠٥ مجلة أكتوبر المصرية، أكتوبر ١٩٧٨م، والأعداد من ١٠٦ إلى ١٠٩ نوفمبر١٩٧٨م.
٣٠. جريدة الأهرام المصرية، ٢٠٠١/١٢/٢٤م.

ولمزيد من القراءة تنظر المراجع الآتية:

- الوادي الجديدة أمسه وغده: عبداللطيف واكد، مكتبة الأنجلو المصرية.
- واحة آمون: عبداللطيف واكد، مكتبة الأنجلو المصرية.
- Islands of The Blest, A Guide to the Oases, And Western Desert of Egypt: Cassandra Vivian, Trade Routes Enterprises 1990 London.
- Mysteries of the Libyan Desert: Harding King (London, Seeley, Sel V. and Co. Ltd).
- Journeys in the Libyan Darfur: Bagnold, R. A. (1931) Geogr. Journal, V. 78.
- Through Kufra To Darfur: Hassanin, A. M. (1924 - A) Geogr. Jornal, V. 64.
- Crrossing The Untraversed L. A.: Hassaein, A. M. (1924 -B) "Nat. G eogr. Mag. V. 49.
- Desert Lond Form of S. W. Egypt: El- Baz, Forouk and Maxwell, T. (Editors) 1982. A Bases FOR comprison With Mars- Nasa, Washington, D. C.
- L Exploration Du Desert Lybgue: Hussein, Prince Kemal EL Din, (1928) La Geogr., V. 50.
- Problems of the Lybion DESERT: bALL, John (1927): Geogr. Jour, V. 70.
- Remarks On "Lost Oases" In The L. D: Ball, John: Geogr. Journ., V. 72.





جبل المحجة كما رأيته

محمد عبدالله الخضيري

الرياض ـ السعودية

بسبب ما أجد من المتعة بالرحلات البرية، فقد كنت أقضي أوقاتًا طويلة للبحث عن أماكن جديد لزيارتها. وبفضل من الله وقعت عيناي على مقال في إحدى الصحف، يصف كاتبه رحلته لجبل فريد.

قرأت هذا المقال عدة مرات، وكل مرة أزيد فرحًا بما قرأته. فعلاً إنه المكان الذي أتمتع بزيارة أمثاله، احتفظت بهذا المقال الجميل الذي شكرت كاتبه كثيرًا أن دلني على مكان قلما سمع به أحد من قبل، ولم اكتف بما كتبه كاتب المقال، بل بحثت بالشبكة العنكبوتية أيامًا كثيرة لعلي أجد معلومات إضافية عن هذا المكان، لكن للأسف لم أجد إلا القليل عنه، وعزمت على زيارته مكتفيًا بما كتب في المقال، ولأراه بنفسي.

إنه أحد أشهر جبال شمال الجزيرة العربية، إنه جبل المحجة : (خط سير الرحلة المقصودة إلى جبل المحجة : الرياض ـ القصيم ـ حائل ـ للجبل عبر طريق حائل ـ العلا، ثم العودة إلى حائل مرة أخرى ـ بلدة سميراء والقرى الواقعة على طريقها إلى البتراء ـ البتراء بغرب القصيم ـ العودة إلى الرياض) (مدة الرحلة ثلاثة أيام).

موقع الجبل :

يقع هذا الجبل على بعد أكثر من ٩٥٠ كلم من الرياض، وأكثر من ٣٧٠ كلم إلى الشمال الغربي من



حائل، وقبل تيماء بنحو ٦٠ كيلومترًا تقريبًا، وفي شمال الطريق بين حائل وتيماء والعلا، وفي أرض شبه مستوية تظهر بها بعض الجبال البركانية المخروطية الشكل، كجبلي ذريعات المتجاورين اللذين يريان من مسافة تتجاوز الأربعين كيلومترًا، ويقعان إلى الجنوب الغربي منه، وجبال أخرى متفرقة جهة الشمال الغربي منه، وأشهرها جبلا العاقر والعويقر، إلى جانب الكثير من الجبال الرسوبية التي شكلتها الرياح، وأصبحت ذات أشكال فريدة وطريفة في الوقت نفسه.

توجهت من الرياض مساء الأربعاء الموافق ٢٠٠٥/٤/١٣م وبرفقة أحد الأصدقاء، قاصدا ذلك المكان، وفي فجر الخميس ٢٠٠٥/٤/١٤م واصلنا سيرنا، حتى وصلت الطريق الترابي الذي سأسلكه متوجها إلى جبل المحجة الذي أشارت البوصلة إلى أنه على بعد عشرين كيلومترًا، تركنا الطريق المعبد متجهين شمالاً قاصدين جبلين عاليين أسودين، يريان من الطريق، وبطريق بدأت الوعورة هي العلامة المميزة له، ما بين أوجام وتلال رملية، وصخور صغيرة، تجبرك على السير ببطء شديد،



الجبل الشمالي من زاوية أخرى

وانعطافات كثيرة للتخلص من العوائق الصخرية الحادة التي قد تضر كثيرًا بإطارات السيارة.

بعد سير ساعتين تقريبًا، تخللها التوقف عدة مرات لتخفيف ضغط إطارات السيارة، وصلنا إلى الجبلين الأسودين العاليين المسميين جبلي ذريعات، ظانين بالبداية أن أحدهما هو جبل المحجة، لكن إعاقة الرمال للسيارة جعلتنا نتراجع عن السير ونعود مرة أخرى إلى البحث عن طريق أنسب من الطريق الذي تشير إليه البوصلة، ومن ثم العودة إلى محاولة التقدم نحو الجبل، الذي ظهر جهة الشمال الشرقي بالنسبة إلى الجبلين الأسودين المشار إليهما سابقًا، وبعد تركنا هذين الجبلين خلفنا ظهر لنا جبل المحجة الذي يبعد كما أشارت البوصلة بنحو أربعة كيلومترات تقريبًا، وجدناه على شكل كتلة صخرية كبيرة ملساء الجوانب تقريبًا، تتخللها تشققات عمودية، وفي أرض رملية بيضاء شبه

زار هذا الجبل الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر عام ١٨٨٤م الذي كتب "مذكرات رحلة في الجزيرة العربية"، ونشره في باريس عام ١٨٩١م والذي اكتشف حجر تيماء. زاره المرة الأولى بمفرده. والثانية رافقه فيها الرحالة الألماني يوليوس أويتنج

مستوية، تنبت بها بعض الشجيرات الصغيرة.

عند اقترابنا من هذا الجبل تنفسنا الصعداء من الإجهاد الذي تعرضنا له، وفرحت فرحًا كبيرًا بعد أن صدمت بمنظر الجبلين الأسودين اللذين ذكرهما، وحمدت الله أن تعبنا لم يضع سدى، يا له من منظر جميل وفريد وبديع!.

وصف الجبل :

يرتفع جبل المحجة عن سطح البحر بحدود ألف وثلاثمئة وخمسين مترًا، ويتكون من الصخور الرسوبية، والصخور الرسوبية (هي نوع من الأنواع الرئيسة للصخور، غير الصخور النارية والصخور المتحولة) وهي في الأساس حبيبات رملية وحصوية وطينية تعرضت للضغط والحرارة لآلاف السنين، حتى أصبحت كتلة واحدة، وبفعل عوامل التعرية الميكانيكية والكيماوية، تعرت أجزاء منه، وأصبحت بهذا الشكل المقسم، ويتكون من ثلاثة أجزاء رئيسة متجاورة، إلى جانب كتلتين صغيرتين، لكن تبدو من بعيد كأنها جبل واحد، ويتكون من كتلة صماء مشققة الجوانب بشكل عمودي (من الأعلى إلى الأسفل)، بعض هذه الشقوق يستطيع الرجل دخولها لمسافة عشرة أمتار تقريبًا، ويخرج منها تيار هوائي بارد على الرغم من ارتفاع درجة الحرارة الخارجية، وجدت بها أعشاشًا لطيور الحمام، وفي أعاليها تبدو أعشاش لجوارح.

الكتلة الوسطى وكأنها حذوة الحصان المقلوبة، مفتوحة الجانبين، الشمالي والجنوبي، لا تصل أشعة الشمس إلى أسفلها. قدرتُ ارتفاع سقف هذه القبة عن سطح الأرض بـ ٢٦ مترًا، مقارنة بارتفاع السيارة الجيب، وقدرتُ اتساع أسفل الجبل بنحو عشرة أمتار، من الشرق إلى الغرب.

أما الجزء الشمالي من الجبل فعرض قاعدته يتجاوز التسعين مترًا من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب لا يتجاوز العشرين مترًا عند القاعدة. ويقل هذا الرقم كلما صعدت بنظرك إلى قمة الجبل، وفي أعلاه فتحة كبيرة على شكل معين، أضلاعها بحدود عشرة أمتار، ويعلو الجبل تاجان على شكل رأس طير إذا نظرت إليه من زاوية معينة، وتراه بشكل آخر عندما تغير موقعك إلى زاوية أخرى، ويتغير منظره الجميل بتغير زاوية تجاه نظرك إليه.

وقد أثرت عوامل التعرية كثيرًا في قمة هذه الكتلة بسبب موقعها المقابل لاتجاه الرياح، ومن خلال الفتحة الجميلة في الجبل الشمالي تستطيع رؤية قمة الجبل الأوسط، ومن خلفه الجبل الجنوبي، إنه فعلاً منظر

القبة الوسطى من الجبل





جمال طبيعي متعة للنظر

جميل، وقد تنسى نفسك بالشمس الحارقة مثلما نسي كاتب هذه الأسطر نفسه، وأنت تتأمل هذا المنظر البديع، ويلاحظ التشققات الموجودة بجوانب الجبل التي تدل على أن الجبل سيتغير خلال مئات السنين القادمة، ومن ملاحظاتي التخصصية، رأيت أن فتحات الجبلين تتجه ناحية الشمال، وإذا تتبعنا حركة الرياح في الجزيرة العربية لمئات السنين، نجد أنها شمالية أو شمالية غربية، ولهذا فالواجهات الشمالية من أي جسم نجدها تتأثر أكثر من غيرها، بسبب اصطدام جزيئات الرمل الصغيرة بالأجسام التي تقابلها فتعمل على نحت هذا الجسم وتعريته، عبر مئات السنين، ومن هذا نستنتج لماذا كانت فتحتا هذا الجبل وغيره من جهة الشمال إلى الجنوب، ولم تكن من جهة الغرب إلى الشرق.

كما توجد كتلتان صغيرتان بين الكتلة الوسطى والشمالية، لكنهما أصغر حجمًا من الكتل الرئيسة الثلاث، وقد شكلت عوامل التعرية أجزاء كثيرة منها.

وقد يسأل سائل، لماذا تعرّى أو تصدع جزء معين من الجبل. ولم يتعرض الجزء الآخر للتعرية ؟ بالطبع تساؤله

يرتفع جبل المحجة عن سطح البحر بحدود ألف وثلاثمئة وخمسين مترًا، ويتكون من الصخور الرسوبية،وهي في الأساس حبيبات رملية وحصوية وطينية تعرضت للضغط والحرارة لآلاف السنين، حتى أصبحت كتلة واحدة

في محله، والسبب يعود إلى ضعف هذا الجزء من الجبل، فأثرت فيه عوامل التعرية أكثر من غيره، ولونظرنا إلى دهان أو(تلييس) منازلنا لو جدنا أن هناك جزءًا معينًا يتأثر ويتقشر الدهان منه، بينما أجزاء أخرى لا تتأثر، لماذا ؟ لأن جودة مكوناته أقل، وتماسك مواد أضعف، أو أنه تعرض لمؤثر فعال أكثر من الأجزاء الأخرى، كوقوعه أمام الرياح، أو أشعة الشمس أو الرطوبة، وهذا ينطبق على الجبل وغيره من الجبال.

سبب تسميته :

هناك عدة أسباب لتسميته بجبل المحجة، أقربها أن المنطقة التي وجد بها، ذات تربة بيضاء اللون تميل إلى الاحمرار، وسبب آخر شائع التداول بين قبائل البدو المستقرة هناك، وهو أنه كان يُحج إليه أيام الجاهلية، وهذا التعليل يتردد كثيرًا بين الناس هناك، ولا أعلم مدى صحة ذلك، ولا أنكره حيث رأيت بعض النقوش والكتابات الثمودية، على إحدى الواجهات الجنوبية والغربية، كما لاحظت أن هناك أثرًا لسور مبني قديم شرق المحجة، عرض أساسه متر واحد تقريبًا، عرّته الرياح، ولم يبق سوى أساسه المساوي لسطح الأرض بطول ثمانية أمتار تقريبًا، كما توجد آثار بناء أخرى، يبدو أنها لتجمعات بشرية سابقة، وسبب آخر لغوي هو أن المحجة هي الجادة أو الطريق، وكما قال ﷺ (تركتكم على المحجة البيضاء..) أي على الجادة البيضاء، ومن الممكن أن البدو المسافرين يستدلون به، وأستبعد ذلك، بسبب أن جبلي ذريعات يظهران للرائي من مسافة تتجاوز الأربعين كيلومترًا للقادم من الشرق، وأكثر من الخمسين كيلومترا للقادم من جهة الغرب بسبب استواء سطح الأرض غربًا، ومن المفترض أن يستدلوا بهما أكثر من جبل المحجة، ولذا لم أجد في المراجع ما يشير إلى سبب قاطع لتسميته بهذا الاسم (المحجة)، إلاّ أن بعضهم علّل ذلك بأنه سمع أن بعض القبائل تتبرك به قديمًا، وكانوا يحجون إليه من أماكن بعيدة، وهذا ما كان متداولاً بينهم حتى الآن.

وبسؤالي للكثير من الأصدقاء عن هذا الجبل، لم أجد من يعرفه من قبل، أو سمع به، ووجدت أن أكثر من دون ذكرياته يشيرون إلى محافظات قريبة منه، لسهولة وصولهم إليه وتناقل أخباره فيما بينهم، وقد التقيت أحد الرعاة هناك الذي قال: إنه يسكن هذه المنطقة منذ أكثر من خمس سنوات، ولا يعرف هذا الجبل، على الرغم من تجواله الدائم بماشيته فيها.

بعد وقوفي على هذا المكان، وتمتعي برؤيته، ذهلت

تمكنت خلال يوم من نسخ ١٦٠ نقشًا معظمها عبارة عن أسماء أعلام، مما يعني أن الجبل كان بمنزلة سجل حجري لقبائل البدو التي كانت ترعى هنا منذ آلاف السنين، إضافة إلى مجموعة النقوش المقروءة يوجد هناك مجموعة أخرى من النقوش المتأكلة والمحطمة



لعدم الاهتمام به إعلاميًا، أو تحسين طريقه الوعر لتسهيل زيارته لمن يريد، لكن أملنا بالاهتمام به مستقبلاً.

أشهر زوار الجبل :

زار هذا الجبل الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر عام ١٨٨٤ الذي كتب «مذكرات رحلة في الجزيرة العربية»، ونشره في باريس عام ١٨٩١م والذي اكتشف حجر تيماء، ونقله إلى العلا على أربعة جمال، ومنها إلى دمشق عبر السكة الحديدية التي تمر بالعلا ثم إلى باريس. زاره المرة الأولى بمفرده، والثانية رافقه فيها الرحالة الألماني يوليوس أويتنج، الذي قام برحلة إلى شمال الجزيرة العربية خلال الفترة من تاريخ ١٨٨٣/٩/١٠ إلى تاريخ ١٨٨٤ /٤/١٤ زار خلالها الجوف وحائل وتيماء وتبوك ومدائن صالح والعلا والوجه، وصاحب كتاب «يوميات رحلة داخل بلاد العرب» الذي نشر في مجلدين: الأول منهما نُشر عام ١٨٩٦م، والثاني نشره (إينوليتمان) في عام ١٩١٤م، وفي سنة ١٤١٩هـ ترجمت يوميات (يوليوس أويتنج) المختصرة إلى اللغة العربية من قبل الدكتور سعيد السعيد، ونشرته دارة الملك عبدالعزيز بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، وقد وصف المحجة بقوله: «الأحد ١٨٨٤/٢/١٠ مع نسمات الصباح المنعشة وصفاء الجو استمتعنا بمنظر رائع ناحية الغرب، حيث انطلقنا جاعلين جبل عنز العرقوب على يسارنا، ومنحدرين إلى الأمام عبر المنطقة الرملية، وفي هذه الأثناء تفاجأت منا ضبعة، مما جعلها تقفز وتنطلق وهي مذعورة أمامنا، وبعد أن تجاوزنا جبل الخنذوة استرحنا مدة نصف ساعة في نقرة الرخم، ثم سرعان ما وصلنا، مرتفعات الخرم التي تأخذ صخورها أشكالا غريبة، بعضها يشابه شكل جمل بارك، وإلى اليسار منها المنطقة التي تسمى الغراميل، وهي عبارة عن

أضلع صخرية خارجة من الرمال، وأشبه ما تكون بقلعة ذات أبراج كثيرة، وبعد أن عبرنا منطقة القمرة المشهورة بمراعيها ووصلنا قمة ممر حلوان وجدنا أمامنا منطقة طبيعية ممتدة ومملوءة بأشكال من التكوينات الصخرية منها ما هو على شكل أعمدة وأسوار وعش الغراب وإبر، وكتل صخرية، ثم اتجهنا إلى جبال محجة التي قيل لنا: إنه كتب عليها بعض النقوش القديمة، وكلما امتد بنا المسير زادت غرابة تلك التفرعات الصخرية. وتتكون مجموعة جبال محجة الرملية من خمسة أجزاء :

- كتلة صماء ارتفاعها نحو ٣٠م ذات جوانب رأسية.
- ردهة ارتفاعها بين ٢٠ و٢٥م.
- كتلة نصف مستديرة ارتفاعها١٠م تقريبًا.
- صخرة منفردة صغيرة.
- بهو أمامي ارتفاعه نحو ٣٣م.

حين ترجلنا عند الزاوية الجنوبية الشرقية كنت متأثرًا غاية التأثر بالمنظر الذي أراه أمامي، وكانت هناك مئات النقوش المحفورة على الجدران الحجرية، من بينها رسوم لمناظر الصيد وحيوانات من جميع الأنواع، ومجموعة من الجياد والإبل التي لم أستطع رسم سوى عدد محدود منها.

على الرغم من الرياح المعوقة أردت الاستفادة من ضوء النهار المتبقي لكي أنسخ بعض المناظر والنقوش التي أهتم بها كثيرًا، ولأنه ليس من المعتاد أن يجد المرء ماء قرب محجة، فقد كانت مصادفة سعيدة حينما استطاع (الدليل في الصحراء) حيلان بعد بحث قليل اكتشاف حفرة فيها كميات كافية من مياه المطر يمكن ملء القرب منها.

«الإثنين ١٨٨٤/٢/١١ بدأت في الصباح من جديد في عملية الرسم والنسخ، ولاحظت أن تلك النقوش التي ضاعت معالم الكثير منها بفعل التعرية تأخذ أشكالاً





جبل المحجة كما يبدو من الجهة الجنوبية

مختلفة تماما إذا تعرضت لإضاءة مختلفة، وهي ملاحظة تأكدت لي أيضا عدة مرات فيما بعد، وقد تمكنت في هذا اليوم من نسخ ١٦٠ نقشًا معظمها عبارة عن أسماء أعلام، مما يعني أن الجبل كان بمنزلة سجل حجري لقبائل البدو التي كانت ترعى هنا منذ آلاف السنين، إضافة إلى مجموعة النقوش المقروءة يوجد هناك مجموعة أخرى من النقوش المتآكلة والمحطمة. وبينما كانت الجمال ترعى طوال النهار قام مرافقونا بنقل الأمتعة إلى القاعة الكبيرة، حيث استرحنا في المساء داخل تلك القاعة الجرداء التي أضفى عليها ضوء القمر جوا سحريا».

(يوجد توقيع هوبر على أحد جدران الجبل، ومرفق صورة له، ومما شدني لكتابته أنه جميل ومرتفع عن وصول يد الرجل العادي).





جبل ذريعات الشمالي

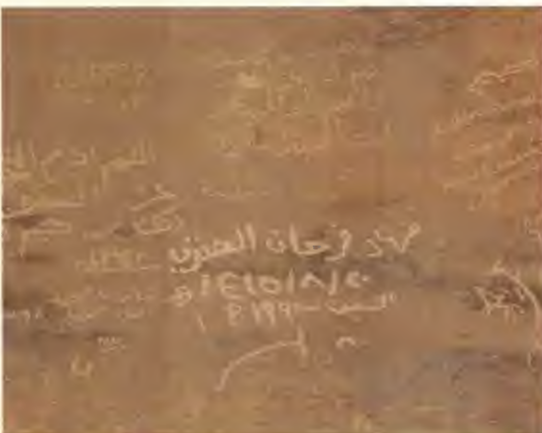
شهرة الجبل:

لم يأخذ هذا المكان شيئًا من الشهرة، وقلّة من يعرفونه؛ لصعوبة الوصول إليه، وبعده عن التجمعات الحضرية الكبرى، بينه وبين طريق حائل - العلا نحو ٢٤ كلم، أي نحو ٥٠ كلم (ذهابًا وإيابًا) قطعناها بنحو أربع ساعات، لشدة وعورة هذا الطريق القصير خاصة العودة مساء؛ لأننا (ضللنا) الطريق، حيث لم أر أوعر منه ولا أصعب، ولولا وجود بوصلة GPS لَمَا عدنا إلى الطريق المعبد على السيارة، على أن الرائي للطريق للوهلة الأولى يعتقد أنه من السهل السير عليه، لكن عندما تبدأ بالمسير تختلف رؤيتك له، وتجزم أن اعتقادك خاطئ، وقد تسلك طريقا لمسافة ثلاثة كيلومترات أو أكثر، ثم تجد أن هذا الطريق مقفل بالجبال التي لا يعبرها سوى الحيوانات، ثم تعود مرة أخرى من حيث أتيت لتبتدع طريقا آخر، وتجده كالسابق، مثل هذه العملية تأخذ من الوقت نحو ربع ساعة وأكثر، لكن على الرغم من انزعاجك إلاّ أنك تحس أنك تمتعت برؤية مكان فريد،

بسؤالي للكثير من الأصدقاء عن هذا الجبل، لم أجد من يعرفه من قبل، ووجدت أن أكثر من دون ذكرياته يشيرون إلى محافظات قريبة منه، لسهولة وصولهم إليه وتناقل أخباره فيما بينهم. أحد الرعاة هناك قال: إنه يسكن هذه المنطقة منذ أكثر من خمس سنوات، ولا يعرف هذا الجبل

قمة الجبل الأوسط عن قرب

توقيع هوبر وتوقيعات قديمة أخرى



قلّة من رأوه من قبل، والملاحظة الأخرى أنه في جميع الصحارى الكثيرة التي جولت فيها أرى الرعاة، وقليلاً ما أفقد البشر وأثرهم، لكن في هذا المكان لم أر أحدًا أبدًا سوى شخص واحد وأبنائه، زارنا وشاركنا القهوة والشاي.

وعلى الرغم من كثرة رحلاتي في البرية إلاّ أني رأيت أن هذه أصعب رحلة لي ورفيقي، خاصة الخمسين كيلومترًا من الطريق المعبد إلى الجبل والعودة، مكان

تحيط به الأوجام من كل ناحية، والصخور التي تظن بالبداية أنها رمل، وهي صخور، أطرافها حادة تخشى منها على إطارات السيارة، وكثيرًا ما يحتك أسفل السيارة بالنتوءات الصخرية، ولو لم تكن السيارة ذات دفع رباعي لما عبرنا كيلومترًا واحدًا، كما أن الرمل كان مزعجًا جدًا، لوصولنا بعد أن ارتفعت درجة حرارته، وأصبح ألين من الماء، غرزت إطارات السيارة عدة مرات، وكم من مرة نخفف من هواء الإطارات ولم ينفع ذلك، حقًا إنه مكان لن ننساه، وأرى أن من يصل إليه قد عمل شيئًا صعبًا جدًا.

النقوش الثمودية :

رأيت عددًا من النقوش الثمودية التي تزين بعض جدران الجبل بجهته الغربية والجنوبية، ومن ضمنها نقش لجملين بالحجم الطبيعي، ونقوش صغيرة، لوحوش كانت تعيش هناك كالضباع، وكتابات حديثة تمكنت من قراءة نص كتب بشكل مقفى : يا حميد يا مجيد، ديم لنا عبد. ...، واغفر لوالينا محمد، أنت الفعال لما تريد، وكتب أسفله سنة ١٣٠١هـ، وآخر يدعو بعبارة : اللهم أدم عز السعود إنك رحيم ودود، وموقعه بسنة ١٣٤٢هـ (قديما كان ينطق السعود، وهذا موجود في خطابات الملك عبدالعزيز، رحمه الله، ووالدينا وجميع المسلمين).

تمتعنا ذلك الخميس بقهوة وغداء لذيذين تحت قبة الجبل الأوسط (لم نسمع أي صوت عدا أصوات طيور الحمام)، وقد صادف قدوم أحد رعاة الأغنام الذي أخبرنا بأنه يجوب هذه الصحاري منذ أكثر من خمس سنوات ولم يعرفه أو يتمكن من زيارته إلا ذلك اليوم، وقد أفادنا أنه قدم من جهة شمال الجبل (جهة تبوك)، أي من الطريق الترابي القديم الموصل بين تيماء وحائل، بينما نحن قدمنا له من الجهة الجنوبية.

كان يومًا شاقًا، وعلى الرغم من عظم مشقتنا وتعبنا إلا أننا تمتعنا أكثر برؤيته، وتفحصه على أقدامنا، ولولا خوفنا من الليل وما قد يعوقنا بالطريق لبقينا حتى بعد غروب الشمس.

لكني عزمت على زيارة هذا الجبل مرة أخرى، إن شاء الله، لأن الزيارة الأولى لم تشبع فضولي، وسأختار موسمًا باردا لسهولة التنقل فيه، وأعتذر عن إطالة الوصف، وأرجو أن تكونوا أخذتم فكرة عن هذا المعلم الجميل، وبودي لو أطلت الشرح، لكن قد تختصر الصور الكثير من الوصف السردي.

هناك عدة أسباب لتسميته بجبل المحجة، أقربها أن المنطقة التي وجد بها، ذات تربة بيضاء اللون تميل إلى الاحمرار، وسبب آخر شائع التداول بين قبائل البدو المستقرة هناك، وهو أنه كان يُحج إليه أيام الجاهلية، وهذا التعليل يتردد كثيرًا بين الناس هناك

طبقات صخرية رسوبية



هل هو الكهف المقصود

تابعت باهتمام تحقيقكم الرائع عن أهل الكهف .. والكهف الموجود بالأردن يُعتقد أنه هو كهفهم .. وكانت الصور الموضحة للكهف من الجودة والتميز بحيث إنها قد أعطت لنا تصورًا كاملاً لشكل الكهف .. وما يترتب على ذلك من دراسة للظواهر الكونية المرتبطة به، من خلال أسلوب القرآن الكريم البليغ والمعجز ...! واسمحوا لي حضرتكم بطرح هذه الرؤى العلمية التي أتمنى أن تُدرس بعناية من خلال الباحثين وخبراء الآثار...

أولاً: أعتقد أن الكهف المكتشف هو المقصود من قصة أهل الكهف: وذلك لأن بقية الكهوف التي تم ذكرها في تحقيقكم بعيدة عن العمران بدرجة كبيرة (مئات الكيلومترات) ... خلاف هذا الكهف الموجود بالأردن .. والقريب من المدينة والعمران .. ودلالة ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً﴾ سورة الكهف: ١٩. وكما هو واضح من الآية فالمدينة المذكورة ليست ببعيدة عن الكهف المقصود.

ثانيًا: من خلال الوصف القرآني للكهف .. وكذلك الصورة التي عرضت في تحقيقكم نجد أن الكهف يتكون من فناء أمامي (الوصيد) وقبوين (القبو حجرة ذات قبة) قبو أيمن (ذات اليمين) وقبو أيسر (ذات الشمال) على يمين الكهف ويساره .. بعد الوصيد. وفي آخر الكهف هناك قبو آخر في مواجهة الوصيد وقبته التي تعلوه توجد بها فتحة للتهوية .. وأيضًا لدخول الشمس، وهي تميل أكثر إلى ناحية اليسار (يسار الكهف) من خلال الصور الموجودة بالتحقيق ... ويمكنكم متابعة هذا التصور في الرسم التعبيري المرفق. لنرجع إلى الآية الكريمة: (وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه) سورة الكهف: الآية ١٧. فمن خلال هذا الوصف القرآني يمكن متابعة حركة الشمس برؤيتها، ولا يحتاج الأمر إلى القياس والمعادلات التي تحدد قيم الزوايا الشمسية ودلالة ذلك (وترى الشمس) فمع طلوع الشمس، وليس شروقها تبدأ الأشعة في الدخول من فتحة القبو الأخير من الكهف إلى (ذات اليمين) وذات اسم إشارة للمكان. فذات اليمين دلالة على القبو الأيمن. وإذا غربت يمر شعاعها فقط على (ذات الشمال). ولا يمكن حدوث ذلك إلا إذا كانت الفتحة العلوية تميل إلى ناحية اليسار قليلاً. فتدخل من خلالها أشعة الشمس، كما ذكرنا آنفًا. فلا تؤثر مباشرة في أهل الكهف الموجودين في القبوين بين الأيمن والأيسر (فهم في فجوة منه) وإنما فقط تمد الكهف بالأشعة فوق البنفسجية التي تعقم المكان من الميكروبات الضارة حفظًا لأجساد الراقدين في فجوة منه بعيدًا عن الأنظار .. وعن أشعة الشمس المحرقة والأمطار.

ثالثًا: مع علمنا بأنه سبحانه وتعالى خالق الأرض

والسموات .. وخالق كل شيء والأسباب .. فإنه يذكرنا سبحانه بأنه يجب علينا ألا ننسى في حياتنا أن نأخذ بالأسباب .. فأشعة الشمس تدخل الكهف بالدرجة التي تستطيع فيها أشعتها تعقيم الكهف وحجراته .. دونما تأثير ضار لأشعتها المحرقة في أجساد هؤلاء الفتية المؤمنة ..

ملاحظة

يرجى دراسة حركة الشمس الظاهرية من خلال فتحة الكهف العلوية بعد إزالة الترقيمات حولها وإعادتها إلى صورتها الأصلية بالكهف.

رابعًا: يقول سبحانه تعالى: (وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارًا ولملئت منهم رعبًا) سورة الكهف: ١٨.

من الآيات يتبين أن حالتهم ليست نومًا كما يقال فيهم .. نوم أهل الكهف .. فالقائم لا يفتح عينيه: فهذا من دلائل اليقظة (وتحسبهم أيقاظًا)، ولكنهم كانوا في حالة إعجازية لا تدركها وكانوا مفتوحي العينين .. ولذا كانت رؤيتهم تبث الرعب في القلوب وتجعل المرء يفرّ هربًا من أمامهم بمجرد رؤيته لهم ...

يقول سبحانه تعالى : (ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) فقد تكفل سبحانه بتقليبهم بالكيفية التي تحفظ لأجسادهم بناءها وعدم إصابتها بأي ضرر ... وكما سبق أن ذكرنا «ذات» اسم إشارة للمكان ... وليس للاتجاه .. لذا فالتقليب ليس يمنة ويسرة كما تظن. ولكن التقليب كان لأولئك الموجودين بالقبو الأيمن ذات اليمين والقبو الأيسر «ذات الشمال» ومن المعلوم طبيًا أن طول الرقاد المرضي (غيبوبة - شلل نصفي ..) يصيب الإنسان بقرح الفراش على الرغم من التقليب يمنة ويسرة ... لذا أدعو الباحثين إلى التأمل والبحث في الطريق لتقليب الراقدين فترة طويلة لإصابتهم بالمرض.

خامسًا: من تكوين الكهف كما ذكرنا .. هو موضح بالرسم التوضحي فإنه يتكون من مدخله الذي يؤدي إلى الفناء الواسع (الوصيد) الذي يؤدي بدوره إلى قبوين أو حجرتين ذواتي قباب - قبو أيمن، وقبو أيسر ... وفي نهاية الكهف يوجد القبو الأخير.. وهو متصل بالفناء الأمامي ولكنه قبو أعلى من بقية القباب .. وبهذه القبة توجد فتحة صغيرة تميل إلى اليسار قليلاً (يسار الكهف) وتسمح بدخول أشعة الشمس. والكهف بهذا التكوين البسيط يسمح بحركة هوائية متجددة من خلال فتحة مدخل الكهف والفتحة العلوية .. أيضًا هذه القباب تسمح بدورة الهواء بحيث يكيف ويجدد الهواء الموجود بها ... فيخرج الهواء الساخن والدافئ من خلال الفتحة العلوية في القبو الأخير ليحل مكانه هواء جديد من فتحة المدخل. ولقد أدرك العالم المصري المهندس د. حسن فتحي رحمه الله هذه الظاهرة وصمم مساكن للشباب بسيطة وغير مكلفة .. ذات قباب.

سادسًا وأخيرًا: أتمنى مواصلة البحث في الكهف عن رفات أهل الكهف بما لا يخل بحرمة الموتى .. الفتية المؤمنة ... كتصوير العظام بواسطة الأشعة أو ما شابهه لتوضيح عددهم .. فالقبور الثمانية تدل على أنهم ثمانية طبقًا لبعض الروايات التي تقول: إن راعيًا اكتشف مكانهم وإنه قد مات معهم .. ولكن الآيات الكريم لم تشر إلى ذلك .. وتقول: إنهم سبعة وثامنهم كلبهم .. فهل نبحث في ذلك دونما مساس بحرمة هؤلاء الأموات الكرام ... نأمل ذلك ..

فيصل المنشاوي

كفر الشيخ - مصر

باحث في الطب الأصيل (الطب النبوي)





الطريق إلى الورد

سليم صايفي

باتنة ـ الجزائر



واستراحوا جميعًا
وصاغوا قصورًا من المشتهى
بين أحلامهم نسج الطير أعراسه
سأل الورد قافية الوجد
والرابيةْ
هل فراش المتاهة ما زال منتظرًا قامتي الماضيةْ؟
ها أنا شاعر شارد في الرؤى
كلما أسقطت دهشتي غيثها
برزت نخلة في دمي
كلما فاجأ العمر تغريدتي
فجرت لوعتي حلمها
شكلت لغة من لغات الصدى
حينها الحب حدثه الجرح في الزاويةْ
فتراقص من عزف أغواره
وطن قادم من غد
يستظل بجذع قصيد السنا

من هنالك مرّوا
ومرّ الخريف ربيعًا سريعًا
من الليل جاؤوا
فجاء الرباب الكئيب يحملهم هجره
كلهم في سماء الهوى أبرقوا
رسموا لوحة الضاحيةْ
أشرقوا بلظى المبتغى
بمرايا الندى، بالصدى
وبناياتهم
نسجوا خيمة من بتلاتهم

رقصوا للسدى رقصة البادية

زرعوا في المساء صباحاتهم

في مرافئهم نوتة الحلم لا تنتهي

تقتفي زرقة والكرى

هكذا الشعراء قد انتفضوا بربيع الربيع

تخلوا عن الشرفات مرارا

وصاغوا جنانًا من القافية

ركب

عبدالله سعد اللحيدان

الرياض ــ السعودية

تؤهّلهُ

ليالي الحبِّ

للألغازِ

للأحلى،

وجاهزةٌ

هي الرغباتُ

منطفئٌ

هو القلبُ،

ولا توقده الهمساتُ

في الإيجازِ

في ليلِ

إشارات

هو الدربُ،

سرى

وتأخَّر الركْبُ ،،،

«زمانٌ»

ليس يُنسى غدرهُ

صعبُ.



ليلك الرؤيا

غالية خوجة

حلب ـ سورية

ترفّ رموزُ أمطرتي
ويرحل مَنْ
تراكمَ في الرمادِ
فيا
ضريحًا لم
يبرعمْ غيرَ نيراني
دعِ الأشكالَ تكتبُ ما
يغايرُ محْونا وسوادَنا
ما أوسعَ المصباحَ حينَ
يراعشُ الإعتامْ
أثمّةَ في البزوغِ سوايَ؟
أمْ ..
شجري يرتّلُ سحْرَ خمرتهِ؟
سيشرقُ ثلجُ أغنيتي
ويحرقُ حلْمَ مَنْ قتلَ السنابلَ
إنّ أزمنتي
تراكضُ موجَها

وتباغتُ النورَ، الهديرَ،
وكلَّ موتٍ
أو
حياةٍ .. أو ..
أؤنبئكمْ
متى يتعاشبُ الأبديْ؟
سأرقصُ في دمي حتى
تجنَّ الأرضُ أو حتى
تذوبَ قصائدي في جمرها
سأكونُ
يا وطني
جحيمًا للصدى ..
وحدي
أراكَ الصوتَ
ليلكَ كالشمّوخ يظلُّ
برقًا فاتحًا
رعدًا



يشرّدُ سكْرةَ اللحظةْ

فهل نصحو

كما الليل المداهَمِ؟

أمْ

سنبقى في مدافننا؟

يشكُّ الشكُّ

أن جراحَنا فيكمْ

وأنّ قلوبَكمْ معنا

سأقولُ:

هلْ حرجٌ على الأعمى؟

سأشعلُ ياسميني فيكَ يا نبضي

وأبدأُ

من جحيمكَ أو جحيمي ..

المسافة بيننا

محمود سليمان

قنا ــ مصر

وتجاوزت المسافةُ بيننا

كل الدروبْ ...



وأنا ... أنا

النيلُ مبتدأٌ لشعري

واليماماتُ الحزينة ..

والمطرْ

لولاك ما ..

ما كان عشقي للبنفسجِ

للزبرجدِ . . للدخانْ

يتثاءبُ الجسد المطرزُ

بالخواء

وأنا وليدٌ للبلاهةِ

والشقوق

لكنني حذو الكتابةِ ...

أنتهي

لأعود طفلاً ...

يشتافُ من وجع الحقيقةِ

روحَه

ويحطُ في أوصالهِ

برد الشتاءْ

لُمنى

كي لا أسافر في مداراتي

وحيدًا

وأنثني خلف المداد

الجار

باريس زوبافين(١)

سعاد شريف زين العابدين

الخرطوم ـ السودان

سافرت آنا بتروفنا نيكانورفا بصحبة ابنها أندريوشا ذي الخمسة أعوام وأمّ زوجها كلوديا فيودورفنا التي ينادونها بالجدة كلافا إلى الداتشا(٢) في الربيع.

أعجب آل نيكانورف بذلك البيت الصغير ذي السقف الأردوازي الذي يقع تحت هضيبة رمادية فقرروا أن يبقوا فيه لأواسط الخريف حتى عودة رب الأسرة والد أندريوشا المهندس الكهربائي الذي ذهب إلى العمل في سيبيريا طوال فترة الصيف.

تكون دغل بري حقيقي في الحديقة الملحقة بالداتشا التي كانت تُعطى كل ربيع لسكان جدد، ونمت فيه أشجار البتولا، والزيزفون، والحور، والبيلسان، وممّا أعجبهم وجود طيور كثيرة هناك.

كانت آنا بتروفنا تذهب كل صباح إلى موسكو حيث تعمل موظفة في معهد للأبحاث العلمية. عندما كانت تسير إلى محطة القطار مارة بالطرق الهادئة التي يهب عليها نسيم الصباح البارد وبالدروب المبتلة بقطرات الندى كان يتملكها شعور داخلي قوي بالعنفوان والسعادة والراحة. حينها كانت تتمنى أن تعمل كثيرًا لكي تعود في المساء وتنام باطمئنان، وفي الصباح تغتسل بماء البئر البارد الذي يغذي ذلك الصنبور اليدوي الموجود في سقيفة المنزل وترجّل شعرها الزاهي الأشقر ثمّ تنظر بسرور إلى نفسها في المرآة فيتجدد شعورها بالانتعاش والحبور والصحة. كانت تنتظر حدوث شيء غير مألوف في مقبل حياتها، وتحب الأشخاص غير المألوفين البطوليين الذين يُعجب الناس بهم، ويحققون إنجازات، ويكتشفون اكتشافات يتحدث الناس عنها بفخر.

صار النهار طويلاً ومن الفجر إلى الغروب كان ضوء الشمس يغمر المكان، وتفوح رائحة الحشائش الخانقة، ويُسمع حفيف الأشجار في الدغل. عملت الجدة كلافا بضعًا وثلاثين سنة في مصنع للنسيج، وقد تقاعدت في السنة الماضية، كانت ترى نفسها امرأة مستقيمة ذات رأي سديد. سرعان ما تعارفت الجدة كلافا وأندريوشا الذي اسمرّ لونه، وتخدش جسمه بفعل الأشجار بعد قدومه هنا مع كل الجيران سوى كيريوخين، ذلك الشخص الذي يصعب تحديد عمره والذي كان يسكن وحيدًا في منزله الخاص. كان يفصل بيته عن بيت نيكانورف سور منخفض مائل قليلاً ذو نتوءات، قد أصبح لونه رماديًا بفعل الشمس والمطر. خلت حديقة كيريوخين من أشجار البتولا والحور، وبدلاً عنها نبتت أشجار التفاح والكرز والتوت والعنب.

كان كيريوخين هزيلاً، ذا يدين طويلتين، وشعر أشيب قد حُلق بعناية. كان يعمل طوال اليوم بالقرب من أشجاره ويبدو أنه لم يكن يرتاح أبدًا أو يأكل أو يشرب ومتى ما نظرت إليه من خلف السور وجدته سائرًا في الحديقة مرة حاملاً رفشًا، ومرة إناء للرش، وتارة أخرى مجرفة.

كانت الجدة كلافا تحب أن تتعرف إلى الناس، وتطيل



الحديث معهم، وتعرف بعض جوانب حياتهم، وتسدي إليهم نصائحها، وكم تمنت لو سنحت لها الفرصة لإعطاء نصائح لهذا الجار! لكنها لم تنجح في التعرف إليه فقد كان كيريوخين يعيش منعزلاً كأنما لا يوجد ناس حوله. ذات مرة اقتربت الجدة كلافا من السور وقالت: مرحبًا أيها الجار. كان كيريوخين منكبًا على حوض الزرع جالسًا على يديه. رفع رأسه وقال بلا اكتراث:

مرحبًا...

قالت الجدة: يا لها من حديقة جميلة. كل شيء موجود فيها، وتأهبت للدخول في حديث طويل ومسهب عن الحياة والأوضاع في العالم والجو.

رد كيريوخين باقتضاب: نعم هي كما قلت.

قالت الجدة: لقد نظرت إليها وفكرت كم كيلو غرامًا من الثمار سوف تنتجه.

قال كيريوخين وهو منهمك في عمله: كثيرًا. ثم لم يعر المرأة بعد ذلك أي اهتمام.

وقفت الجدة كلافا هنيهة، ثم ابتسمت بتكدر وحيرة كأنما قد بصق عليها، كما حكت بعد ذلك لأسرتها، وابتعدت عن السور وحكمت على هذا الشخص أنه فظ وقاس لا يحب الناس، ويبدو عليه الجشع.

عندما نضجت ثمار الفراولة كتمت الجدة بغضها لكيريوخين وطلبت منه أن يبيعها ثمارًا طازجة لأندريوشا فقال لها كيريوخين: اذهبي واقطفي الثمار التي تريدين.

سألت الجدة بحذر: وماذا تريد مقابل ذلك؟

ردّ عليها: لا شيء، وماذا يمكن أن آخذ منكم؟

كانت الجدة تعلم أن الثمار المبكرة دائمًا ما تكون غالية الثمن في السوق؛ لذا عاهدت نفسها وهي ذاهبة إلى كيريوخين أن تلتزم الوقار، ولا تجادله كثيرًا، وتعطيه الثمن الذي يريد لكي تظهر له أنها أحسن حالاً منه. لذلك أغضبها رده فقالت له: لا أريد أن آخذها منك بلا مقابل. أي إنسان عليه أن يحصل على أجر مقابل عمله.

ثم إن لدينا ما يكفي من المال لكي نعطيك الثمن.

رد كيريوخين: أو تدرين! أنني أيضًا لست فقيرًا.

في أثناء شرب الشاي في المساء بعد غروب الشمس قالت الجدة كلافا لآنا بتروفنا: يا له من شخص غريب الأطوار! لقد رفض أن يأخذ الثمن وقال لي: خذي ماتشائين بلا مقابل. هل رأيت شخصًا مثل هذا من قبل؟ ثم ألقت بنظرة متسائلة إلى حيث يسكن كيريوخين، وكان حينها يسقي الأزهار.

واصلت الجدة حديثها وهي تصب الشاي: لا بد أن

يكون هناك معنى للحياة. ما معنى أن يعيش الشخص هكذا؟ هل يا ترى أنه لا يعرف قيمة نفسه فيكدح من الصباح إلى المساء، ثم لا يأخذ شيئًا مقابل ذلك؟ أنا نفسي كنت أكدح طوال حياتي، وأعرف أنه فقط عندما يقدرون عملك فإنك تحس أن لحياتك معنىً، وتشعر بالرضا عنه.

استمعت آنا بتروفنا إلى حماتها وهي تفكر: ماذا يهمنا من أمر هذا الغريب السمج الذي لا يمت لنا بصلة؟ لقد نشأت في أسرة كانت تعتقد أن النظام والإخلاص والنزاهة طبيعية وضرورية لكل إنسان مثلما هو طبيعي وضروري أن يغتسل الناس كل يوم ويعملون وينامون. ولكن نزاهة كيريوخين كانت شيئًا مختلفًا. هل هذا شيء حسن أم سيئ هذا ما لم تستطع أن تحدده.

كان الشاي لذيذًا وفواحًا، والمساء هادئًا، وبدأ الهواء يبرد شيئًا فشيئًا مع قدوم الليل حاملاً معه رائحة الأزهار في حديث كيرويوخين. كل هذا كان رائعًا ولطيفًا! لم تكن آنا تريد أن تفكر في تلك اللحظة في كيريوخين وغرابة أطواره بل في حياتها هي. كانت قد تخرجت في الجامعة منذ أربع سنوات، وكانوا يقدرونها في المعهد ويرونها موظفة خبيرة. عما قريب سوف تقوم بمناقشة رسالتها الجامعية وسوف تنجز أعمالاً مهمة ونافعة في حياتها.

بدأت سحبُ رمادية كثيفة في التجمع فوق تلك المنطقة مصحوبة بالبرق والرعد. بعدها كانت تنبعث رائحة الأرض المبتلة وأشجار الحور والقبس.

في أحد الأيام حدث شيء مؤسف، أصيبت قدم أندريوشا وهو يقفز من الشجرة فأرقدوه في السرير، وظنوا أنه سيتعافى بقدوم الصباح. لكن ارتفعت حرارة جسمه في منتصف الليل، واحمرّ باطن قدمه، وتورمت حتى إنه لم يكفّ عن البكاء.

اقتربت السحب وحجبت زرقة السماء، وعندما حلّ الظلام بدأ البرق في اللمعان بعيدًا، لم يكن يسمع صوت الرعد بعد، ولكن تتالت تلك الومضات الزرقاء اللامعة في السماء المظلمة. كان لا بد من الإسراع في إيجاد طبيب لمساعدة أندريوشا، لكنهم لم يكونوا يعلمون أين سيجدونه، وهل يوجد طبيب في تلك المنطقة أم لا؟

كان كل الجيران قد ناموا عدا كيريوخين الذي انبعث الضوء من غرفته. لم تتردد آنا بتروفنا فذهبت إليه، وقرعت باب السور. خرج كيريوخين من منزله ووقف وراء الباب. قالت له آنا بتروفنا وهي تضطرب. إنّ قدم أندريوشا تؤلمه. نحتاج إلى طبيب.

انبعث صوت كيريوخين في الظلام وهو يقول بجفاء: لا بد من الانتظار حتى الصباح عندما يفتح المستوصف.

صاحت آنا بتروفنا: غير ممكن! إنه لا يستطيع أن يتحمل حتى الصباح.

صمت كيريوخين لحظة ثمّ قال: يوجد مستشفى في محطة القطارات المجاورة به أطباء مداومون، في تلك اللحظة بدأ الرعد في الدوي بشدة كأنه دق الطبول في فرقة موسيقية.

سألت آنا بتروفنا: هل يمكن إيجاد سيارة؟

ردّ كيريوخين: أي سيارة في هذا الليل؟ اذهبي بالقطار. إن القطارات الكهربائية تسير حتى هذا الوقت.

دوّى صفير القطار من على البعد، وسمع خفق عجلاته كأنما كان يؤكد ما قاله كيريوخين. لمع البرق مرة أخرى ساطعًا فوق آنا بتروفنا وكيريوخين والسور. وسمع صوت الرعد من مكان قريب كأنه برميل حديدي يتدحرج على الصخر وطغى على صوت القطار.

سأل كيريوخين: هل هو متألم جدًا؟

ردت آنا بتروفنا: نعم وأخشى أن يكون هناك كسرٌ.

قال كيريوخين وهو يخرج: كسر؟ هيا بنا لنراه.

أزاح كيريوخين الغطاء من على أندريوشا، ونظر إلى رجله المتورمة، ولم يقل شيئًا، ثمّ حمل على ذراعيه واتجه نحو الباب. وهو يقول لآنا بتروفنا: لا تنسي أن تأخذي معك النقود للقطار. لفهم الظلام الدامس الخانق حالما خرجوا من المنزل ثم أخذ البرق في اللمعان مرة أخرى، وانهمر وابل غزير من المطر.

بدت محطة القطار ذات الضوء الخافت الممتلئة بماء المطر خاوية وكئيبة. علموا هناك أن آخر قطار متجه إلى تلك الناحية التي يريدون الذهاب إليها قد غادر منذ ساعة، وقد توقفت حركة القطارات لوجود ترميمات في الطريق.

جلست آنا بتروفنا بإعياء في المقعد، وأخذت تبكي من اليأس.

قال لها كيريوخين وقد شعر بالذنب: لا عليك يمكننا أن نذهب سيرًا على الأقدام. هل تستطيعين ذلك؟ أربعة كيلومترات فقط. وضع أندريوشا بجانبها، وأحكم الغطاء عليه، ثم نزع سترته ووضعها فوق الغطاء وحمل الولد واتجه به نحو الرصيف. كان المطر ينهمر بشدة فوق الشجر محدثًا صوتًا عاليًا. وكان المشي على جانب الطريق الحديدي شاقًا. كانت آنا بتروفنا تتعثر في الطريق، لكنها لم تكن تشعر لا بالمطر ولا بثيابها المبتلة ولا بالطريق السيّئ، تركز تفكيرها في أندريوشا وألمه وهذه المصيبة التي حلت به. لم تلحظ آنا بتروفنا أيضًا كيريوخين كان يتنفس بصعوبة بصوت متحشرج وما أثار غضبها أنه كان كثير التوقف يمشي مئة خطوة ثم يتوقف كأنه يريد أن يستمع إلى صوت المطر، ثم يتحرك مرة أخرى في غير عجلة بينما كان يجب عليه الإسراع في الوصول إلى المستشفى لإغاثة أندريوشا وتخفيف معاناته. لم تكن آنا بتروفنا تعلم أن كيريوخين كان يمشي بصعوبة؛ لأنه كان مصابًا بالربو، وأنه كان يتألم من وخزات مستمرة في صدره. لم تكن تعلم أيضًا أي حياة قاسية يعيشها، لقد قتل ابناه الاثنان في الحرب وبعدهما بأشهر قليلة توفيت زوجته. كان كيريوخين مقتنعًا أنها لم تمت بسرطان الرئة كما قرر الأطباء ذلك، ولكنها ماتت من الحزن. وبسبب الحزن أيضًا يعتقد كيريوخين أنه قد أصيب بالربو الذي اضطره أن يترك المصنع الذي عمل به أكثر من ثلاثين سنة ولازم أقرانه. الآن يعمل هناك الصانعون والسباكون الذين تتلمذوا على يديه. كان يعمل في الحديقة من الصباح إلى المساء؛ لأنه يعتقد أنه إذا لم تفعل شيئًا اليوم ولم تفعله غدًا فسوف يباغتك الموت بعد غد ولم يكن يريد أن يموت. كل هذا لم تكن تعلمه آنا بتروفنا. أخيرًا لاحت أمامهم أضواء المحطة الباهتة. أخذ كيريوخين يهبط من طريق القطارات وهو يقول: هيا ورائي. إنها أقرب من هذا الطريق. داروا ناحية اليمين وساروا عبر ممرات وغدران وحشائش مبتلة، وعبروا قناة، ثم خرجوا إلى طريق مرصوف. وسرعان ما تراءت لآنا بتروفنا أشباح الأشجار والأسوار والبيوت مما يعني أن هذه هي بداية المنطقة، لكنهم ساروا بعد ذلك طويلاً، وداروا، ثم نزلوا إلى غدير آخر. في تلك اللحظة توقف كيريوخين مرة أخرى. لم تستطع آنا صبرًا فصاحت بحنق: فلتتعجل في السير، والآن ها هو ذا المستشفى قادتهم الممرضة النعسانة إلى غرفة الاستقبال الهادئة. أزاحوا الغطاء عن أندريوشا ثمّ أرقدوه فوق طاولة. وقف كيريوخين عند المدخل حاملاً سترته المبتلة ولم يدر ماذا يفعل بعد ذلك، هل يبقى أم يذهب؟ نظر الطبيب إلى كيريوخين وسأله: من تكون؟ أجاب كيريوخين: جارهم، ثمّ بدأ في السعال.

قالت آنا بتروفنا: وأنا أمّه. كانت تقف في وسط الغرفة وقد ابتل رداؤها وشعرها وتكونت بركة من الماء تحت قدميها لكنها لم تكن تشعر بها كما لم تكن تشعر بشيء في الطريق،

كانت تفكر فقط في أندريوشا المتمدد على الطاولة.

قال الطبيب دون أن ينظر إليها: يمكنكم البقاء. زادت حيرة كيريوخين بعد كلام الطبيب، ثم ذهب على أطراف أصابعه إلى الباب، جلس في الردهة قليلاً ليلتقط أنفاسه، ثم خرج قاصداً العودة إلى بيته. كان المطر قد توقف، وصار الهواء ندياً. كان كيريوخين يتوقف في الطريق حتى يسكن الألم الذي في صدره، وعندما يهدأ يواصل السير. لمعت قطرات المطر فوق الحشائش، وصفت السماء من السحب، وبدا لونها أزرق فاتحاً مائلاً إلى الخضرة في ناحية الشرق حيث ستشرق الشمس بعد قليل. سكن كل شيء في الطبيعة والكل يريد أن يفكر في الأشياء الجميلة كعلاج أندريوشا وتوقف آلامه.

شعر كيريوخين بقشعريرة خفيفة عند دخوله المنزل فبدل ملابسه بأخرى جافة واستلقى على السرير ولكي يتدفأ بسرعة جرّ الغطاء على وجهه. استيقظ متأخراً في الساعة الحادية عشرة. كانت الشمس تسطع في الخارج. قال كيريوخين لنفسه وهو مستلقٍ على السرير وناظر إلى السقف: لقد تنعمت بما يكفي، والآن هيا إلى العمل. بعد بضع دقائق نزل إلى الحديقة وهو يحمل سلة. ثم حمل تلك السلة وهي ملأى بالتفاح وخرج بها، ولكن عاودته نوبة الربو مرة أخرى ولم تدع له سبيلاً للراحة. توجه إلى ملجأ الأطفال وأعطاهم كل ما أنتجته حديقته.

لحسن الحظ لم يكن لدى أندريوشا شيء خطير. اكتفوا بوضع أربطة عادية في قدمه وهذا ما كان يمكن عمله في البيت: كمادات باردة وكيس من الثلج مع رباط مشدود. أبقوا أندريوشا وأمه في المستشفى حتى الصباح وأعطوهما ملابس جافة وأجلسوهما في أريكة جلدية وثيرة. عندما تذكرت آنا بتروفنا كيريوخين، وفكرت كم هو شخص غريب غامض، ذهب وكان بإمكانه البقاء حتى تجف ملابسه ويتوقف المطر! لم يكن يعجبها مثل هذا النوع من الناس. كانت تحب الأشخاص الواضحين الصريحين الذين يتعاملون مع الناس دون تعقيد، مثلها هي وزوجها. عندها تذكرت أن زوجها سوف يأتي قريباً وقد حان الوقت للعودة إلى موسكو.

كانت قد ملت العيش في الداتشا والذهاب كل يوم بالقطار إلى العمل. كما أنّ هذا الشهر هو أغسطس وقد ظهرت بوادر الخريف. دارت هذه الأفكار في رأسها ثمَّ نامت.

ذهبت آنا بتروفنا في الصباح إلى موسكو، وأخذت إذناً بالتغيب عن العمل. استقلت عربة أجرة، وعادت إلى البيت، وشرعت هي والجدة كلافا في حزم الأمتعة وترتيبها. كانت تفارق تلك البقعة ببساطة وبلا أسف أو حزن. كل شيء بعد تلك الليلة المضنية أصبح بغيضاً وقد تعجبت من نفسها كيف أنها في الربيع قد أعجبت بتلك البقعة وكأنها طفلة صغيرة!

عندما جلسوا في السيارة تذكروا كيريوخين فذهبوا ليودعوه ويشكروه. كان بيته موصداً. أغضبهم ذلك كأنما هذا الجار قد غلب عليه طبعه ففي الوقت الذي يريدونه يذهب إلى مكان غير معلوم.

قالت الجدة كلافا وهي تتنهد: شخص متهور كان الله في عونه طوال الصيف كنت أراقبه، ولم أستطع أن أفهمه.

وافقتها آنا بتروفنا وهي تقول: نعم شخص غريب، ثم أضافت وهي تفكر وتضحك: إنه عبوس كالذئب.

ضحكت الجدة كلافا وقالت: حقاً إنه عبوس.

ثم رحلوا ولم يروا كيريوخين مرة أخرى وسرعان ما نسوا أمره.

الهوامش

١. باريس زوبافين كاتب روسي ولد عام ١٩١٥ في موسكو. من أهم مؤلفاته (قصص قصيرة) و(صديقنا) و (الخاتم) و (التوقع).

٢. الداتشا منزل ريفي غالباً ما يصنع من الخشب يقضي فيه الروس عطلاتهم.

قبضة ماء

سهام صالح العبودي

الرياض ـ السعودية

خيطُ الماء الذي تمادى هطلاً كلَّ الصيف ابتنى دائرة منخفضة من بلاط الشرفة.. ظلُّ الماء الذي يرشق خفيفًا يُذيب السخونة في ممرِّ الهطل بدءًا من الحافة السفلى للشرفة التي تعلو شرفتي حتى أرضيَّتي ذات النقش غير المتماثل.

يعلو السقف ضوضاء حميمة في تلك الدائرة بعد كلِّ ظهيرة حيث تقطر الثياب ماءها في الشرفة الحجريَّة، وتنسرب في المزراب المعدني، يتجلَّد الفضاء المحيط، ويتكاثف قبل أن تثقل القطرة عن احتمال الالتصاق، فتنفجر فوق سطحي مُنبتة بحيرة ضئيلة في الظلِّ المهجور..

بالماء تنتشر الحياة في وقت لم أكن أعرف خلاله سوى ذرع الجدران بانتظار ذوبان الظهيرة المملَّة، وأنا محاصرٌ داخل شقتي التي تستلقي تحت شقة جارتنا العربية العجوز التي دأبت منذ سكنتْ على مدِّ غسيلها فوق حبلٍ موازٍ لأصص الورد المتراصة على سور الشرفة الصغيرة.

قبل أشهر قليلة اكتشف حمام الحي هذا الظلَّ البارد، تمدد ريشٌ ناعمٌ تحت رشح الماء، وصارت الحكايات تنبت أمامي.. الوقت الذي بدأ ممتدًا كظلِّ الغروب تآكل وانتهى تحت شمس حيَّة عمودية.

لا يوجد أمام جسد مرتخٍ فوق عجلتين، ومقعد جلديٍّ وثير الكثير ليفعله، استطالة أمد الفعل يجلب نُعاس الملل للأشياء: القراءة، شيزوفرينيا الدومينو حين أجد نفسي منحازًا إلى ظلِّي المقابل (الحر الذي يمشي ويتقلَّب كالبهلوانات)، اللعبة الإلكترونية، جهاز التحكم عن بعد.. كان الملل يقرض كلَّ شيء.. لكنَّ الحمام له حكايات لا تُملُّ: حين تشقُّ المناقير قشرة الماء، وتلتمع العيون الصغيرة بالرواء بعد أن يقرقر خفيفًا في العنق الطريِّ تلك الحكاية الأبهج، يعقبه سكون ورضا، ويصدف أن ألمح زوجين مطوَّقين يتعانقان فيما يهدلان بفتنة الصوت الشجي الرخيم.

كانت الشرفة اختراعًا هائلاً وقت استلذاذي مسْرَحَة الفضاء المقابل، وزمَّ طرفي الأثير كشقَّي ستارة فيما يلعب الحمام الدور الرئيس، راقصًا في حمأة القائلة على نقط الماء الرتيب.

يومان وأنا أفقد هذا الهديل، أسترقُ السمع من وراء الستارة لكن الهدوء الغامض يقذف في روعي أجنَّة شكٍّ ترعرعت حين استطال أمد الغياب.

حين اقتربت أكثر للمرتع المعهود كانت البحيرة تتآكل، تقصُّ أطرافها شمسٌ غائلة حيث لا مزوِّد يرشح في الجوار، لا سقَّاء يجلجل في حي الحمام، كان هديرُ غسَّالة أوتوماتيكية مُتسرِّب من الأعلى يطبق بيديه على عنق الحكايات.





رمضان في الأدب التركي

سـهيل صابان

الرياض ـ السعودية

الحمد لله الذي جعل شهر الصوم سلطان الشهور، وأراح فيه النفس الإنسانية من الملذات المادية، ورقّاها إلى عالم الطهر والصفاء من الكدور، والصلاة والسلام على نبيه المبعوث رحمة للإنس والجن إلى يوم النشور، سيدنا محمد صاحب المقام المحمود واللواء المنشور، وعلى آله الطيبين وأصحابه الغُرِّ الميامين إلى آخر الدهور. أما بعد:

فإن هذا الشهر الكريم يلقى من الترحيب من الشعوب الإسلامية ما لا يلقاه غيره من المناسبات الدينية. وتتوق إليه النفوس شوقاً لإدراكه، واحتفاءً بحلوله. وتتفق تلك الشعوب في التعبير عن فرحة المسلم بهذه الأيام المباركة بمختلف الوسائل والأساليب. ويشترك المسلمون في عادات يتميز بها هذا الشهر الكريم. وهي: الكرم، والجود، والمحبة، والإخلاص، والعمل. ويقومون الليل، ويتلون القرآن ويتدارسونه، ويذكرون الله كثيراً، ويتهجدون من الليل نافلة لهم، ويزداد الترابط الوجداني بين المسلمين في كل بلاد العالم. وتظهر الوحدة الإسلامية بأسمى معانيها خلال شهر الصوم، فتحلِّقُ بالمسلمين في آفاق القوة الروحية نتيجة لامتثالهم لأوامر الحق سبحانه وتعالى، وسنة نبيه ﷺ بتمسكهم بتلك الصلة السامية بينهم وبين ربهم ألا وهي الصوم (٢).

إلا أن مظاهر الاحتفاء بهذا الشهر الفضيل تختلف من مكان إلى آخر، فكل شعب لديه من العادات والتقاليد الحسنة المتوارَثَة التي يستقبل بها شهر



رمضان، مما يضفي عليه طابعاً من التميز. والشعب التركي أيضاً وَرِث من ماضيه الإسلامي المشرِق كثيراً من العادات الرمضانية، التي اختص بها. ويظهر ذلك بدءاً من اسم رمضان وانتهاءً بمصطلحات أخرى مأخوذة من اللغة العربية، مما سيرد في غضون هذا البحث، ليدل دلالة واضحة على ما يلقاه هذا الشهر من الترحيب والتبجيل والتقدير. ولابد أن يذكر هنا أنه يطلق على شهر رمضان في تركيا «سلطان أحد عشر شهراً» أو «سلطان الشهور».

وعند وضع هذا البحث قمت بدراسة تمهيدية للمصادر التركية الموجودة في قاعة الكتب العثمانية والتركية بمكتبة الملك فهد الوطنية. فوجدتها قليلة لا تفي بالغرض الذي كنت أسعى لتضمينه البحثَ مِن معلوماتٍ تاريخية، ودمجها بمعلومات جديدة عن شهر رمضانٍ في المجتمع التركي. فاستعنتُ بالشبكة العنكبوتية العالمية، علَّني أجد فيها مواقع باللغة التركية عن الموضوع. فلما أدخلت كلمتي شهر رمضان باللغة التركية ramazan ay? وجدتُ فيها ما لم أكن أتوقعه من



شيخ يتوضأ وآخرون يصلون

نتائج مذهلة. فقد كانت المواقع التي تتحدث عن هذا الشهر الكريم، وتوردُ معلوماتٍ مفصلةً عنه تفوق ألف موقع (٣). مما يدل دلالة واضحة على المكانة التي يَحظى بها هذا الشهر الفضيل لدى المجتمع في تركيا. وإضافة إلى ذلك فقد وجدتُ كثيراً من المجلات التي أفرَدَت أعداداً خاصة بهذا الشهر الكريم، من حيث الفتاوى الفقهية التي يحتاج إليها المسلمون، ومكانة هذا الشهر بين الشهور الأخرى، وكذلك صلاة التراويح، وفوائد الصوم على صحة الإنسان..إلخ ثم دخلت على موقع المكتبة الوطنية في أنقرة فوجدت عناوين كثيرة لكتب تخص شهر رمضان، من كتب أدعية ، وفتاوى فقهية، ونكت رمضانية، وكتب أخرى ترحيبية في عناوينها بهذا الشهر المبارك (٤). ولما أتتني مجموعة أخرى من مصورات الكتب التي بعثتها دائرة المعارف الإسلامية الجديدة في إستانبول مشكورةً، تبين لي الثراء الكبير في الأدب

كانت المساجد في العصر العثماني ومازالت في العصر الحديث وفي شهر رمضان المبارك على وجه خاص تمتلىء بالمصلين بين عابد وخاشع وراكع وساجد. كلهم يذكرون الله تعالى، ويشكرونه أن بلَّغهم هذا الشهر الفضيل



الصلاة جماعة في أحد مساجد تركيا

التركي عن شهر رمضان، وقد سماه بحق الباحثُ القدير الأستاذ الدكتور سهيل أونور بحضارة رمضان، فقد أفرد لسرد عاداتِ وتقاليد هذه الحضارة في كتاب له مطبوع بعنوان: رمضان ألف وواحد إستانبول(٥). تناول فيه العادات والتقاليد الرمضانية في إستانبول، بدءاً من الأسبوع الأخير من شهر شعبان، الذي تتغير فيه معالم البلد من حيث الاستعدادات الشعبية والرسمية لاستقبال سلطان الشهور، ومروراً بالحديث عن رؤية الهلال، وكيفية إعلانها للناس من خلال الوسائل الخاصة، وإيراداً لأدق التفاصيل عن التغييرات الكبيرة في المجتمع للأيام الرمضانية ولياليها في مدينة إستانبول العتيدة، وانتهاءً بإعلان العيد والاستعدادات الشعبية المتنوعة لعيد الفطر السعيد.

والحقيقة أنه قد دخل كثير من المصطلحات الخاصة بهذا الشهر من اللغة العربية إلى اللغة التركية، وعلى رأسها اسم الشهر: رمضان ramazan والسحور sahurوالإفطار iftar والتراويح teravih والاعتكاف itikaf وليلة القدر kadir gecesi وزكاة (صدقة) الفطر fitre sadakas? والإمساكية imsakiye التي تعني في الاصطلاح التركي جدول مواعيد الفطور والسحور. ومما يجدر ذكره هنا أن الإمساك الذي يرد

الأدب التركي ثري بأنواع القصائد التي يطلق عليها الرمضانيات، والتي تصور مظاهر الحياة الاجتماعية في هذا الشهر، وما كان يسوده من عادات وتقاليد. ويبدأ ظهور هذه الرمضانيات من القرن السادس عشر الميلادي

في التقاويم التركية على طول السنة، يدل على وقت معين قبيل أذان الفجر. وهناك كلمة أخرى مأخوذة أيضاً من اللغة العربية وهي مَحْيا mahya تدل دلالة خاصة على اللوحات المضيئة التي تُزيِّنُ بها مآذنُ الجوامع الكبيرة في ليالي رمضان، وتُعلَّق على المساجد الصغيرة أيضاً ترحيباً بقدوم هذا الشهر المبارك. بل إن هناك من الجوامع والمساجد التي تنقل ذلك الترحيب إلى الداخل، ما يدل على الاهتمام الشعبي بقدوم شهر الفضائل. ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أيضاً أن اسم رمضان مستخدم إطلاقه بكثرة على الذكور من مواليد رمضان، كما هو الشأن أيضاً في استخدام اسم صائم saim للذكور وصائمة saime للإناث.



أحد مساجد تركيا وقد بدت على سقفه نقوش بديعة

وكما سبق بيانه فإن الأدب التركي ثري بأنواع القصائد التي يطلق عليها الرمضانيات، التي تصور مظاهر الحياة الاجتماعية في هذا الشهر، وما كان يسوده من عادات وتقاليد. ويبدأ ظهور هذه الرمضانيات (الأشعار الرمضانية) من القرن السادس عشر الميلادي. ويتمثل أبهى صورها في شعراء القرن الثامن عشر الميلادي، من أمثال: ثابت (١١٢٤هـ/١٧١٢م)، وناظم (١٧٢٦م)، ونديم (١٧٣٠م)، وفاضل الأندروني (١٨١٠م)، وواصف الأندروني (١٨٢٤م).. وعلى الرغم من وجود الأشعار التي تتحدث عن شهر رمضان وعن الصوم، وعن الأبيات التي استخدم فيها الشعراء مختلف العناصر بهذه المناسبة؛ إلا أنه يصعب العثور على الأشعار المستقلة ذات الأبيات الطويلة للشعراء العثمانيين ما عدا إفطارية راغب باشا (٦). ومما نلمسه في شعر الشاعر ثابت الذي استهل مديحه للصدر الأعظم بالطه جي محمد باشا (عام ١١١٢هـ) بوصف مظاهر الاحتفال برمضان قائلاً:

لقد ذُهّبت اللوحات المضيئة صفحة الحسنات
وكأن صناع القناديل ينشرون الذهب،

من أبرز مشاهد الاهتمام بليلة القدر إطلاق اسمها على الذكور والإناث. فاسم قدري للذكور وقدرية للإناث. دليل واضح على مكانة ليلة القدر في قلوب أفراد هذا المجتمع. الذي نظم بعضُ شعرائه أبياتاً خاصة بتلك الليلة الفضيلة

يبدو كل جامع وكأنه جرن وفيه مكاييل،
طفحت إشراقاً ونورًا

وينتقل الشاعر من هذا الاحتفاء الخارجي إلى الحفاوة المعنوية برمضان داخل قلوب المؤمنين، وقد غَمَرَها نور من الإيمان:

عُمِّرت المساجدُ كقلوب المؤمنين
وخوت الحاناتُ على عروشها كقلوب الفاسقين (٧).

ويصور الشاعر نديم المعاصر للسلطان أحمد الثالث والمفتون بالفن والجمال، رؤية هلال رمضان فجأة على غير متوقع، فيقول:

ثبتت أي رؤية الهلال على حين غرة والإمام في فراشه
قام إلى التراويح بعد أن كان غارقاً في نومه
أما المستعدون ليوم الشك من الأحباب الكرام
فقد كانوا حتى وقت الظهر نيام
ها قد حل شهر الصيام قبل ميعاده بيوم
فبعث الدفءَ في الأوصال الباردة لتلك الأيام..

ويقول نديم أيضاً في صفات الشهر الكريم:

يتجلى الجمال مع مطلع شهر الصيام
بدت قامات الصائمين متخذة شكل الهلال
فالتوبةُ مئةُ توبة لأن ذلك الشهر
مباركٌ نزلت فيه من وحي الحق آيات الكتاب

كلما أضاء دياجيرَ الظلام في الأرجاء
أشرق صباحُ الإقبال مشرق الضياء (٨).

وقد عَدّ بعض الشعراء المحدثين المخضرمين (الذين عاشوا في العصر العثماني والتركي) قدوم هذا الشهر المبارك فرصة، للحديث عن الوضع المزري للبلد، داعين الله تعالى بهذه المناسبة المباركة أن يخلص البلاد والعباد من المآسي والمنغِّصات، من أمثال: توفيق فكرت، ومحمد عاكف، ويحيى كمال. ومن ذلك ابتهال الشاعر محمد عاكف لربه بقوله:

يا رب، بحرمة رمضان المعظم هذا،
ارفع عنا كل حائل يقف أمام وحدتنا،
يا رب، نجِّنا من الفرقة التي امتدت عصوراً وأزمانا،
حتى لا تعاني الأمةُ اليأس والحَزَنا،
ما دمتَ منحتنا روحاً جديدة،
يا رب، أنزل علينا من تأييدك نفحات جديدة (٩)

وما كنا نلمسه في الأدب العثماني والتركي من أشعار خاصة بشهر رمضان المبارك، متداول بين الشعراء العثمانيين ورجال الدولة، نرى صورها اليوم منتشرة بين أفراد المجتمع في تركيا من خلال الرسائل البريدية على الشبكة العنكبوتية، والهواتف النقالة، وكذلك قصائدها المعروفة بقصائد أو أشعار

على الرغم من وجود الأشعار التي تتحدث عن شهر رمضان وعن الصوم. وعن الأبيات التي استخدم فيها الشعراء مختلف العناصر بهذه المناسبة: إلا أنه يصعب العثور على الأشعار المستقلة ذات الأبيات الطويلة للشعراء العثمانيين ما عدا إفطارية راغب باشا



تكثر تلاوة القرآن في رمضان

رمضان ramazan manileri. كما أن هناك الكثير من الصور الأدبية مثل المقالات وكتب الذكريات. إضافة إلى الصحف المحلية التي تقوم بدور بارز بهذه المناسبة؛ لا لنشر مقالات موسعة عن فقه رمضان فحسب؛ بل توزيعها بهذه المناسبة للكثير من الكتب الدينية القيمة بشكل مجاني. مما يدل على أن تلك الفنون الأدبية تشكِّل ما يمكن تسميته بالثقافة الرمضانية في الأدب الشعبي في تركيا. مثل:

الليلة أول الشهر bu gece ayin evveli

تتفتَّح ورودُ الإسلام aCildi islamin gülü

قَدِم رمضان المبارك geldi mübarek ramazan

أسَرَّ النفس واللسان mesrur etti can-u dili

ومن ذلك أيضاً:

يجب احترام الشهر bu aya hürmet gerek

والنعمة تتطلب الشكرا nimete sükür gerek

والعبادة ملزِمة تجاه ربي mübarek ramazanda

في هذا الشهر الفضيل والقدسِ hakka ibadet gerek

ومنها:

أدركْنا رمضانا kavustuk ramazana

وهو كبير الإحسان hem de büyük ihsana

الصوم في هذا الشهر bu ayda oruC tutmak

يُنعش الإنسانا huzur verir insana

ومنها:

مهما كثُرت ذنوبك في البرايا günahin olsa yigin

التجئ إليه مرة أخرى yine de ona sigin

فإن رحمة ربي gazabindan fazladir



جماعة تؤدي الصلاة في إحدى الزوايا

قد سبقت غضبَه rahmeti rabbimin

ومنها:

انظر جاء المحشي باللحم bak geldi etli dolma

لا تأكل كثيراً تضرُّ بالبطن Cok yiyip gobek salma

اشرب عليه فنجاناً من القهوة üstüne bir kahve iC

صلاة التراويح لا تتأخر عنها teravihe geC kalma

وقد اهتم العثمانيون بالمناسبات والأعياد الإسلامية، وكان لرمضان النصيب الأوفر. فكان الوالي العثماني - في بعض الولايات العثمانية - يُهدي إلى جميع الأمراء وغيرهم من الموظفين وكبار القوم وأسرهم في غرة رمضان أطباقاً مملوءة بأفخر أنواع الحلوى، وفي وسط كل طبق صرة، بها نقود ذهبية حتى تعم البهجة سائر كبار الدولة (١٠).

وقبل حلول هذا الشهر بعدة أيام يتم في معظم المدن التركية توزيع الإمساكيات، التي توضح مواعيد الإفطار والسحور، ومواقيت الصلاة والإمساك.

وكانت المساجد في العصر العثماني ومازالت في العصر الحديث وفي شهر رمضان المبارك على وجه خاص تمتلىء بالمصلين بين عابد وخاشع وراكع وساجد، كلهم يذكرون الله تعالى، ويشكرونه أن بلَّغهم هذا الشهر الفضيل. وظاهرة إنارة مآذن الجوامع المنتشرة في تركيا من صلاة المغرب حتى الصباح الباكر، تلاحظ بشكل واضح مع بدء أيام شهر رمضان المبارك. وهذا المظهر الذي يسمى بمحيا(١١) - كما سبق - يعبر عن الفرحة والبهجة بحلول سلطان الشهور في المجتمع التركي. وتَصحبُ تلك الظاهرة

ظاهرة أخرى هي أيضاً من نفحات هذا الشهر الكريم، ألا وهي صلاة التراويح التي تتمتع بحب عظيم، واحترام كبير عند أفراد المجتمع. فبعد تناول طعام الإفطار يهرع الأطفال والشباب والنساء والرجال ناحية الجوامع والمساجد، لحجز الأماكن في صلاة العشاء، ومن بعدها صلاة التراويح التي تتم على المذهب الشافعي في جنوب شرق تركيا، وعلى المذهب الحنفي في المناطق الأخرى. ويقوم أهل الخير بتوزيع الحلوى على الأطفال المشاركين في صلاة التراويح عقب انتهائها. ومما يجدر ذكره هنا أن الترحيب بهذا الشهر الفضيل، يستمر حتى النصف الأول منه، بينما الأسبوع الأخير مخصص لوداع هذا الشهر المبارك، والذي يتلى بصوت مرتفع بشكل جماعي، حيث ترتفع الأصوات بدعاء عربي «الوداع، الوداع يا شهر رمضان المبارك الوداع»، وتختلط تلك الأصوات بدموع الحزن لفراق شهر رمضان، الذي تشهد الليلة السابعة والعشرون منه احتفاءً خاصاً بختم القرآن الكريم في الجوامع الكبيرة والمساجد. وتشهد هذه الليلة أيضاً من الملتزمين إحياءً خاصاً بقراءة القرآن، وتلاوة الأدعية إلى صلاة الفجر، بعدّها ليلةَ القدر. وتنقل تلك المشاهد الاحتفالية على الهواء مباشرة عبر قنوات التلفاز.

ومن أبرز مشاهد الاهتمام بهذه الليلة المباركة إطلاق اسمها على الذكور والإناث. فاسم قدري للذكور وقدرية للإناث، دليل واضح على مكانة ليلة القدر في قلوب أفراد هذا المجتمع، الذي نظم بعضُ شعرائه أبياتاً خاصة بتلك الليلة الفضيلة. من ذلك:

يسرُّ العالمُ كله، Cümle alem mesrur olur

مظاهر الاحتفاء بهذا الشهر الفضيل تختلف من مكان إلى آخر. فكل شعب لديه من العادات والتقاليد الحسنة المتوارَثة التي يستقبل بها شهر رمضان. مما يضفي عليه طابعاً من التميز

بات من الأمور المتبعة في العاصمة العثمانية إستانبول أن يُبقي رجال الدولة والأعيان والأثرياء أبواب قصورهم مفتوحة على مصاريعها في هذا الشهر المبارك. لاستقبال الصائمين للإفطار

أحد أشهر جوامع تركيا





تزداد المساجد زينة في رمضان

وتُغفر للعبد ذنوبُه، Hep günahlar ma?fur olur

يمتلىء بالنور أرجاؤه، Cümle yer-g?k pür-nur olur

ليلة القدر المباركة Mübarek kadir gecesi

وقد أورد بعض المصادر العثمانية والتركية معلومات تاريخية مهمة عن كيفية قضاء ليلة القدر المباركة في جوامع إستانبول، والجامع الذي يُحيِي فيه السلطان العثماني هذه الليلة الفضيلة، والاحتفال الذي كان يقام بهذه المناسبة من كل عام (١٢).

ومنذ عقدين من الزمان - تقريباً - أصبحت من المظاهر الرمضانية إقامة معرض للكتب الدينية في المدن الكبيرة، مثل: إستانبول، وأنقره، تبدأ بالأسبوع الثاني من هذا الشهر، وتستمر حتى نهايته. ترعاه هيئة الشؤون الدينية بالتنسيق مع وزارة الثقافة. وتبدأ أنشطة المعرض بعد صلاة المغرب من كل يوم، ويتوافد الآلاف، رجالاً ونساءً، في مدينة إستانبول على ميدان السلطان أحمد، لأداء صلاة العشاء وصلاة التراويح، ثم يتجولون في معرض الكتب الدينية المقام في الصحن الداخلي للجامع، وعلى هامش المعرض نفسه يقام معرض آخر يتعلق بفنون الخط العربي والتذهيب، وهما من الفنون الإسلامية الشهيرة عند الأتراك. أما المطبخ التركي فهو مشهور بوجباته وأطباقه. وأعتقد أنه ليس هناك شعب يجاري الشعب التركي في كثرة أطباقه وتنوعها. وفي هذا الشهر الكريم تضاف إلى تلك الأطباق أنواع أخرى من الأكلات الشعبية الخاصة بهذه المناسبة الكريمة، مثل: كعك رمضان، والحلوى التركية الخاصة به، والكُبة النية، التي توضع على



المائدة الرمضانية عامرة دائماً

موائد الإفطار. وهناك بعض المناطق - ومنها المنطقة التي ينتمي إليها الباحث: جزيرة ابن عمر، في جنوب شرق تركيا - لا تعرف الكبة النية إلا في رمضان. وتقوم الأفران والمخابز في شهر رمضان بعمل خبز خاص لا يُرى إلا في شهر رمضان، ويسمى بيده pide وهو نوع من الخبز المستدير بأحجام مختلفة، ويباع بسعر أغلى من سعر الخبز العادي. ولما كانت هذه الفطائر خاصة

والحقيقة أنه قد دخل كثير من المصطلحات الخاصة بهذا الشهر من اللغة العربية إلى اللغة التركية. وعلى رأسها اسم الشهر: رمضان ramazan **والسحور** sahur **والإفطار** iftar **والتراويح** teravih **والاعتكاف** itikaf **وليلة القدر** kadir gecesi **وزكاة (صدقة) الفطر** fitre sadakas? **والإمساكية** imsakiye

بشهر رمضان، فإن الأطفال يقفون في صفوف طويلة قبل موعد الإفطار بقليل، للحصول على الفطائر الطازجة. وتعدّ الكنافة والجلاج (الكليجة) güllaC والبقلاوة من أبرز أنواع الحلويات التي يقبل عليها الأتراك في شهر رمضان.

وقد أصبح للإفطار في العرف العثماني عاداته وتقاليده المتبعة. والحقيقة أن البحث في وثائق الأرشيف العثماني، ولا سيما تصانيف دفاتر المالية والمصروفات، يساعد على فهم ما كان يجري في تلك الفترة من أمور رمضانية. فمع اقتراب شهر رمضان كان يتم جلي القدور في القصر، وإعداد المواد الغذائية اللازمة والمواد الخامة التي تحتاج إليها صناعة الحلويات. وبات من الأمور المتبعة في العاصمة العثمانية إستانبول أن يُبقي رجال الدولة والأعيان والأثرياء أبواب قصورهم مفتوحة على مصاريعها في هذا الشهر المبارك، لاستقبال الصائمين في الإفطار. وإضافة إلى ذلك فقد كانوا يقدمون إلى الفقراء منهم النقود بعد الإفطار. كما أصبح من الأمور المعتادة في إستانبول أن يَتوجه الصدر الأعظم في الليلة السابعة والعشرين المعروفة في تلك الأوساط بأنها ليلة القدر، إلى قصر شيخ الإسلام؛ للإفطار فيه (١٣). وهناك بعض المعلومات عن الإفطار في منازل الأعيان، أوردها ابن الكمال في كتابه «الصدور العظام الأواخر» (١٤). وبعض العادات المتبعة في استقبال الضيوف في الإفطار.

وكان إعداد موائد الرحمن لإفطار الصائمين يقام داخل القصور والمباني. ولم تأخذ هذه الظاهرة شكلاً علنياً أو النزول إلى الشوارع والساحات العامة إلاّ على أيدي رؤساء البلديات من حزب الفضيلة. فقد أصبحت البلديات الآن ومنذ عام ١٤١٥هـ/١٩٩٥م - ولا سيما في المدن الكبيرة مثل إستانبول وأنقره -، تخصص أماكن معينة في مختلف الأحياء لإفطار الصائمين. بل إنها لا تكتفي بذلك وإنما تخصص سيارات شحن كبيرة كمطاعم متنقلة، لتوزيع الأكل الساخن على المحتاجين من أفراد المجتمع، وهم في منازلهم. وكثير من تلك البلديات - حتى في المدن الصغيرة - تقدم مساعدات مادية، ومؤن غذائية للفقراء بهذه المناسبة الإسلامية الفذة، مما يعكس صورة رائعة من التكافل الاجتماعي، الذي يدل على أن المجتمع مازال بخير.وامتثالاً لقوله ﷺ «الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماءُ النارَ» (رواه الترمذي وصححه) (١٥) فإن الأغنياء الملتزمين أمور دينهم يقومون في هذا الشهر الكريم بتوزيع الزكوات والأموال على الفقراء. وقد لمست منذ عدة سنوات أن كثيراً من أصحاب المال من الرجال والنساء في مدينة إستانبول - ممن لا يدل مظهرهم العام على التزام التدين - ينظمون موائدَ رمضانية كبيرة، ويهدون ثوابها لأمواتهم؛ وذلك ليدل دلالة واضحة على مكانة هذا الشهر الكريم في نفوس المجتمع المسلم في تركيا. ومما لابد من ذكره هنا أيضاً من مظاهر التزام الصوم في حافلات النقل العام، أو السفن العاملة بين شطري

وما كنا نلمسه في الأدب العثماني والتركي من أشعار خاصة بشهر رمضان المبارك، متداول بين الشعراء العثمانيين ورجال الدولة، نرى صورها اليوم منتشرة بين أفراد المجتمع في تركيا من خلال الرسائل البريدية على الشبكة العنكبوتية


هلال رمضان

إستانبول في شهر رمضان المبارك، أن الإمام ما إن يرفع صوته بالأذان لصلاة المغرب، حتى تبدأ حركة في داخلها، حيث يقوم السائق أو بعض الركاب بتوزيع التمر على الآخرين امتثالاً لقول النبي ﷺ «ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله».

أما مظاهر العيد، فمشاهده قبل انتهاء هذا الشهر بعدة أيام. فمن جهة تقوم دوائر البلدية - ولا سيما في المدن الصغيرة - بتزيين الشوارع والميادين، وتحديد مكان مخصص للألعاب التقليدية للأطفال، للمشاركة بأفراح العيد. ومن جهة أخرى يحاول الموظفون في الدوائر الحكومية والشركات التوجه إلى مدنهم في أقاصي الأناضول، لقضاء العيد بين الأهل

المراجع والهوامش

- الأدب التركي الإسلامي/محمد عبد اللطيف الهريدي.- الرياض: جامعة الإمام، إدارة الثقافة والنشر، ١٤٠٧هـ.- إسعاف أهل الإيمان/حسن محمد المشاط.- ط. ٤- (د م ن)، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
- بستان رمضان/محمد مبارك.- الرياض: جمعية الثقافة والفنون، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٤١.
- رمضان وتقاليده الدمشقية/منير كيال.- دمشق: دار الحياة، (د ت).
- Bekci Baba: Ramazan Fasillari/Hazirlayan M.Sabri Koz.- Ist. Kitabevi, 1998.
- Binbir Gun Binbir Gece:Osmanlidan Gunumuze Istanbul'da Eglence Yasami/Necdet Sakaoglu, Nuri Akbayar.- Ist.: Denizbank, 1999.
- Bir Ramazan Binbir Istanbul/Suheyl Unver; yayina hazirlayan Ismail Kara.- Ist.:Kitabevi, 1997
- Eski Istanbul Ramazanlari/Halit Fahri Ozansoy.- Ist.: Inkilap ve Aka kitabevleri, 1968.
- Iftar/Kemal Beydilli {Islam Ansiklopedisi/TDV}.- Istanbul: TDV, 2000.: 21/518-520- Kadir Gecesi/Mustafa Uzun {Islam Ansiklopedisi/TDV}.
- Istanbul: TDV, 2001.: 24/125-127
- Ramazan Fikralari.Ist. Ali Dayi nesriyat, 1949.
- Ramazan Fikralari/Cemal Anadol.Ist. Sabah yay. 1986
- Ramazan Geldi Hos Geldi/Ahmet Esad Ben'im.Ist.Yeni Sark -kutuphanesi, 1949.
- Ramazan Hediyesi/Ahmet Hamdi Akseki.Ist.1937
- Ramazan Kitabi/Hazirlayan Ozlem Olgun.- Ist.: Kitabevi, 2000
- Serhiyle Beraber Ramazan Duasi.Ist. Yusuf Ziya kutuphanesi, 1932
- Son Sadrazamlar/Ibnulemin Mahmut Kemal Inal.- 3.baski.
-Istanbul: Dergah yay.1982
- Türk Dili ve Edebiyat? Ansiklopedisi. ?stanbul: Dergah yay. 1979-1986.

١. ورقة بحث القبيت في ندوة عن أدب الشعوب الإسلامية في النادي الأدبي بالرياض ١٠ رمضان ١٤٢٤هـ/٤ نوفمبر ٢٠٠٣م.

٢- بستان رمضان/محمد مبارك.- الرياض: جمعية الثقافة والفنون، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٤١.

٣. أورد فيما يلي نماذج من تلك المواقع، الخاصة بشهر رمضان المبارك باللغة التركية

http://www.turkiye.net/ramazan/rm982.htm
http://www.turkcommunity.com/tr/ramazanarsiv.html
http://www.enfal.de/ram11.htm
http://www.diyanetvakfi.dk/Ramazan.htm
http://www.doktordanhaber.com/roportaj.asp
http://www.kelamullah.com/aa51.htm
http://www.mihenk.gr/arsiv/8/ramazan.htm
http://www.wakeup.org/anadolu/06/1/istanbul.html
http://www.tevhid.net/ramazan/ayetlerle.htm
http://www.teblig.de/hadith/tuerkisch/hadithe/hadis%206990/6480.htm
http://ditib.free.fr/rama.htm
http://www.hilafet.com/beyan/1998/kadir_gecesi.htm
http://www.abi01.de/kainat/dualar/dualar.htm

والأقارب؛ مما يجعل على وسائل النقل من خطوط السكك الحديدية والحافلات والطائرات ضغطاً شديداً، يستمر بعد العيد أيضاً بفترة. ومما يجدر ذكره هنا من المظاهر الرائعة للبلديات في بعض المدن الكبيرة التي فاز برئاستها حزب الفضيلة، أن خصصت حافلات النقل الجماعي داخل المدن مجانية طوال أيام العيدين المباركين.

وكان حاملو الطبول المعروفون باسم المسحراتية ممن يدورون على المساكن في أحياء المدن؛ لإيقاظ الناس على السحور، يتغنون بقصائد شعبية مقتبسة من كتاب يعرف بـ فهرس بكجي بابا (أي فهرس بابا الحارس) (١٦). وهؤلاء المسحراتية يدورون على البيوت مع صبيحة يوم العيد لاستلام هدية العيد من نقود ومواد غذائية متنوعة، كما جرت العادة في جزيرة ابن عمر، التي عرفت باهتمام بارز بمظاهر العيد التي تتكرر في العيدين المباركين: عيد الفطر وعيد الأضحى، ومشاركة الأطفال بفرحة العيد، وهم بأجمل الحلي، وأفخم الملابس، وأبهى صور الجمال والفرح (١٧).

وأخيراً فإن الأدب الشعبي في تركيا، ثري بمعلومات كثيرة عن رمضان، وعن ثقافة رمضان وحضارته، ولولا خوف الإطالة لأمكن نقل المزيد منها. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وأشكركم على الحضور وحسن الاستماع.

---

http://www.kestel-bld.gov.tr/html/sozde_degil.htm
http://www.sandikli.com/gelenek.asp
http://www.la-ilahe-illallah.com/sav/p15.html
http://www.kelamullah.com/aa51.htm
http://www.delikan.de/kartresimleri/tebrikler.html
http://www.dinvekitap.com/
http://www.sariyahsi.net/Din_ve_D_/ibadetler/Allahin_adl/cocuklar/bicare_g/body_orucnedir.html
http://www.teblig.de/hadith/tuerkisch/hadithe/hadis%203990/3100.htm
http://www.ilkadimdergisi.com/183/kapak-roportaj.htm
http://members.tripod.com/~hocam/ramadhan_ana.htm
http://www.turkcommunity.com/tr/ramazan/orucramazan.html
http://www.beytullah.net/oruc2.html4

٤. انظر على سبيل التمثيل العناوين الآتية:

Serhiyle Beraber Ramazan Duasi.Ist. Yusuf Ziya kutuphanesi, 1932Ramazan Hediyesi/Ahmet Hamdi Akseki.Ist.1937

Ramazan Geldi Hos Geldi/Ahmet Esad Ben'im.Ist.Yeni Sark kutuphanesi, 1949.

Ramazan Fikralari.Ist. Ali Dayi nesriyat, 1949

.Ramazan Fikralari/Cemal Anadol.Ist. Sabah yay. 1986

5- Bir Ramazan Binbir Istanbul/Suheyl Unve: yay. Ismail Kara.- Ist. Kitabevi, 1997

6- Türk Dili ve Edebiyat? Ansiklopedisi. ?stanbul: Dergah yay. 1979 -1986.: 7/2757

٧. الأدب التركي الإسلامي/محمد عبد اللطيف الهريدي.- الرياض: جامعة الإمام، إدارة الثقافة والنشر، ١٤٠٧هـ، ص ١٢٢ نقلاً عن: رمضان في الشعر العربي والفارسي والتركي/حسين مجيب المصري. القاهرة: ١٩٦٤م، ص٦٢.

٨. المرجع السابق، ص ١٢٤-١٢٥.

9- Türk Dili ve Edebiyat? Ansiklopedisi: 7/276

١٠. رمضان وتقاليده الدمشقية/منير كيال.- دمشق: دار الحياة، (د ت)، ص ٥٠.

١١. للتفصيل في هذا انظر:

Bir Ramazan Binbir Istanbul/Suheyl Unver; yayina hazirlayan Ismail Kara.-.Ist.:Kitabevi, 1997.p. 44

12- Kadir Gecesi/Mustafa Uzun {Islam Ansiklopedisi/TDV}.- Istanbul: TDV, .2001.: 24/125-127

13- Iftar/Kemal Beydilli {Islam Ansiklopedisi/TDV}.- Istanbul: TDV, 2000.: -.21/518-520

14- Son Sadrazamlar/Ibnulemin Mahmut Kemal Inal.- 3.baski.-Istanbul: Der- -gah yay.1982: 2/1112-1113

١٥. إسعاف أهل الإيمان/حسن محمد المشاط.- ط. ٤- (د م ن)، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص ٣٩.

١٦. نسبة إلى الحراس والعسس الذين كانوا يتغنون بتلك القصائد لقضاء ليلتهم في الحراسة..

Turk Dili ve Edebiyati Ansiklopedisi.Dergah yay. Ist. 1986: 226-227

17. وإضافة إلى المراجع التركية السابقة ينظر في هذا الموضوع:

Bekci Baba: Ramazan Fasillari/Hazirlayan M.Sabri Koz.- Ist. Kitabevi, 1998.

Eski Istanbul Ramazanlari/Halit Fahri Ozansoy.- Ist.: Inkilap ve Aka kitabevleri, 1968.

Ramazan Kitabi/Hazirlayan Ozlem Olgun.- Ist.: Kitabevi, 2000Binbir Gun Binbir Gece:Osmanlidan Gunumuze Istanbul'da Eglence Yasami/Necdet Sakaoglu, Nuri Akbayar.- Ist.: Denizbank, 1999.





العالم ومآزقه بين الأيديولوجيا والتداول

يوسف بن عدي
مراكش ـ المغرب

«لسنا على ثوابتنا كما ندعي؛ لأن علاقتنا بها لا تنفك عن الزحزحة والإحالة والتبدل والتغير، سلبًا أو إيجابًا، فإما أن نتغير من حيث لا ندري لكي نولد التراجع والفقر والهامشية، وإما بالعكس أن نبادر إلى التغير، عن تعقل وتدبر على سبيل الغنى والنمو والفعالية. وهذا هو الرهان أن نتحول عما نحن فيه، لا لكي ننسلخ من خصوصيتنا وتراثنا، بل لكي نقيم معها علاقات حية ومتحركة، متجددة ونامية، مثمرة وراهنة». «الكتاب: أزمنة الحداثة الفائقة: الإصلاح - الإرهاب - الشراكة، علي حرب، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، ٣٠ صفحة ».

أولاً: نحو تأسيس عقل تداولي

اعلم أن علي حرب قد انفرد دون غيره، في المشهد الثقافي العربي، باجتراح توجه نقدي، ومنحى وجودي مدجج بشبكة من العلاقات المفاهيمية النظرية والفلسفية ذات مرجعيات متباينة ومشارب مختلفة: من تواصلية تداولية وتفكيكية وتأويلية وسيميولوجية وفينومينولوجية.. وقد استثمر الكاتب هذه العدة الخلاقة في نقد المشروعات الفكرية والفلسفية العربية الكبرى، من نقد العقل العربي لمحمد عابد الجابري، ونقد العقل الإسلامي لمحمد أركون، ومشروع التراث والتجديد لحسن حنفي، وفقه الفلسفة لطه عبدالرحمن.. استطاع هذا الرجل برؤيته النقدية بيان أن النص الفلسفي هو نص خصب وثري بدلالته وأسمائه ومقولاته وبياضاته، ففيه من الحجب وعدم التفكير أكثر مما فيه من الإفصاح والبيان، وفيه أيضًا من الألاعيب السيميولوجية والآفاق التأويلية أكثر مما فيه من أحادية المعنى، وفصل القول، وتطابق المفهوم مع هويته.

وهكذا فقد تمكن هذا الناقد اللبناني من تأسيس ما سماه بـ «العقل التداولي» أو «المجتمع التداولي»، سواء في هذا

علي حرب

أزمنة الحداثة الفائقة

الإصلاح ـ الإرهاب ـ الشراكة



المركز الثقافي العربي

أزمنة الحداثة الفائقة

الإصلاح - الإرهاب - الشراكة

المؤلف: علي حرب

الطبعة: الأولى

التاريخ: ٢٠٠٥م

النص، أي: «أزمنة الحداثة الفائقة» ٢٠٠٥م، أو في كتاب «العالم ومأزقه» ٢٠٠٢م، أو على طول مسار كتابته الفلسفية والنقدية.

إن إستراتيجية التفكير النقدي عند علي حرب هي إستراتيجية تتأسس على القراءة المتحولة والتداولية ذات الرؤية الحداثية لمفهوم النص، التي تستمد دعامتها من علم النص والتأويليات والتفكيكيات.. هذه الأخيرة التي يتشكل النص من خلالها «على سبيل النسخ والاختلاف أو الزحزحة والإحالة أو المجاز والاستعارة» (١). دون الانغلاق في الرؤية الكلاسيكية للنص من حيث الزحزحة والإحالة أو المجاز والاستعارة» دون الانغلاق في الرؤية الكلاسيكية للنص من حيث إنها تقدم له معاني واضحة، ودلالات صريحة، ومفاهيم لا التباس فيها. وقد يلامس ذلك من يتصفح كتابات علي حرب من خلال مداخلات ١٩٨٥م، والتأويل والحقيقة ١٩٩٥م، ونقد النص ٢٠٠٠م، ونقد الحقيقة ٢٠٠٠م، وحديث النهايات ٢٠٠٤م، وغيرها من النصوص القوية التي ساهمت في ترسيخ خريطة النقد ومرتكزاته في الفكر الفلسفي العربي المعاصر.

إن عقل التداول إنما يشتغل «بحسب المنطق التحويلي بقدر ما يستخدم النقد التفكيكي من حيث التعامل مع الأصول والثوابت أو مع المعطيات والأدوات.. هو فعل تفكيك وتحويل للمقولات والهويات بصورة تتغير معها بنية الفكر، وجغرافية المعنى بقدر ما تتغير نية الواقع وخريطة القوة. أعني أن الأفكار والأحداث، أو التصورات والمجريات ليست هي صورة أو مرآة صادقة عن الواقع، وإنما هي «واقعة تختزن إمكاناتها، أي طاقة خلاقة تحتاج إلى الصرف والتحويل، بحيث إن من يطلقها أو يتداولها يغير بها ويغير سواه، ويسهم في إغنائها وتطويرها أو تغييرها بقدر ما يعمل على تحويل علاقته بالواقع، ويسهم في تغيير صورته على

صعد مختلفة ومتعددة». وهكذا فإن تأسيس عقل تداولي خلاق من قبل الكاتب إنما دفعه إلى الإقرار بأن مساهمته في ذلك «غير مسبوقة عربيًا أو عالميًا من حيث صياغة مصطلح «العقل التداولي» أو من حيث معالجة الطرح التداولي بوجهيه تحليلاً وتركيبًا لفكرة التداول أو لتداول الفكرة». غير أن هذا الزعم فيه من المبالغة أكثر مما فيه من التواضع حيث ينتهك شعاره «لنكن أقل ادعاء وأكثر تواضعًا؛ أي: أقل يقينًا وتملكًا، وأكثر نسبية وذرائعية من علاقاتنا بالقيم والحقوق والحريات»، بل إن هذا الزعم والادّعاء إنما يحجب عنه تراكمات فلسفية ومنجزات فكرية هائلة، من تواصلية هابر ماس، وتفكيكية دير يدا، وفينومينولوجية هوسرل، وميرلوبونتي، بل أكثر من ذلك فإن هذا الرجل إنما يستثمر نصوصًا فكرية قوية دون الاعتراف بأنها تنخرط في كتابة نصه بناءً وتركيبًا مثل: أولريش لك «مجتمع المخاطرة» ٢٠٠١م، وجان بيا دوبوي «نحو معالجة مستنيرة للكوارث» ٢٠٠٢م، أو الأزمة النهائية ٢٠٠٣م لـ ألان تورين، وغيرها من الفلسفات والتصورات والمقولات أو المفاهيم التي ندمجها في ذواتنا، ونسخرها لمصالحنا كي ننسبها إلى أنفسنا، أولكي نبشر العالم بفتوحاتنا، وكان النص الذي نكتبه لا يحمل آثارًا لنصوص الأوائل والمتأخرين.

إن هذا الادعاء من قبل حرب لا ينفي قوة ممارسته النقدية الفعالة والخلاقة، هذا التوجه الوجودي الذي استثمره في تشخيص الواقع العربي والإسلامي، وملامسة المآزق الحائلة دون تقدمه ونهضته.. بل إن عقل التداول لديه قد أتاح قوة في فضح الثنائية الخادعة والمزيفة التي تتداول في العالم العربي والإسلامي برمته؛ أي: ثنائية الداخل والخارج. في الوقت الذي صارت فيه الأزمة هي أزمة عالمية ووجودية «تمس عناوين الوجود بقدر ما تطال كل المجتمعات والثقافات». وهذا ما دفع حرب إلى نقد العقليات المقفلة، والإيديولوجيات المفلسة، والتصورات الأصولية المرتدة التي لم تعد «تجدي في إدارة العالم بما هو سائد من العقليات والمقولات أو المدارس والإستراتيجيات، سواء من جانب العقل الأصولي، أو من قبل صاحب المنزع الإمبراطوري، أو من جهة المثقف النخبوي». لذا فالتنمية والديمقراطية وحقوق الإنسان والتحديث في العالم العربي إنما تتطلب النظر إليها برؤية شمولية ذات بُعد أنطولوجي لا بعقلية إيديولوجية واهية أو بمنطق حداثي ساذج. وبهذا نتمكن، حسب رأي علي حرب من الانخراط في «المراجعة النقدية ارتدادًا على الذات والأفكار أو على العناوين والثوابت، قديمها وحديثها، لتغذيتها وتطعيمها أو لصرفها وتحويلها»، فهذا هو الرهان الذي يجب تحقيقه على أرض الواقع أي «أن نتغير لكي نغير من خلال تغذية العناوين، وتحويل المفاهيم، فلا يمكن أن نفكر ونعمل، وكأن شيئًا لم يحدث، في حين العالم يتغير بمشهده ونظامه وأدواته، كما يتغير بأفكاره وقواه وروابطه»، بعيدًا عن التمييز بين المحلي والكوني، أو بين الأنا والآخر، أو بين العالم العربي والعالم الغربي في اللحظة التي لم يعد فيها هذا الفرق على الصعيد الوجودي والتاريخي.

وعليه فإن رهانات الإصلاح وتحدياته في العالم العربي إنما يشترط فيه تكاثف الجهود، وتعاون الفاعلين والشركاء فيما بينهم وفق تحولات بنيوية أو تفاعلات دينامية «لبناء مجاله وبلورة صيغة أو اجتراح أدواته وترتيب حلوله». وهذا لا يتم إلا عبر بناء ثقافة مضادة ومراجعة نقدية لذواتنا وأوهامنا حولها وهيمنة الآخر وخطورته، وعقلية المؤامرة والإدانة.. كل ذلك يجعلنا بلغة التداول والتركيب من فضح

إن قوة لغة التداول والتركيب إنما تتيح لنا تشخيص الأزمات والمآزق وتحويلها نحو التجاوز وابتكار الحلول

ألاعيب الخطابات الإيديولوجية، والشعارات التنموية الفاشلة نحو بناء الاختلاف والفاعلية والمساهمة بحماسة عقلانية في صناعة الحداثة وتحولاتها ومتغيراتها.

ثانيًا قوة الأسئلة الوجودية

إن قوة لغة التداول والتركيب إنما تتيح لنا تشخيص الأزمات والمآزق وتحويلها وتصريفها نحو التجاوز وابتكار الحلول. لقد تردد على كثير من الصحف والمجلات العربية والأجنبية معضلة الإرهاب وتداعياته، فمنهم من رأى أن من أسبابه تدهورًا اقتصاديًا واجتماعيًا، ومنهم من رأى أن علله كائنة في الهيمنة الأمريكية ومنزعها الإمبراطوري نحو استغلال موارد العرب وثرواتهم. بينما يعتبر حرب أن معضلة الإرهاب وجذوره تتجلى فيما «نبشر به، ونروج له، وندافع عنه من شعائر أو من قضايا وشعارات. وإذا شئنا الخروج من المأزق فعلينا أن نتخلى عن نرجسيتنا، وأن نعود إلى رشدنا، بحيث نعيد الأمور إلى نصابها، لكي نفكر ونتصرف، أو نعقل ونبرر بوصفها جماعة من الناس أو أمة وسط الأمم لا أكثر ولا أقل، لا أفضل ولا أدنى»، ومن هنا فقد شخص الكاتب أزمة الإرهاب وأسبابه في العالم العربي من وجهة نظر وجودية ذات بُعد كلي، وبرؤية تداولية تحويلية، ويظهر لنا ذلك من خلال هذه التساؤلات العميقة، وهي كما يأتي: لماذا تتحول الصحوة الإسلامية إلى تجربة ظلامية معتمة؟ لماذا تتقلب الحقوق التي نرفعها وندافع عنها إلى هدر، وكيف يتحول الغزو الذي نقاومه بشراسة إلى ضعفنا ومزيد من الفقر والهامشية؟ أو لماذا يتحول الجهاد الذي نعلنه يخدم الغير حليفًا كان أم عدوًا» لماذا تصير الأمة التي ندعي بأنها خير أمة باتت في المؤخرة؟.

ومن ثمة فإن عقل التداول والتركيب إنما يساهم أيضًا في فضح مركزية الإنسان وادعاءاته العقلانية والتنويرية التي تحجب نزوعاته الوحشية، ونزواته التدميرية، وبربريته الطائشة ضد ذاته ونظيره. وهكذا فأين نحن «من همجية البدائيين، من همجيتنا الحديثة والمعاصرة، وحتى القتل يتم بأعصاب باردة، أو بأسلحة الدمار الشامل؟ أين نذهب نحن الذين ندعي العقلانية والمدنية والتقدم؟ بكل هذا الطيش والحمق والجنون الذي يلغم عقولنا، ويشهد على غبائنا؟». ومن ثمة فإن رهاننا في الإصلاح والتغيير ومكافحة الإرهاب والعنف، وابتكار الحلول للمآزق الاجتماعية والاقتصادية، لا يتم إلا عبر الاشتغال على ذواتنا وإمكانياتها وقدراتها وفتوحاتها، والمشاركة في صناعة الحداثة وفق مقولات الفعالية والإنتاجية والتداول، والتملك والتجاوز، والاختلاف والتعدد.

ثالثًا: الخروج من المآزق

فلما كان العالم العربي يشهد عدة أزمات واضطرابات وتحولات جزئية وهامشية من جهة التحديث والإصلاح والتغيير فإن تشخيص الأزمة عند حرب لا ينفصل من أنها أزمة شاملة وعالمية؛ أي: وجودية، وإن كانت الأزمة تختلف من حيث إيقاعها وطبيعتها وعمقها من مجتمع إلى آخر ومن دولة إلى أخرى. بيد أن أزمة النظام العربي، مثلاً، إنما يشهد من الكوارث والمآزق مما ينبئ، والحالة هاته بضرورة إصلاحه وتعديله وممارسته للنقد والتقويم: لأننا نجد اقتصاد هذا النظام العربي يرتكز على «الهذر والفقر أو الفحش والتبذير، مجتمع يتزايد نسله بصورة تبتلع ميزانيات التنمية، أنظمة تنتج العجز والبطالة والاستبداد، إدارات حكومية ينخرها الفساد والفوضى»، علاوة على «ملاحقة الكتّاب والفنانين بدعاوى الحسبة وفتاوى الردة، نخب ثقافية وفكرية مذعورة من عصر العولمة والتقنية، إعلاميون ودعاة

علينا أن نتخلى عن نرجسيتنا، وأن نعود إلى رشدنا، بحيث نعيد الأمور إلى نصابها، لكي نفكر ونتصرف

ومناضلون مفجوعون بسقوط النظام العراقي، باختصار: إن الأمة التي تدعي أنها خير أمة هي على الهامش وفي المؤخرة». وعلى هذا فإن مصادر الخلل ومواطن الأزمة في العالم العربي إنما تنحصر في وجود آفتين، هما:

ـ آفة عبادة الأصول المتمثلة في نماذج، الداعية التراثي، والأبله الثقافي والأصولي والإرهابي، التي تعدّ «النماذج التي تنتجها الثقافة الدينية الرائجة بمرشديها ورموزها الذين يملؤون الأسماع والشاشات بأحاديثهم ومواعظهم ودروسهم».

ـ آفة عبادة الحداثة التي كلما واكبنا تحولاتها ومنجزاتها ارتددنا إلى الوراء، استلابًا واغترابًا. والحال أن لا شيء يستقر على حاله بقدر ما يتزحزح ويتغير عمّا هو عليه. لذا لا بد من «إنشاء مراكز البحث والاشتغال على الذات بالمواجهة والمحاسبة أو النقد والفحص، لإنتاج الجديد والفعل من الأطر والسبل أو السياسات والإستراتيجيات أو الصيغ والمعادلات».

إن العقل التداولي المشتغل بمنطق تحويلي تركيبي إزاء الأحداث والمجريات، واتجاه الأفكار والمعتقدات إنما يدفعنا إلى رؤية الواقع رؤية عقلانية من حيث إن الواقع هو من إنشائنا وصياغتنا وبنائنا، ومن حيث يتداخل فيه الواقع اللغوي والرمزي والمؤسساتي والتقني.. وهذا كله في نطاق الصلة الوجودية، والتساؤلات الجوهرية الثاوية وراء تقريب الأزمات والمآزق، وتشخيص المطبات والكوارث المشهودة في العالم المعاصر.

إن العقل التداولي وفعاليته إنما تسعى نحو محاربة الرؤية الإيديولوجية الفاشلة بجميع مشاربها، التي تنظر إلى الخلل ومصادره في الآخر بدلاً من التشكيك في الذات وعجزها، بل وفشلها في الانخراط في أزمنة الحداثة الفائقة ومساراتها، لذا فبواسطة عقل التداول نتمكن من اجتراح «بدائل، وتركيب حلول تكون أقل كلفة وتسلطًا أو عنفًا وخرابًا أو عبثًا وجنونًا».

ويرسم لنا نص «أزمنة الحداثة الفائقة» ٢٠٠٥ بجانب المكتوبات الفلسفية والنقدية المنشورة توجهًا وجوديًا أو اتجاهًا نقديًا يتأسس على مرجعيات ومنجزات فكرية ومعرفية مختلفة من تواصلية وتفككية وتداولية وسيميولوجية.. حيث تمكن علي حرب من خلال منظوراتها المتباينة كتابة نص فلسفي ونقدي متميز، من حيث تقريبه للمأزق والأزمات، سواء كانت فكرية وثقافية



د. محمد عابد الجابري

أي النظر في آليات اشتغال العقل العربي والإسلامي وقطاعاته المعرفية أم معضلات اجتماعية واقتصادية وسياسية.. لقد تمكن الكاتب بحماسة ورغبة قويتين، وبفعل لغة التداول والتركيب من الانخراط النقدي في المشهد الثقافي العربي والعالمي. بيد أن هناك جملة من التساؤلات النظرية والمفاهيمية الفلسفية التي تطرح بشأن العقل التداولي أو الأطروحة التداولية، ومنها ما يأتي:

ـ إذا كان العقل التداولي يشتغل بلغة التحويل والتركيب، ويسعى إلى الخروج عن الماهيات الثابتة، والحتميات الخاوية نحو تأسيس المختلف والمغاير والهامش.. فإن طبيعة العقل التداولي عند علي حرب هي صيغة تاريخية من حيث إنها تجعل المجريات والمتغيرات هي لحظة تجسيد للقراءة المتحولة والمعرفة المطاطية، فالتاريخي لا يبحث إلا عن



د. علي حرب

لحظة يجسد فيها، ومن خلالها، ما يفكر فيه، وما يفكر فيه الكاتب، ويوجه رؤيته وتفكيره الحدث المتغير أو الثابت المتحرك من حيث إن المتغير والمتحول هما تجسيد للحظة التداول والتركيب بعيداً عن المنطق الهيجلي الكلي نحو المنطق المختلف، كما يمثله أقطاب الحداثة البعدية.

ـ فمتى علمنا أن لغة التداول والتركيب أو منطق التحويل هو الاختيار الفلسفي المتميز لدى علي حرب في قراءة المشهد العربي والغربي بكوارثه ومآزقه، بأزماته وانكساراته.. فإنه لا يخرج عن صيغة المجال التداولي عند طه عبدالرحمن الذي يؤسسه على اللغة والمعرفة والعقيدة. هذا الثالوث الذي ينقلب بانقلاب الأوضاع والأحوال، ويتحول وفق اللحظات التاريخية والثقافية بصورة فعالة ومتميزة بشرط الحفاظ على مألوف اللغة، وغاية المعرفة، ومقاصد العقيدة، وإن كان المجال التداولي عند الفيلسوف المغربي فيه من الخصوصية القومية العربية والإسلامية أكثر مما فيه من السمة العالمية والكونية، وذلك لاعتقاده أن هذه الأخيرة لم تكن إلا خصوصية في أصلها ومبدئها، ثم تمّ فرضها بالقوة والسلطان لتصير كونية أو عالمية مهيمنة.

ـ فلما كان العالَم ينقسم إلى قوميات، وإلى مجتمعات، وإلى شعائر وتقاليد، فإن الأصل فيه هو وجود الخصوصيات والاختلافات بدلاً من الوحدة والتطابق والانسجام، وبهذا ألا يحق لنا أن نميز بين لغة التداول ومنطق التركيب من جهة مضامينها الثقافية، وسياقاتها المعرفية والفلسفية والاجتماعية وبين شكلية هذا العقل التداولي كأداة أو كمرآة لا يعكس إلا ذاته من دون أحاسيس ومشاعر وطموحات وهويات يحيا بها الإنسان العربي. وكأن العقل التداولي شبيه بالعقل الهيولاني الذي تحدث عنه فلاسفتنا القدماء الذي هو واحد ومتعدد، فارغ وممتلئ، ثابت ومتحول.. كما أنه بالإمكان الكلام عن عقل تداولي فرنسي وعقل تداولي أمريكي وألماني وعربي.. من حيث اختلافها على مستوى البنيات العميقة المستحكمة في الطموحات ورهانات المستقبل، من تجريبية إنجليزية، وذرائعية أمريكية، وتفكيكية فرنسية، وتاريخية ألمانية، وقياسية عربية.

(١) قراءة في كتاب: «أزمنة الحداثة الفائقة»: علي حرب، م. ت. ع. ط ١، ٢٠٠٥م.





محمد البشروش ومجلة المباحث التونسية

محمود الحرشاني

سيدي بوزيد ـ تونس

من المجلات التونسية الرائدة التي قامت بدور مهم في تطوير الحياة الثقافية والفكرية في تونس في الثلاثينيات من القرن الماضي، مجلة المباحث التي أسسها الأديب والكاتب التونسي محمد البشروش، الذي يعدّ رائدًا من رواد الثقافة والصحافة الأدبية في تونس.

وقد صدر العدد الأول من مجلة المباحث في ذي الحجة سنة ١٣٥٦هـ الموافق لشهر يناير عام ١٩٣٨م. وبعد شهرين من هذا التاريخ، صدر العدد الثاني من هذه المجلة في المحرم سنة ١٣٥٧هـ الموافق لشهر مارس عام ١٩٣٨م.

وقد كان جهد مؤسسها واضحًا في العددين كتابة وإخراجًا وتمويلاً. فقد اعتمد على نفسه في كتابة جلّ موضوعات المجلة، وكذلك في إخراجها، وفعل الأمر نفسه فيما يتعلق بالتمويل.

وقد صدرت المجلة في بداية عهدها انطلاقًا من مدينة الحمّامات التونسية مسقط رأس صاحبها ومديرها، واتخذت من المدينة عنوانًا لها. فقد جاء في رأس صفحتها الأولى، فيما يتصل بالعنوان المراسلات تكون باسم رئيس التحرير محمد البشروش ـ الحمامات ـ بلدة الحمامات، المملكة التونسية.

صدرت مجلة المباحث أول مرة في عشرين صفحة، وحافظت على هذا العدد من الصفحات في أغلب الأعداد التي صدرت بعد ذلك التاريخ، وقد قدمت المجلة

المراسلات تكون باسم رئيس التحرير
محمد البشروش
بالحمامات· حسابنا البريدي رقم ٣٨٥٤
بلدة الحمامات بالمملكة التونسية
Compte courant postal
3854 Hammamet

المباحث
في الأدب والفن والتاريخ والفلسفة

تصدر مرة في الشهرين موقتا

AL MABAHETH
Revue Littéraire, Artistique, Historique, Philosophique
Redacteur en chef
M. BACHROUCH
à Hammamet

الاشتراك
عن سنة ١٢



سيدي القاري

هذا اول عدد من (المباحث) بين يديك . وقد

قديما او حديثا ، وجمع شتاتها المتناثرة الضائعة تحت ركا
من غبار الاهمال
وقد اصطفينا من كبار ادبائنا نخبة تتعاون معها ق

نفسها إلى القراء منذ عددها الأول: على أساس أنها مجلة متخصصة في الأدب والفن والتاريخ والفلسفة.

وقد كانت تطبع بمطبعة العرب لصاحبها زين العابدين السنوسي، وكان ثمن النسخة الواحدة منها، ثلاثة فرنكات، وهي عملة تونسية كانت متداولة زمن الاستعمار، وعوضت فيما بعد زمن الاستقلال بالمليم التونسي.

قراءة في تبويب العدد الأول

من المهم عند دراستنا لتاريخ الدوريات والصحف، أن نقف عند عددها الأول، فالعدد الأول من كل صحيفة أو مجلة، عادة يشكل مرجعًا مهمًا لفهم مسار المطبوعة بعد ذلك.

احتوى العدد الأول من مجلة المباحث على مجموعة من المقالات والدراسات فضلاً عن الإنتاجات الأدبية الجديدة. وقد جاءت محتويات هذا العدد الأول من مجلة المباحث على النحو الآتي:

- في ركن شخصيات تونسية، تعريف شخصية المعلم التونسي البشير صفر بمناسبة الذكرى العشرين لوفاته.

ـ فلسفة الفن، مقال بعنوان: الفن والسلطة.
ـ مقال للشابي لم ينشر بعنوان: الفنون والنفس العربية.
ـ في ركن التربية، دروس المحفوظات.
ـ قصة العدد، وقد وردت بعنوان «فنان» وكتبها صاحب المجلة.

وأخيرًا قصائد متفرقة، وتعريف بالإصدارات الجديدة ضمن ركن «ثمرات المطابع».

ونفهم من هذا العرض لمحتويات العدد الأول وأركانه أن المجلة كانت متنوعة الاهتمامات، حريصة على إفادة القارئ بكل ما يستجد في الساحة الثقافية والأدبية، وهو ما عكسته بجلاء افتتاحية عددها الأول.

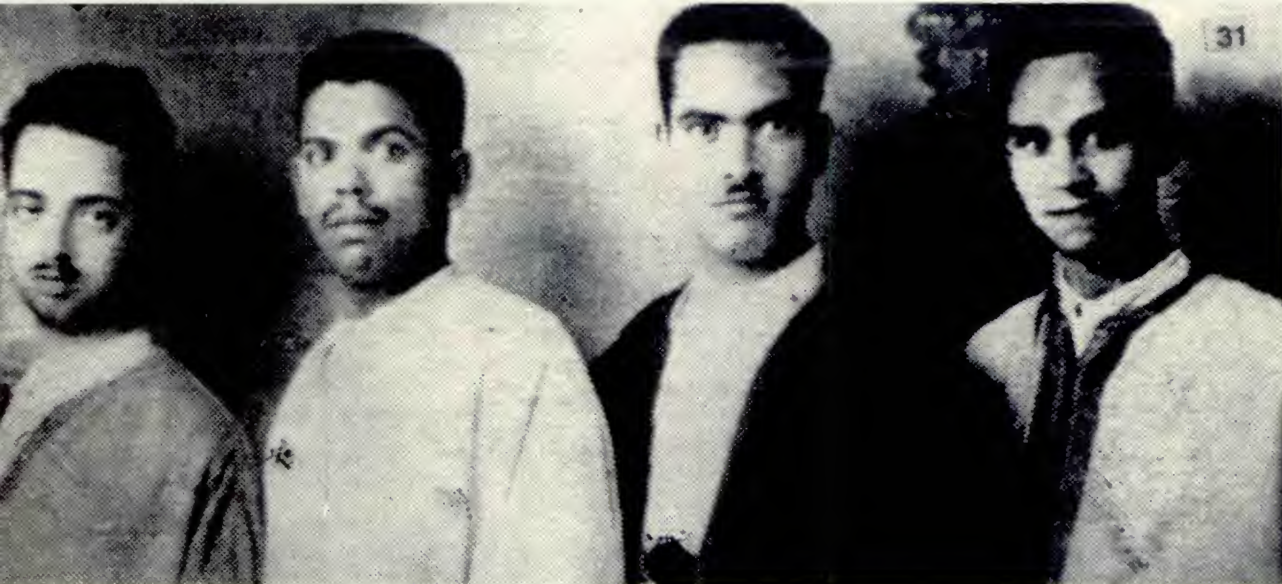
وقفة عند افتتاحية العدد الأول

في العدد الأول من مجلة المباحث، وردت افتتاحية العدد بعنوان «كلمة إلى القارئ» ومنها هذه المقتطفات:

كانت المجلة تطبع بمطبعة العرب لصاحبها زين العابدين السنوسي. وكان ثمن النسخة الواحدة منها، ثلاثة فرنكات، وهي عملة تونسية كانت متداولة زمن الاستعمار، وعوضت فيما بعد زمن الاستقلال بالمليم التونسي

سيدي القارئ، هذا أول عدد من المباحث بين يديك، وقد أسسنا هذه المجلة لنساهم في تبليغ رسالة الأدب، فمن أجل الأدب فقط، أسسناها، وهي لا تعني بخدمة مذهب محدد سواء من الفلسفة أو الفن أو التاريخ أو غيرها من أنواع الأدب، ولكنها تخدم كل

محمد البشروش مؤسس مجلة المباحث «الثاني على اليمين»



صدرت مجلة المباحث أول مرة في عشرين صفحة. وحافظت على هذا العدد من الصفحات في أغلب الأعداد التي صدرت بعد ذلك التاريخ. وقد قدمت المجلة نفسها إلى القراء منذ عددها الأول: على أساس أنها مجلة متخصصة في الأدب والفن والتاريخ والفلسفة

رأي، وكل مذهب حي هو للفن يمت بصلة الرحم والقربى، وهي تخدم الثقافة عصارة نفس الإنسان وعقله بمفهومها الأكمل، ومدلولها الأعم، وهذا بوسائلنا المتواضعة، وبوسائلنا المتواضعة، دائمًا سنعنى عناية خاصة بالبحث عن تاريخ الحياة العقلية بهذه البلاد، في أي عصر كانت قديمًا وحديثًا. وجمع شتاتها المتناثرة الضائعة في ركام من غبار الإهمال.

محتويات العدد الأول من المباحث

في ركن شخصيات تونسية اهتمت المجلة بتقديم وصف لما دار في حفل إحياء ذكرى مرور عشرين سنة على وفاة المعلم التونسي البشير صفر، وقد أقامت هذه الذكرى الجمعيات الثقافية التونسية في أواخر السنة المدرسية عام ١٩٣٧م، وقدمت المجلة في هذا المقال عرضًا لمسيرة هذه الشخصية التونسية الفذة أي شخصية البشير صفر الذي ولد بتونس في ٢٧ يناير عام ١٨٥٥م، ووالده هو الجنرال مصطفى صفر وهو أحد أبناء مدينة المهدية، وبعد أن تلقى تعليمه بجامع الزيتونة، التحق بالمدرسة الصادقية، وفي هذه المدرسة ظهرت مواهبه، وأعجب به أساتذته، ومنهم خير الدين الذي كان لا يبخل عليه بالتشجيع.

وتتبع الدراسة التي وردت بإمضاء مدير المجلة محمد البشروش مختلف مراحل تفوق البشير صفر ونبوغه وإسهامه في الحركة الأدبية والثقافية وتصحيح المناهج التربوية والتعليمية، من خلال وصفه وتأليفه لكتاب الجغرافيا، إلى جانب ما كان يلقيه من محاضرات يضمنها آراءه الإصلاحية في المجالات التي تهم مسيرة المجتمع كمجال إصلاح التعليم وتحسين ظروف عيش الشاب التونسي، وتحسين الحالة الاقتصادية للبلاد.

الشابي والمباحث

لا تخفى على أحد العلاقة المتينة التي كانت قائمة بين صاحب المجلة الأديب محمد البشروش وشاعر تونس الخالد أبي القاسم الشابي صاحب «أغاني الحياة» وهي علاقة أثمرت الكثير من الرسائل بين الرجلين، وكان لها صداها في الحياة الأدبية والفكرية لتونس، ولهذا لا أستغرب أن يكون الشابي في مقدمة المساهمين في تحرير مجلة صديقه «المباحث»، بل أحد المساندين الكبار له. ولم يتوان الشابي عن المساهمة في المجلة منذ عددها الأول، إيمانًا منه بأهمية هذا المشروع، وما يؤمل منه لخدمة الثقافة التونسية، وقد ورد مقال الشابي في العدد الأول من المجلة بعنوان «الفنون والنفس العربية» وقد يكون هذا المقال من المقالات النادرة وغير المعروفة للشابي أصلاً. وقد تناول فيه الشابي أهمية الفن في صقل شخصية الفرد ونبوغه، ودافع الشابي في هذا المقال عن وظيفة الفن كأداة لرقي المجتمع، وتواصل الحياة، متصديًا بشجاعته المعهودة لأصحاب العقول المتزمتة الذين يرون في الفن ملهاة، تعيق المجتمع عن التقدم.

وبعد شهرين من صدور العدد الأول، صدر العدد الثاني من مجلة «المباحث» في شهر مارس عام ١٩٣٨م،


الشيخ محمد الفاضل بن عاشور

وفيه موضوعات متنوعة تجمع بين «الأدب والفن»

صعوبات تعترض المجلة

وفي أثر عددها الثاني تصطدم المجلة بعدد من الصعوبات، مادية بالخصوص، فتحتجب عن الصدور، ولا تعود إلى الظهور إلا في شهر أبريل عام ١٩٤٤م. وقد شكل عددها الثالث بداية مرحلة جديدة في حياة المجلة، تتضح سماتها ومعالمها فيما يأتي:

ـ تكوين هيئة تحرير قارّة للمجلة، تضم نخبة من الكفاءات التونسية، بحيث لم يعد العبء مُلقى بالكامل على عاتق مدير المجلة، وتضم الهيئة بالخصوص الأساتذة محمود المسعدي، ونور الدين بن محمود، والظاهر الحداد، وعبدالوهاب بكير، ومصطفى خريف. وأصبح للمجلة رئيس تحرير، وهو السيد فتحي الزليطي.

وفي العدد الثالث ورد عدد من المقالات والدراسات، منها مقال بقلم الأستاذ محمود المسعدي، وآخر بقلم الظاهر الحداد، وقصة لمصطفى خريف.

الشيخ البشروش موسس المجلة «إلى اليسار» وصديقه الحميم الشابي «إلى اليمين»



في مجال تشجيع المواهب الأدبية، نظمت مجلة "المباحث" في مناسبتين جائزة المباحث الأدبية في عددها الثاني والعشرين في يناير عام ١٩٤٦م، وفي عددها الثاني والثلاثين في نوفمبر عام ١٩٤٦م

صدر العدد الأول من مجلة المباحث في ذي الحجة سنة ١٣٥٦هـ الموافق لشهر يناير عام ١٩٣٨م. وبعد شهرين من هذا التاريخ. صدر العدد الثاني من هذه المجلة في المحرم سنة ١٣٥٧هـ الموافق لشهر مارس عام ١٩٣٨م

مراحل في حياة المباحث

يذكر الأستاذ الباحث جمعة شيخة في المقدمة التي وضعها لتقديم المجموعة الكاملة لمجلة المباحث التي أصدرتها دار الكتب الوطنية:

«مجلة المباحث مرت بمراحل كثيرة، وتقسم هذه المراحل إلى ثلاث مراحل أساسية في حياة هذه المجلة.

المرحلة الأولى، وهي مرحلة التأسيس، اقتصر فيها صدور المجلة على عددين، والمرحلة الثانية، وهي مرحلة استئناف الصدور بداية من شهر أبريل عام١٩٤٤م، أما المرحلة الثالثة فهي تبدأ من العدد التاسع الذي صدر في شهر ديسمبر عام ١٩٤٤م، ويرى الباحث أن هذه المرحلة هي من أهم المراحل في مسيرة مجلة المباحث».

انتشار المجلة

ساهمت مجلة «المباحث» في تنشيط الحياة الثقافية

لا تخفى على أحد العلاقة المتينة التي كانت قائمة بين صاحب المجلة الأديب محمد البشروش وشاعر تونس الخالد أبي القاسم الشابي صاحب "أغاني الحياة". وهي علاقة أثمرت الكثير من الرسائل بين الرجلين

والفكرية بتونس بدور كبير، فقد قامت بتنظيم المسابقات، وأحدثت الجوائز لتشجيع النشء على حب الأدب، كما أصدرت مجموعة من الكتب، ومنها كتاب «ثورة الفكر» لعلي الجعوان، وكتاب «أصول الخبر وخلاصة الحساب» لأحمد السويسي، وكتاب «دروس في الكيمياء» لبشير فوشا.

وفي مجال تشجيع المواهب الأدبية، نظمت مجلة «المباحث» في مناسبتين جائزة المباحث الأدبية في عددها الثاني والعشرين في يناير عام ١٩٤٦م، وفي عددها الثاني والثلاثين في نوفمبر عام ١٩٤٦م.

محمود المسعدي يترأس تحرير المجلة

من الأحداث المهمة في حياة مجلة «المباحث» يوم تولي رئاسة تحريرها أديب تونس الكبير الأستاذ محمود المسعدي، وكان أول رئيس تحرير لها بعد وفاة صاحب المجلة، كما تولى رئاسة قلم التحرير الأستاذ عبدالوهاب بكير لما سافر الأستاذ محمود المسعدي إلى فرنسا للمشاركة في مناظرة التريز، وأحمد عبدالسلام الذي أشرف على رئاسة تحرير المجلة بالنسبة إلى الأعداد الأخيرة منها.

كما نجد من بين كتّابها البارزين الأساتذة: الفاضل بن عاشور، ومحمد الحليوي، وعلي البلهوان، وحسن حسني عبدالوهاب، والطاهر قيقة، والباهي الأدغم، والصادق المقدم، ممّا يدل على مكانتها الرفيعة في الساحة الأدبية والثقافية التونسية.

المراجع والهوامش

- مجموعة مجلة المباحث، بحوزة الكاتب.
- العدد الأول من المجلة المذكورة.
- مجموعة مجلة المباحث «مصفرة»، إصدار دار الكتب الوطنية التونسية.
- فصل حول «المباحث» من كتاب بعنوان نزهة في صحافة الماضي، لصاحب البحث. يصدر قريباً.
- كتاب رسائل الشابي.

مسابقة
الفيصل

أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٣٤٨) جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ / يوليو ٢٠٠٥م.

الفائز الأول: نجاة عبده ناصر السروري ـ صنعاء ـ اليمن.
الفائز الثاني: علاء أنور كامل ـ منية النصر ـ مصر.
الفائز الثالث: سوسن محمد أوان ـ مكة المكرمة ـ السعودية.
الفائز الرابع: أحمد سمير حماد ـ عمان ـ الأردن.
الفائز الخامس: الهادي بن الطاهر بن إبراهيم ـ المنزه ـ تونس.
الفائز السادس: عمر عبدالكريم السامري ـ البصرة ـ العراق.
الفائز السابع: جاسم خالد حسن ـ الدوحة ـ قطر.
الفائز الثامن: سناء ناصر سليمان ـ الجهراء ـ الكويت.

حلّ مسابقة العدد (٣٤٨)

١- صموئيل بيكيت هو مؤلف مسرحية «في انتظار غودو».

٢- الاسم الحالي لجزيرة سرنديب هو سيرلانكا.

٣- هنِّيبعل هو القائد الذي عبر جبال الألب لمحاولة الاستيلاء على روما (٢١٨ق.م).

أسئلة مسابقة العدد (٣٥١)

أجب عن الأسئلة الآتية:

(١) من هو بيغماليون؟

(٢) ما أصل كلمة مايسترو؟ وماذا تعني؟

(٣) من واضع «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم»؟

الاسم: ________ المدينة: ________ ص.ب: ________ هاتف: ________

العنوان: ________ الدولة: ________ الرمز البريدي: ________ ناسوخ: ________

نأمل من الإخوة الذين يشاركون في المسابقة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني؛ لأن المصارف (البنوك) تصدر الشيكات العربية بالحروف الإنجليزية.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات عدد كبير من الإخوة القراء المتابعين للمسابقة والتي عبروا عنها من خلال الرسائل الكثيرة التي ظلت ترد إلى المجلة، ولإتاحة فرص الفوز بالجوائز لعدد أكبر منهم، فقد تمت مضاعفة عدد هذه الجوائز ابتداءً من العدد ٢٩٦ لتصبح على النحو الآتي:

الجائزة الأولى: ١٠٠٠ ريال.

الجائزة الثانية: ٧٠٠ ريال.

الجائزة الثالثة: ٥٠٠ ريال.

الجائزة الرابعة: ٤٠٠ ريال.

الجائزة الخامسة: ٢٥٠ ريالاً.

الجائزة السادسة: ١٥٠ ريالاً.

الجائزة السابعة: (اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

الجائزة الثامنة: مجموعة من أعداد الفيصل وبعض إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.

والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دومًا، مع تمنياتنا حظًا وافرًا لجميع القراء الأعزاء.

تنويه:

نفيد الإخوة المتسابقين أن المجلة ستراعي ما حدث من تأخر في مواعيد صدور الأعداد الأخيرة لظروف فنية خارجة عن الإرادة، ولهذا فقد تم مدّ فترة تلقي المشاركات في المسابقات شهرين بدلاً من ٤٥ يومًا.

مسابقة الفيصل

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....).

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

عنوان المجلة

ص.ب (٣). الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الملف الثقافي



- مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية
- رسائل إلى طه حسين
- منتدى لإدارة الوثائق إلكترونياً
- إليوت في مزاد، والموناليزا تقاوم الزمن

●● خاتمة المطاف: عندما تتعذر التغذية بطريق الفم !



مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية

افتتح صاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز - أمير منطقة مكة المكرمة - في ١٣ شعبان ١٤٢٦هـ (الموافق ١٧ سبتمبر/أيلول ٢٠٠٥م) فعاليات الاحتفال بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ؛ وذلك بقاعة الاحتفالات الكبرى في المدينة الجامعية لجامعة أم القرى بحي العابدية في مكة المكرمة.

وخاطب الأمير عبدالمجيد الحضور قائلاً: «إن الأمانة الملقاة على عواتقكم مثقفين ومثقفات في حاجة مستمرة إلى مواكبة مستجدات الساحة الثقافية والفكرية، وصولاً إلى انحسار موجة أي فكر لا ينسجم مع دين اسمه مشتق من السلام، فهاجسكم الأول يظل مرتبطًا بحمل الفكر الإسلامي الصحيح لدحر فلول الفكر الظلامي، أينما كان، على أسس واضحة تستمد قوتها من كتاب الله، وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم».

وأضاف سموه: «أمامكم عمل كبير، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقكم لإنجازه على الوجه الذي يرضي طموحاتكم، ويحقق تطلعات الأمة التي تنشد الأمن والسلام والاستقرار». وتناول سموه دور المرأة في المجتمع بقوله: «المثقفات شقائق الرجال أثرهن أكبر في النشء، ولهن الدور الحيوي كعنصر فاعل في المجتمع، وإسهامها المقدر في تحصين الأجيال القادمة من نشر الأفكار الهدامة».

وأكد الأمير عبدالمجيد: «أن مكة المكرمة كانت السباقة دومًا على غيرها من المدن، فتصبغها بنور التوحيد والإيمان، إلا أن الاحتفال الحقيقي بدأ على هذه الأرض المباركة منذ الأزل، فالبيت المعمور في السماء احتفى بالبيت العتيق، وحمل النبي الأمي رسالة التوحيد قبل ١٤ قرنًا، فكانت «اقرأ» أولى كلمات الوحي، وخمس صلوات ارتبطت مئات الملايين من المسلمين في أركان المعمورة بالتوجه نحو الكعبة المشرفة لأدائهن».

وقد نظمت جامعة أم القرى في مكة المكرمة ندوة علمية كبرى بهذه المناسبة بمقر الجامعة استمرت ٣ أيام، وجاء افتتاح الندوة مع بدء انطلاق هذه الفعاليات، وتهدف هذه الندوة إلى دراسة دور مكة المكرمة الحضاري العالمي قديمًا وحديثًا، والتذكير برسالتها الخالدة، وسمو أهداف قيمها وتعاليمها، ودورها في ثقافة الأمة، بالإضافة إلى إظهار مدى حرص الإسلام واهتمامه بحضارات الأمم، ومواكبته للتطور، وملاءمته لكل زمان ومكان، وبيان رسوخ مبدأ الحوار في الإسلام، كذلك تهدف الندوة إلى توثيق الجوانب العلمية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والجغرافية والتربوية والتثقيفية العامة التي أنجزت في مكة المكرمة خلال العصور الإسلامية، وأثرها في تطوير مسيرة الحياة والنهضة الحضارية في العالم الإسلامي، بالإضافة إلى عرض التطورات الحضارية في المجالات كافة في العهد السعودي، وأثر ذلك في تحسين الخدمات وتطويرها للمسلمين في مكة المكرمة خلال قرن من الزمان، ومقارنة ذلك بالقرون الأخرى التي سبقته.



كذلك تم حشد الكثير من الفعاليات لهذه المناسبة؛ إذ عكفت الأمانة العامة ١٨ شهرًا تعمل من أجل التنسيق مع الجهات كافة من داخل المملكة وخارجها، وقد بلغ عدد الجهات التي تم التعاون والتنسيق معها أكثر من ٧٠ جهة حكومية، وكذلك تم الاتصال برموز الفكر والثقافة في المملكة، وفي الوطن العربي والإسلامي، وكان هناك تجاوب كبير للمشاركة في هذه المناسبة، إذ بلغت أبحاث المشاركين ما يقارب ٣٠٠ بحث من جميع أرجاء العالم،

وقد تم تمحيصها وتحكيمها واختير منها ٨٩ بحثًا.

وقد حددت اللجنة العلمية تسعة محاور تدور حولها أهداف هذه الندوة، وهذه المحاور هي: واقع مكة المكرمة الديني وأثره في حياة الأمم، والمجتمع المكي وأثره في الحياة العامة، والحركة العلمية والثقافية في مكة المكرمة، والحج والعمرة وأثرهما في المجتمع المكي وسائر شعوب العالم، والأوقاف وأثرها في المجتمع المكي، والأمن في مكة المكرمة، ومكة المكرمة نبع الحضارة الإسلامية، والبيئة في مكة المكرمة، ومكة المكرمة خلال قرن من الزمان (القرن العشرين).

والجدير بالذكر أن اختيار مكة المكرمة أول عاصمة للثقافة الإسلامية سنة ١٤٢٦هـ قد تم في اجتماع أصحاب المعالي وزراء الدول في العالم الإسلامي الذي عقد في الدوحة في شهر شوال سنة ١٤٢٤هـ.

وسوف تقيم الجامعة معرضًا دوليًا بهذه المناسبة خلال شهر شوال القادم، إضافة إلى المعارض التشكيلية الخاصة بمكة المكرمة التي يقيمها معهد الحرمين الشريفين لأبحاث الحج، بالتعاون مع الهيئة العليا لتطوير منطقة مكة المكرمة، كما ستقوم الجامعة أيضًا بطباعة ما يقارب ١٠٠ كتاب عن مكة المكرمة، وهي سلسلة تقوم الجامعة بنشرها بالتعاون مع عدد من الجهات التي تبرعت بإصدارها وطبعها ونشرها، علاوة على طباعة أطلس لمكة المكرمة بالتعاون مع هيئة المساحة الجيولوجية، إلى جانب المسابقات الثقافية والدينية والاجتماعية والأدبية التي تقيمها عمادة شؤون المكتبات الطلابية بالجامعة.

وسوف تستمر فعاليات هذه المناسبة عامًا كاملاً.



الأمير عبدالمجيد بن عبدالعزيز

الموناليزا تقاوم الزمن

يدور حاليًا جدل بين مسؤولي متحف اللوفر الذين يعتريهم القلق من علامات الوهن التي بدأت تظهر على لوحة الموناليزا التي رسمها الفنان الإيطالي ليوناردو دافينشي، وقال متحف اللوفر في بيان: إن شكل الإطار الخشبي الرقيق الذي يحيط باللوحة الزيتية التي تبلغ من العمر ٥٠٠ عام، قد بدأ في التغير، وأضاف البيان أن المتحف طلب إجراء دراسة علمية وفنية دقيقة على اللوحة الشهيرة لتحديد المواد الخام المستخدمة فيها، وحالتها التي تتأثر بشكل خاص بتغير درجات الحرارة، وخلال ذلك ستظل اللوحة، وهي لامرأة ذات ابتسامة غامضة، معروضة للجمهور.

ومن المقرر بدء عملية فحص اللوحة هذا العام، وهو الموعد المقرر لنقلها إلى قاعة عرض خاصة بها، بعد عملية تجديد تبلغ تكاليفها ٤،٥ ملايين دولار.

وكانت اللوحة قد اكتسبت لونًا يميل إلى البني من جراء تراكم الغبار والأوساخ عليها، كما حدثت بعض التغيرات الكيماوية في الطلاء المغطي للسطح، لكن المتحف لا يزال يقاوم ضغوطًا لترميم اللوحة حتى تستعيد ألوانها الأصلية.

والجدير بالذكر أن آخر مرة خضعت فيها «الموناليزا» لأعمال ترميم حقيقة كانت في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، حين قام الخبراء بإزالة آثار الزمن عن هذه التحفة التي يشاهدها نحو ٦ ملايين زائر لمتحف اللوفر كل عام.

رسائل إلى طه حسين

اقتنى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية مجموعة من الرسائل الموجَّهة إلى الدكتور طه حسين من شخصيات أدبية وفنية في مصر، منهم: الدكتور محمود



فوزي، وأم كلثوم، ومي زيادة، ونجيب محفوظ، ومحمد زكي عبدالقادر، وتوفيق الحكيم، وهي رسائل تحتوي على معلومات ثرية تخصُّ الحركة الثقافية في مصر. وقد جاء نص رسالة مي زيادة إليه على النحو الآتي:

ناديت بالتلفون ثلاث مرات لأطلب موعداً لزيارة لعلمي أن الدار مزدحمة دائماً بالزائرين، وأنا أبتعد عن الازدحام، ولكن التلفون طبعاً مشغول: لأنه تلفون العميد، عميد التلفونات.

كم أنا سعيدة بزيارة وبدون زيارة! أرجو أن يعود لطفي

ناديت بالتلفون ثلاث مرات لأطلب موعداً للزيار
لعلمي ان الدار مزدحمة دائماً بالزائرين وأنا ابتعد عن ال
ولكن التلفون طبعاً مشغول لأن تلفون العميد
التلفونات . . .
كم أنا سعيدة بزيارة وبدون زيارة! أرجو ا
يعود لطفي بك قريباً إلى الجامعة "ليستقر الحق في نصابه
على نحو تعبير كاهن أوزيريس
مع التهنئة بعيد الفطر المبارك
"مي"

منتدى إدارة الوثائق إلكترونياً

تنظم المملكة العربية السعودية منتدى إدارة الوثائق إلكترونيًا، ويعدّ هذا المنتدى، الذي يعقد في الرياض في نوفمبر القادم، أكبر وأبرز حدث متخصص في مجال إدارة الوثائق إلكترونيًا تشهده منطقة الشرق الأوسط، بمشاركة نخبة من المتخصصين.

وقال حمد السعدون المدير العام للإدارة العامة للمعلومات في مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، التي تشرف على تنظيم المنتدى: إن المنتدى يهدف إلى التقاء الخبراء والمختصين وأصحاب القرار: لتبادل الخبرات والمعلومات، والاطلاع على أفضل الممارسات والتجارب الرائدة محليًا وعالميًا في مجال أحدث التقنيات، والتطبيقات العملية لإدارة الوثائق إلكترونيًا.

وأوضح السعدون أن المنتدى الذي تستمر أعماله يومين سيناقش عدة محاور منها: حفظ الوثائق إلكترونيًا، ونظم سير العمل، وإدارة السجلات والبوابات الإلكترونية، وإدارة المحتوى والمعرفة والأرشفة الإلكترونية، ونظم التخزين، وإدارة دورة حياة المعلومات.

بك قريباً إلى الجامعة «ليستقر الحق في نصابه» على نحو تعبير كاهن أوزيريس، مع التهنئة بعيد الفطر المبارك.

ميّ

أما رسالة نجيب محفوظ المؤرخة في ٢٠/ ١٢/ ١٩٥٢م فكانت على النحو الآتي:

حضرة الأستاذ العميد

إليكم أقدم صادق الشكر، وراسخ الإجلال، وإني لفخور بمجرد تكرمكم بقراءة كتابي، أما نقدكم فهو جائزة الأديب الذهبية في بلد وظروف يعدّ فيها التفرغ للأدب نوعاً من الرهبنة.

وإلى لقاء قريب يا سيدي العميد.

المخلص

نجيب محفوظ

٢٠/ ١٢/ ١٩٥٢م

وجاءت رسالة أم كلثوم على النحو الآتي:

سيدي الأستاذ الجليل طه بك حسين

حظيت بمؤلفكم «القصر المسحور» الذي تفضلتم بإهدائه إليَّ، فأكبرت منكم ذلك العطف الكريم، ولا شك عندي في أنني سأجد بين طياته غذاء يضاعف شكري، ويحفظ لكم في نفسي أجمل الذكريات. أدامكم الله مناراً للعلم والأدب.

أم كلثوم

إبراهيم



وعدّ السعدون المنتدى فرصة فريدة للخبراء وأصحاب القرار في القطاعين العام والخاص للالتقاء والاطلاع على أفضل الممارسات والتجارب الناجحة في مجال إدارة الوثائق إلكترونيًا، والصعوبات والتحديات، ومناقشة الحلول المناسبة للتغلب عليها.

وأضاف أنه سيقام على هامش المنتدى معرض متخصص يتم من خلاله عرض منتجات الشركات الرائدة لأحدث ما لديها من حلول وتقنيات وأجهزة وبرامج في مجال إدارة الوثائق إلكترونيًا.

ويأتي تنظيم مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية لهذا المنتدى في إطار المؤتمرات والندوات التي تنظمها المدينة في عدد من المجالات العلمية والتقنية؛ بهدف النهوض بالمجتمع علميًا وتقنيًا، ونشر الوعي المعلوماتي، ولاسيما في مجال إدارة الوثائق إلكترونيًا.

وكان المنتدى السابق لإدارة الوثائق إلكترونيا الذي نظمته المدينة في الرياض في أكتوبر/تشرين الأول الماضي قد حظي بنجاح كبير، وشاركت فيه ١٧ شركة متخصصة، وحضره نحو ألف مشارك من المختصين والمهتمين والخبراء والمستشارين، والقيادات الإدارية والتنفيذية من القطاعين العام والخاص.



مراسلات إليوت في مزاد

من المقرر أن تعرض دار «بينهامز» البريطانية، عبر مزاد علني، مجموعة من المراسلات الشخصية السرية التي تخص الشاعر الأمريكي - البريطاني ت.س إليوت الذي اشتهر بمقولته حول العاطفة والشعر عندما رأى أن الشعر ليس «اطلاق العنان للعاطفة، بل هو هروب من العاطفة»، وتكشف هذه الرسائل بعض خفايا شخصية هذا الشاعر «الذي تتتابه الأفكار على نحو مزعج»، بحسب صحيفة «الغارديان»، كما تكشف الرسائل أيضًا جوانب من علاقته بزوجته «فيفين» التي اتهم بعد وفاته عام ١٩٦٥م بأنه تسبب في تدهور الوضع العقلي لها، وأدخلها إلى إحدى المصحات العقلية، كما جاء في فيلم Tom and Viv الذي كتبه مايكل هاستنغ، كذلك تحتوي المجموعة على مراسلات الشاعر ت. س. إليوت مع بعض أصدقائه حول رؤيته لأدب الروائية، فيرجينيا وولف، كما تكشف هذه المراسلات أيضًا جوانب غامضة من شخصيته بحسب أنه «كان ذلك الرجل الذي ارتدى أقنعة كثيرة».

وكان إليوت قد اقترن بزوجته فيفين عام ١٩١٧م، وعرف عن زوجته موهبتها العالية ودورها في كتابة قصيدة زوجها الشهيرة «أرض اليباب» The Waste Land، ولكن بعد ذلك تدهورت العلاقة الزوجية بينهما، وانفصلا على الرغم من إصرار الزوجة الدائم على حل الخلاف، وانتحرت عام ١٩٣٨م.

وإليوت هو من مواليد أمريكا، وهاجر إلى بريطانيا حيث أصبح ناقدًا ومؤلفًا مسرحيًا، وشاعرًا مشهورًا. و درس إليوت في جامعات هارفرد والسوربون وأكسفورد، وتخصص في الفلسفة. وبرز، إضافة إلى كونه شاعرً بارزًا، ككاتب مسرحي من خلال أعماله: «حفلة الكوكتيل»، و«الموظف الموثوق».

تسونامي يكشف مدينة أسطورية

كشف المدّ البحري الذي عرف بـ «تسونامي» الذي ضرب السواحل الهندية في ديسمبر/كانون الأول الماضي، عن آثار لمدينة أسطورية محفورة في الصخور كان البحر ابتلع معابدها منذ زمن طويل، وظل السكان يروون حكاياتها، وينقلونها من جيل إلى جيل، وهذه المنطقة الهندية معروفة على أنها عاصمة إحدى الممالك القديمة التي يعود تاريخها إلى ١٣٠٠ عام إلى الوراء، حين كانت مركزًا للتجار بين الهند والصين، واشتهرت بمعابدها الهندوسية الضخمة.

ويروي صيادون نجوا من كارثة تسونامي أنهم رأوا معالم كثيرة لهذه المدينة القديمة، عندما انحسر البحر إلى الوراء، قبل أن يعود هادرًا مرة أخرى بأمواجه العاتية القاتلة، ليغمر ما رآه الصيادون من جديد، بحسب وكالة الأسوشيتد برس.

إلا أنه، وعلى مسافة غير بعيدة من الشاطىء، ظهرت صخور نحت عليها أشكال مختلفة، كانت مدفونة على عمق ست أقدام تحت الرمل، وتكفل المدّ البحري بإزاحة الرمال عنها.

والغريب في الأمر أن المد البحري تسونامي، الذي ما زالت القارة تعاني آثاره، لم يتسبب بأذى كبير في هذه المنطقة، واقتصرت الخسائر في الأرواح على ثلاثة قتلى فقط، بالإضافة إلى بعض الأضرار المادية المحدودة.

إلا أن هدية الأمواج العاتية لسكان هذه المنطقة أنها كشفت عن هذا التاريخ الذي أعاد السيّاح إليهم بكثافة لمشاهدة هذه الآثار القديمة التي بدأ الحديث عن أنها القارة المفقودة «أتلانتس».

الوثائق العربية نحو التكنولوجيا الرقمية

يسعى بعض علماء الكومبيوتر حاليًا إلى تطوير برامج قادرة على قراءة النصوص المكتوبة باللغة العربية، بما فيها المخطوطة منها، ويقوم هذا البرنامج، الذي يعمل العلماء على تطويره، بالبحث عن كلمات وجمل محددة، في محاولة لتغطية النقص في معرفة اللغة العربية في العالم، الذي بدا واضحًا بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

وسيتيح البرنامج فرصة طيبة لاكتشاف المخطوطات العربية، القديمة منها والمعاصرة، بالإضافة إلى المساعدة في جمع المعلومات المخابراتية، بحسب وكالة الأسوشيتد برس. كما سيسمح البرنامج، لدى تطويره، بتحويل الكتابة العربية إلى اللغة الرقمية، مما يسهل عملية نشر اللغة العربية على الإنترنت.

ويرى فينداراجو - مدير «مركز توحيد البيولوجيا الإحصائية في جامعة «بافالو» - حيث يتم تطوير البرنامج: أن الإنترنت برمته موجه نحو الناطقين باللغة الإنجليزية، ويخشى من أنه إذا لم يتم تطوير برامج قادرة على قراءة أحرف لغة معينة، فإن «النصوص القديمة لهذه اللغة ستسقط في النسيان».

ويقول اختصاصي اللغة العربية في جامعة ميريلاند، بيل يونغ: «إن البرنامج قد يساعد على قراءة كميات ضخمة من الصفحات المطبوعة باللغة العربية، بحثًا عن اسم أو كلمات معينة»، إلا أنه حذر من أن العربية المكتوبة باليد، ستشكل تحديًا ضخمًا وجديًا بالنسبة إلى أنظمة الكومبيوتر.

وقدّم يونغ عددًا من الأمثلة حول الاختلاف في كتابة عدد من الكلمات، مثال: «مسئول» و «مسؤول»، موضحًا أن البرنامج يحتاج إلى معرفة كل تلك الاحتمالات.





الخريجي، صالح بن ناصر/ طريقك إلى الإلقاء المميز: تخلص من خوفك وانطلق بكل ثقة ـ الرياض: المؤلف، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ١٩٩ص.

يتناول هذا الكتاب أهمية الخطابة في المساعدة على حل كثير من المشكلات، وفض الخصومات، وتهدئة النفوس الثائرة، كما أن لها دورًا بارزًا في إثارة الحماسة لدى ذوي النفوس الفاترة، وكذلك هي لسان الضعيف إلى الشكوى، وأداة المخطئ للاعتذار وطلب الصفح، بالإضافة إلى دورها المهم في الدعوة إلى الله من خلال تأثيرها في الناس بنصحهم وتعليمهم أمور دينهم ودلالتهم على الخير. وقد ازدادت أهمية الخطابة بعد أن تعدّدت وسائل مخاطبة الجماهير.

لكن المشكلة تكمن عند بعض الناس في مواجهة الآخرين حتى أصبح الأمر كابوسًا مفزعًا يقلق الكثير من الأفراد، ويفوّت عليهم الكثير من الفرص؛ مما جعل بعضهم منطويًا على نفسه، بل إنه قد يتنازل عن الكثير من طموحاته، والفرص التي تتاح له، ويمكن أن تغير مجرى حياته بسبب هذا الهاجس المقلق المرعب، ولجأ بعضهم إلى استعمال العقاقير الطبية لتساعده على مواجهة هذه المشكلة، وقد تصبح العقاقير نفسها مشكلة تضاهي مشكلة الرهاب الاجتماعي التي يعانيها.

يحاول المؤلف في هذا الكتاب أن يأخذ بيد من يعاني هذه المشكلة، لكيلا يجعل الخوف ينسف ثقته بنفسه، ويجعله إنسانًا حائرًا عاجزًا منطويًا، يراقب ذاته المنهارة، ويحسد الآخرين على الطمأنينة التي يشعرون بها.

ويورد المؤلف الكثير من التقنيات الضرورية لتكون خطيبًا ناجحًا، سواء ما يتعلق منها بطريقة إعداد الخطبة وأهم عناصرها، أو ما يخص طريقة الإلقاء وتقنياته. إضافة إلى موضوع مهم، وهو كيفية التغلب على خوف مقابلة الجماهير.

وأورد المؤلف في خاتمة الكتاب عددًا من «عيون الخطب»، منها: «خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع»، و«خطبة قس بن ساعدة الإيادي»، و«من خطب أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (خطبة بغير ألف)»، و«خطبة بغير حروف معجمة (منقوطة)»، و«خطبة أكثم بن صيفي بين يدي كسرى».

وقد ألحق بالكتاب قرص مدمج يحوي عددًا من تسجيلات الفيديو، بالإضافة إلى بعض الكتب المساعدة لإعداد الخطبة بشكل متميز منها: القرآن الكريم، وتفسير ابن كثير، والموافقات للشاطبي، وسبل السلام وشرح بلوغ المرام للصنعاني، والبداية والنهاية لابن كثير، وسيرة ابن هشام، ولسان العرب لابن منظور، بالإضافة إلى مجموعة من الخطب المختارة.



الأنصاري، عبدالرحمن الطيب وفرج الله أحمد يوسف/ حائل: ديرة حاتم ـ الرياض: دار القوافل للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ١١٢ ص (سلسلة قرى ظاهرة على طريق البخور؛ ٥).

هذا هو الكتاب الخامس في سلسلة «قرى ظاهرة على طريق البخور»، وهذا الإصدار عن منطقة حائل التي ارتبطت في التاريخ بحاتم الطائي الذي يعدّ رمزًا للكرم العربي في أبهى صوره.

وتعدّ منطقة حائل من أشهر مناطق الجزيرة العربية من الناحية الأثرية وأغناها برسومها الصخرية التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ وفجره، مرورًا بالعصور التاريخية المختلفة. ومواقع الرسوم الصخرية في حائل كثيرة ومتعدّدة يأتي في مقدمتها مواقع: جبة، وجانين، وياطب، والمليحية، وطوال النفود. ولقد أثبتت منطقة حائل أنها معين لا ينضب للرسوم الصخرية بعد اكتشاف مواقع جديدة للرسوم الصخرية بالقرب من الشويمش، وتعدّ هذه المواقع إضافة متميزة إلى ما تتمتع به حائل من مواقع للرسوم الصخرية.

وإلى جانب الرسوم الصخرية تتنوع في حائل المواقع التي توجد بها آثار تعود إلى عصور ما قبل الإسلام، ويمر بحائل طريق الحج القادم من العراق إلى مكة المكرمة «درب زبيدة» وآثاره المتعدّدة ما بين برك وقصور ونقوش كتابية تروي الكثير من تاريخ حائل خلال العصور الإسلامية، كذلك تتمتع حائل بمواقع سياحية تضعها في مقدمة مناطق الجذب السياحي ليس في المملكة فقط، بل في الجزيرة العربية كلها.

جاء الكتاب في مقدمة وعدد من العناوين، وتناول المؤلفان بعد المقدمة: الموقع، وحائل قبل الإسلام، وحاتم الطائي، وحائل بعد الإسلام، وحائل في العهد السعودي، ومشاهدات من الرحّالين، ثم جاءت تفاصيل وافية للمواقع الأثرية، والعمارة التقليدية، والمواقع السياحية، ونشاط وكالة وزارة التربية والتعليم للآثار والمتاحف.

وقد وثّق المؤلفان المعلومات التاريخية الواردة في الكتاب بعدد وافر من الصور الفوتوغرافية الملوّنة، والخرائط الجغرافية.



ملص، محمد بسام/ من قصص الأنبياء في أدب الأطفال: دراسة نقدية ـ عمان: المؤلف، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ١٩٠ص (دراسات نقدية في ثقافة الأطفال؛ ٨).

تتناول هذه الدراسة ما كتب عن قصص الأنبياء في أدب الأطفال نثرًا وشعرًا، وتهتم بالأخبار التي أوردها الكتاب ونقدها على ضوء الأخبار الصحيحة الواردة

في القرآن الكريم، والسنة النبوية.

ويلاحظ في هذه القصص الموجهة إلى الأطفال اختلاط الأخبار الصحيحة بالإسرائيليات وأخبار القصّاص، فقد كان كثير من الكتّاب حريصين على تدوين طرائف وغرائب لشد انتباه القراء، دون توخي الدقة والحذر، وأدت هذه إلى الوقوع في مجازفات منها ذكر الإسرائيليات وما حوى كثير منها من أخطاء تاريخية في حق الأنبياء، ومنها صرف الأطفال عن الغرض الذي أنزل القرآن الكريم من أجله من تدبر آياته والانتفاع بعبره، للاشتغال بصغائر لا خير فيها تضيع الأجر والوقت، وبذلك ابتعدت القصص عن إبراز العبر والدروس التي نزل القرآن العظيم بشأنها، واهتمت أكثر بالتسلية والإثارة.

قسمت الدراسة إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول: يعرض الفصل الأول بشيء من الإيجاز للإسرائيليات والأخبار التي وردت عن القصص في كتب التفسير، والتي لم تستند إلى أي خبر صحيح في القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة، ويتناول الفصل الثاني، الذي يقع في ١٥ بابًا، أخبار القصص، وقد خصص كل باب لقصة من قصص الأنبياء، وما ورد فيها من إسرائيليات، وأخبار لم تصح، مع نقدها، كما انتهى الباب بالعبر المراد إبرازها في كل قصة، ويتناول الفصل الثالث واقع قصص الأنبياء في أدب الأطفال، وملحوظات نقدية على ذلك الواقع، كما يتناول أمورًا يتوجب اتباعها عند كتابة القصص في إطار الأخبار الصحيحة، مع مراعاة الجوانب الفنية، والمراحل العمرية التي تخاطبها القصص.

ولم تتعرض الدراسة للجوانب الفنية للقصص، كما لم تتناول أمر اللغة فيها «إلا في حالة واحدة، في قصة هود عليه السلام»، فقد اهتمت بصورة أساسية بالأخبار التي وردت في تلك القصص، ونقدها على ضوء الأخبار الصحيحة.



سيدو، أمين سليمان/ الكتاب السعودي خارج الحدود ـ الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٢٣١ص «مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة الثالثة؛ ٥٨».

يسعى هذا الكتاب إلى حصر الإنتاج الفكري للمؤلفين السعوديين المنشور خارج المملكة في الفترة الزمنية من سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م، حتى نهاية سنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، وإلقاء الضوء على بعض جوانبها، وذلك باستخدام الأساليب الإحصائية، وبيان أماكن نشر هذه الكتب وأزمنتها، وطباعتها من خلال الضبط الببليوجرافي لها، والبيانات الببليوجرافية التي تم تجميعها، والكشف عن أسماء

الكُتّاب الذين نشروا مؤلفاتهم خارج المملكة، والتعرف إلى عناوين هذه الكتب، وبيان أسباب نشر الكتاب السعودي خارج الحدود.

ويسعى هذا البحث إلى تحقيق أهدافه من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ما حجم الكتب السعودية المنشورة خارج المملكة؟، ومن هم المؤلفون الذين برزوا في هذا المجال؟ وما حجم إسهاماتهم في فضاء حركة النشر؟ وما الجهات التي تهتم بنشر الكتاب السعودي في الخارج؟ وما مدى نشاطها في هذا المجال؟ وما السنوات التي نشطت فيها عملية نشر الكتاب السعودي خارج الحدود؟.

ولا تقتصر الحدود الموضوعية لهذا البحث على حقل معرفي بذاته، وإنما يغطي جميع حقول المعرفة: «الحدود الزمنية، واللغوية، والوعائية، والمكانية».

وقد اتبع الباحث المنهج الوصفي التحليلي في دراسة المواد المجمعة، الذي يعتمد على حصر ببليوجرافي للكتب السعودية المنشورة خارج المملكة، وبيان أسماء المؤلفين، وأماكن طباعتها، وطبعتها، وأسماء الناشرين، وتواريخ نشر هذه الكتب، والتحليل الإحصائي لأماكن نشر هذه الكتب وزمانها، وبيان الظواهر الببليوجرافية وإشكالياتها في بيانات الوصف المادي للكتب، والتحقق من الأسماء وضبطها بالاعتماد على الطبعة الثانية من القائمة الاستنادية التي أصدرتها مكتبة الملك فهد الوطنية سنة ١٤٢٥هـ، واتباع الترتيب الألفبائي في متن العمل، وفي مسرد العناوين الملحق بها، واستبعاد الكتب السعودية التي طبعت خارج المملكة لناشرين سعوديين، وقد ألحق بالعمل مسرد بعناوين الكتب التي يشملها الحصر الببليوجرافي، كما اتبع المؤلف في بيانات الوصف الببليوجرافي قواعد الفهرسة الأنجلو أمريكية للوصف الببليوجرافي.



كريّم، بدر بن أحمد/ أتذكّر - بيروت: المؤلف، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، مج١، ٥٠٤ص.

جاءت مقالات هذا الكتاب منشورة بصحيفة «عكاظ» السعودية إبّان شهر المحرم من سنة ١٤٢٢هـ (مارس/ آذار ٢٠٠١م) وما تلاه من شهور، ولكن في هذا الكتاب أمعن المؤلف النظر فيها من جديد، وأضاف ما أضاف، وشذب ما شذب، وتوسع في سرد بعض التذكرات التي مرت عليه، على نحو يختلف عمّا نشره في «عكاظ»، ولم يحذف إلا ما رأى أنه تكرار مخل.

لقد حرص المؤلف في هذه التذكرات، على ألاّ يضع لها منهجًا معينًا في الطرح والتناول، فهي تسجيل لمعظم جوانب حياته العلمية، منذ اليوم الأول لالتحاقه بالعمل في الإذاعة السعودية المسموعة (سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) إلى أن ألقى عصا الترحال (سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م) مودعًا الإعلام الرسمي بقنواته

الثلاث: الإذاعة، والتلفاز، ووكالة الأنباء السعودية، ولم يراع في تسجيل هذه التذكرات ترتيبًا زمنيًا معينًا، وحتى بعض العناوين هي نفسها العناوين التي ظهرت آنذاك في صحيفة «عكاظ» إلا فيما ندر، مما رأى معه تعدّيلاً تتطلبه طبيعة الوقائع.

وأوضح المؤلف في آخر المقدمة أن هناك بعض الأشياء، لا يود البوح بها، مفضلاً أن تدفن معه في قبره، وهي بمنزلة خطوط حمراء وضعها لنفسه، مؤكدًا أنه قال ما يقرب من تسعين في المئة مما يصلح للنشر.

وجاءت هذه التذكرات تحت عدد من العناوين منها: «حمزة بوقري ضبطني متلبسًا بإهمال عملي»، و«صدعت رؤوس سكان شارع بن زقر بصوتي»، و«الكذبة التي هددت مستقبلي الإذاعي»، و«الملك خالد يرفض دراستي للدكتوراه»، و«ظن شبكشي أن والدي حلاق»، و«بكيت حتى انتهى الاحتفال بالملك فيصل»، وغير ذلك.

وختم المؤلف هذا الجزء بملحق «للصور» التي توثّق عددًا من المناسبات التي مرت عليه في أثناء حياته العملية.

بزيدجر، هارفرد جونز/ موجز لتاريخ الوهابي، ترجمة وتعليق: عويضة بن متيريك الجهني- الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٣١٨ص.



يتناول هذا الكتاب الدعوة الإصلاحية السلفية النجدية، والدولة السعودية في دورها الأول، فالمؤلف كان معاصرًا للأحداث وقريبًا منها، إذ كان أحد موظفي الحكومة البريطانية، وشركة الهند الشرقية الإنجليزية، وقد أبدى المؤلف في كتابه قدرًا كبيرًا من الموضوعية والحياد تجاه الدعوة الإصلاحية والدولة السعودية، ونأى بنفسه عن تأثير الدعاية العثمانية التي شابت أغلب ما كتب عن تلك الدعوة، والدولة خلال القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي.

واعتمد المؤلف على ما كتبه الرحالة جون لويس بوركهارت، خاصة فيما يتعلق بالحملات العثمانية المصرية التي قام بها محمد علي باشا ضد الدولة السعودية في الحجاز، والأنظمة التي كانت تطبقها الدولة السعودية.

وقدّم المترجم في بداية الكتاب نبذة من المؤلف تتضمن إلقاء الضوء على حياته وثقافته، والأعمال التي قام بها وعلاقته بالموضوع، كما قدم نبذة من الكتاب تتضمن مدى أهميته، وأهم الموضوعات التي اشتمل عليها، والمصادر التي اعتمد عليها مؤلفه، بالإضافة إلى توضيح للطريقة التي سار عليها المترجم في ترجمة النص والتعليق على ما ورد فيه، وقد حرص المترجم على

الاقتصار على ما هو ضروري من الناحية العلمية من التوصيات والتعليقات والهوامش والإحالات التي وضعها لتوضيح النص معتمداً على أوثق المصادر والمراجع وأقربها لموضوع الكتاب.



العبيدي، رشيد عبدالرحمن/ العربية والبحث اللغوي المعاصر ـ بغداد: منشورات المجمع العلمي، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ٣٢٦ص.

يضم هذا الكتاب بين دفتيه سبعة فصول رئيسة، تناول الأول السمات الخاصة باللغة العربية وظواهرها المميزة في الدلالة والأصوات والمفردات والتراكيب، واستعرض الفصل الثاني الجهود البحثية في العربية بعد استقرار العرب في مواطن الحضارة الإسلامية، وتتمثل هذه الجهود في: جمع اللغة وتدوينها، ووضع المعجمات، والتحليل اللغوي، والدراسات الوصفية والذوقية.

وحاول الفصل الثالث إعطاء تصور عن «علوم اللغة العربية» ومصادرها الأولى كعلم النحو والصرف، والبلاغة، والمعجمات ومدارسها، ومناهج المعجميين، والدراسات القرآنية، والحديثية، والأدب ودراساته وعصوره، وأنواعه الشعرية والنثرية، وتناول الفصل الرابع المراحل التأريخية التي مرّت بها اللغة العربية، بعد خروجها من الجزيرة، فأبرز بعض جوانب التأثير والتأثر في مفرداتها وأساليبها.

وجاء الفصل الخامس عن تطور الدراسات اللغوية حتى العصر الحاضر، وتضمن الدراسات المنهجية الخاصة بمناهج الدراسة في المعاهد والكليات، والدراسات الشخصية التي يضعها الباحثون، والدراسات الجامعية، كما تناول الفصل تفرع المناهج البحثية، مبيناً كيف تنجز الدراسات في مبحث الأصوات وعلم الصرف، ومباحث الدلالة ونظرياتها، والمنهج المعياري والشكلي الوصفي، والتاريخي والاجتماعي والتجريبي ثم التوليدي، التحويلي.

وعرض الفصل السادس للبحث اللغوي الحديث في الدراسات الأوربية، مبيناً موضوع الألسنية المعاصرة، ومدارسها، كمدرسة كوبنهاجن، وجهود مارتني، وتنيير، وذكر جملة من الألسنيين الذين لهم اتجاهات ومذاهب.

وركز الفصل السابع في موضوع النقد اللغوي، إذ تناول المؤلف خلاله لغة طه حسين أنموذجاً، وعرض لجملة من الأوهام اللغوية، والتراكيب والصيغ التي وقعت في تعبيره، مبيناً الصحيح من الخطأ، وختمت الدراسة ببيان مميزات اللغة العربية وخصائصها وسماتها بين لغات العالم.



أدماتو (ع ١٢، جمادى الآخرة ١٤٢٦هـ - يوليو (تموز) ٢٠٠٥م)

مجلة نصف سنوية محكّمة تعنى بآثار الوطن العربي.

احتوى هذا العدد من الدورية على كثير من البحوث المتنوعة عن الآثار في الوطن العربي، جاءت باللغتين العربية والإنجليزية، بدأت بالافتتاحية بقلم رئيس التحرير الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري.

وجاء في بحوث العدد: «النمط الأثري الصحراوي وعلاقته بمرتفعات جنوبي الجزيرة العربية» للدكتور عبدالرزاق راشد المعمري، و«دراسة تحليلية لنقش معيني جديد في العلا» للدكتور حسين علي أبو الحسن، و«أول نقش سبئي يذكر مدينة حدّه/صنعاء في حوالي القرن الثاني قبل الميلاد» للدكتور منير عربش، والدكتور محمد محمد الحلبي، وختمت بحوث العدد ببحث الأستاذ إبراهيم صدقة والدكتور رافع حراشة، وكان بعنوان «نقوش صفوية جديدة من منطقة مربّ الغنم شمالي شرق الأردن».

وفي مجال المؤتمرات والندوات العلمية كتب الدكتور فرج الله أحمد يوسف عن «المؤتمر الدولي الأول حول الآثار الإسلامية/تركيا»، والدكتور خالد الناشف عن «ملتقى اليرموك السنوي: النقوش والكتابات القديمة/الأردن»، وتناول الدكتور علي بن صالح المغنم «احتفالية البحرين باليوبيل الذهبي لاكتشاف حضارة دلمون»، والدكتور عبدالله بن محمد الشارخ «الندوة الدولية الثالثة: الاكتشافات الأثرية الحديثة في دولة الإمارات العربية المتحدة».

وقدّم الدكتور صالح الحمارنة عرضًا لكتاب «نُميّات نحاسية أموية جديدة من مجموعة خاصة مساهمة في إعادة نظر في نميّات بلاد الشام» تأليف الدكتور نايف القسوس.

وختمت البحوث العربية بثبت بالأبحاث المنشورة في أعداد أدوماتو العشرة الأولى.

وجاء في القسم الإنجليزي بعد الافتتاحية: «توزيع مواقع الأدوات الصوانية وتقنيتها في العصر الحجري القديم المتأخر في الأردن» للدكتورة ميسون النهار، و«فخار العصر الحجري الحديث في منطقة الشلال الثالث (شمال السودان - منطقة المحس) للدكتور أزهري مصطفى صادق، وجاءت آخر البحوث بعنوان «فسيفساء الفلل الرومانية، شمالي غرب ليبيا: دراسة تحليلية لمنشئها ومكوناتها» للدكتور هيثم ميناس، ومصطفى نعمة، وحسان بوعربيه، وختم هذا الجزء أيضًا بثبت بالأبحاث المنشورة في أعداد أدوماتو العشرة الأولى.

العنوان:

ص.ب: ١٠٠٧١ الرياض ١١٤٣٣

المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤١٢٥٢٦٦/٤٠٣٦٧٨٠/٤٠٣٤٧٥١

ناسوخ: ٤٠٢٢٥٤٥

بريد إلكتروني: adumatu@suhuf.net.sa

الموقع على الإنترنت: WWW.adumatu.com



الحياة التشكيلية (ع٧٢ كانون الثاني - شباط - آذار ٢٠٠٥م، ع ٧٣ نيسان - أيار - حزيران ٢٠٠٥م)

مجلة فصلية تعنى بفنون التشكيل وعلوم الفن، تصدر عن وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية.

جاء هذا العدد المزدوج من الدورية زاخراً بكثير من الموضوعات الفنية المتنوعة في مختلف مجالات الفنون، وكانت تحت عدد من العناوين، ففي علوم الفن كتب الدكتور عفيف بهنسي عن «الفلسفة لتنظير ما بعد الحداثة»، وفائق دحدوح عن «الفن ونصف ظلام القناع !!»، وطلال معلاً عن «حقول البصر، الفن البيئي، صراع الحكمة الإنسانية».

وجاء لقاء العدد مع الفنانة ضحى القدسي، حاورها: أحمد عسّاف، وكتب الدكتور عبداللطيف سلمان عن «الطوابع البريدية»، والدكتور محمود شاهين عن الفنان السوري عبدالقادر عزوز بعنوان «عبدالقادر عزوز: ثنائية الحياة عبر حوارية الخط واللون»، وتعرض الدكتور عبدالله السيد لـ «تجربة الفنان عارف الريّس وإشكالية الفن العربي!»، كما تناول الدكتور عماد مصطفى تجربة الفنانين العالميين: الإسباني خوان ميرو، والأمريكي ألكسندر كالدير.

وجاء موضوع الدكتور عبدالكريم فرج بعنوان «التصوير الكوري بين التقليدية والحداثة المعاصرة»، كما تناول معصوم محمد خلف «الخط الديواني وجمال الحرف ولوحة التشكيل»، وأنطون مزاوري «مدرسة الباوماوس الألمانية في فن التصوير الضوئي»، وغير ذلك من الموضوعات التي تتناول الفن التشكيلي من جميع الأوجه.

العنوان:

الجمهورية العربية السورية

دمشق - شارع الروضة

وزارة الثقافة



الفيصل الأدبية (مج١، ع٢، صفر - ربيع الآخر ١٤٢٦هـ/أبريل - يونيو ٢٠٠٥م)

مجلة دورية تصدر عن دار الفيصل الثقافية.

حفل هذا العدد من المجلة بكثير من قضايا الأدب والنقد جاءت متناولة مختلف ضروب الأدب: القصة القصيرة، والقصيدة، والدراسة النقدية، وقراءات الكتب الأدبية، وغيرها. بدأت بقصيدة الشاعر الجاهلي عبد يغوث الحارثي «ألا لا تلوماني»، وقدّم هاشم حمادي ترجمة لقصة الكاتب السوفييتي الساخر ميخائيل

زوشينكو «الاحتفال»، كما قدّم علي الحلي ترجمة لقصيدة مارتن كارتر شاعر المقاومة الشعبية في أمريكا اللاتينية «موت زنجي»، وأحمد علي الخالدي «اللواتي يطاوعهن الجفاء».

وجاء في العدد موضوع «وهم البغدادي صاحب خزانة الأدب» لمحمود الفردوس العظم، و«ملامح تطور القصيدة في الشعر الجزائري الحديث» لعيسى بوفيسو، و«درمش» لحسين علي حسين، وقصيدة «إيقاع» لعلي بافقيه، وقصة «في غرفة الانتظار» لوليد قصاب، و«الأدب الإندونيسي بين الماضي والحاضر» لسمير عبدالحميد إبراهيم.

كذلك أعدّ عودة الله منيع القيسي قراءة في كتاب الدكتور صلاح فضل «نظرية البنائية في النقد الأدبي»، ونورة الشملان «المرأة في مراثي المتنبي»، وأوردت نسيمة بوصلاح قصيدة بعنوان «تواشيح للوطن الطالع من حقول الرِّدَّة»، ومحمد إبراهيم يعقوب قصيدة بعنوان «أصابع النار»، وعبدالله الفيفي قصيدة بعنوان «في البدء كنا طيبين»، وقدّم أديب كمال الدين «جاك لندن في ذئب البحار»، وقصيدة الشاعر أبي الطيب المتنبي «واحر قلباه»، وحماد بن حامد السالمي «شعراء المنطقة الشرقية وشعرهم في الطائف المأنوس».

وتتابعت موضوعات العدد، فقدّم أحمد طالب «السرد القصصي وجماليات المكان»، وقصيدة لفيصل أكرم بعنوان «حركات الفصول»، ودراسة لمحمد سعيد العامودي عن الشاعر عبدالواحد الجوهري الأشرم ١٢٧٨ - ١٣١١هـ، ثم قصيدة لصابر عبدالدائم بعنوان «خمسون»، وأخرى للطفي عبدالمعطي مطاوع بعنوان «وردة للطفل».

ثم قدّم عبدالستار جبر الأسدي موضوع عن «الشعر العربي المعاصر وإشكالية التوصيل»، وعبدالله حسين «ماذا أفعل بفهمي»، و«الخبز» لفولفغانغ بورشرت، ترجمة: رشيد بوطيب، وجليل إبراهيم العطية «المستجاد من حديث هزار (مصطفى جواد)»، و«قصائد شعرية» لمحمد بن التهامي بكري، و«شغاف النخل» لجبير المليحان، و«القرعة» لفي.أس. نايبول، ترجمة: محمد باجي، وغير ذلك من الموضوعات الأدبية المتنوعة.

العنوان:

ص.ب: ٣ الرياض ١١٤١١

هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥

ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١



تعليم الجماهير (س٣١،ع٥١، ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٤م)

مجلة سنوية متخصصة في مجال تعليم الكبار تصدر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

حفل هذا العدد من المجلة بعدد كبير من الموضوعات والتقارير التي تقدم في مجموعها بعض الإجابات التي تساهم في إيضاح الجهود المبذولة لمحو الأمية في الوطن العربي، كما تقدم تصورات تستهدف معالجة جوانب القصور بغية الوصول إلى تحقيق أهداف محو الأمية وتعليم الكبار في الوطن العربي وإستراتيجياتهما وخططهما، وجاءت هذه البحوث والدراسات تحت عدد من الأبواب، بدأت بمقدمة كتبها الدكتور عبدالعزيز بن عبدالله السنبل رئيس التحرير.

وجاء في باب دراسات وأبحاث: «تقويم التجارب والجهود العربية في مجال محو الأمية (وثيقة مرجعية)» قام بإعدادها مجموعة من المختصين في هذا المجال، و«تصور مقترح لتنمية المهارات الحياتية للمتعلمين الكبار» أعدّه الدكتور حمدي عبدالعزيز إمام الصباغ.

وفي قضايا محو الأمية وتعليم الكبار جاءت موضوعات: «محو الأمية وتعليم الكبار في الوطن العربي: التجربة المصرية لمحو الأمية وتعليم الكبار نموذجًا» للدكتور يحيى عبدالوهاب الصايدي، و«إشكاليات تنفيذ الخطة العربية لتعليم الكبار، والإستراتيجية الموجهة لها» للدكتور طلعت عبدالحميد فايق، و«التعليم الجامعي المفتوح ودوره في تعليم الكبار» للدكتور أحمد مشعل.

وفي مجال التقارير جاء التقرير الختامي للمؤتمر الثاني لتعليم الكبار الذي عقد في القاهرة في الفترة من ١٣ ـ ١٤ من أبريل/نيسان ٢٠٠٤م، وكان تحت عنوان «تقويم التجارب والجهود العربية في مجال محو الأمية وتعليم الكبار»، و(مشروع المدينة المنورة بلا أمية)، و(قسم تعليم الكبار بكلية التربية ـ جامعة إب ـ الجمهورية اليمنية).

العنوان:

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

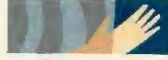
ص.ب: ١١٢٠ تونس شارع محمد الخامس

هاتف: ٧١٧٨٤٤٦٦

ناسوخ: ٧١٧٨٤٩٦٥

البريد الإلكتروني: Alecso@Email.ati.tn





عندما تتعذر التغذية بطريق الفم!

فاضل السباعي
دمشق ـ سورية

أسرة طبية أندلسية نادرة المثال

أتيح لي، في عام مضى، أن أطلّع على سِفْرٍ في الطبّ قديم عنوانه «كتاب التيسير في المداواة والتدبير»، عام صدوره بدمشق في سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، حمل اسم ناشره «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم» بتونس، وتولّى تحقيقه تحقيقًا علميًا الدكتور ميشيل الخوري. وقد تلطف عضو مجمع اللغة العربية بدمشق الدكتور مختار هاشم بتقديم نسخة منه إليّ في المجمع، وعرّفني بمؤلّفه «أبي مروان، عبدالملك بن أبي العلاء زُهْر» الإشبيلي الأندلسي (من علماء القرن السادس الهجري). وكان أن أكببتُ على مطالعته في حينه، وقد تملّكني إعجابٌ بهذا الطبيب الأندلسي النابغ، الذي توسّطَ سُلالةَ أسرة طبية عربية عدنانية النَّسَب، قد أنجبت في الأندلس ستّة أطباء في ستّة أجيال متتابعة فضلاً عن طبيبتين (قابلتين)، وكانوا جميعًا أطباء للملوك والسلاطين، وذلك ـ في علمي ـ ما ندر مثاله في تاريخ الطبّ في العالم.

ولم يكن إعجابي مقتصرًا على علمه، الذي فاضت به صفحات كتابه، حتى إنه سرعان ما تُرجم في عصره إلى العبرية واللاتينية، وفي عصر الطباعة سارع مترجموه إلى تقديمه للمطبعة، بعدة طبعات لكامل الكتاب، وبطبعات لفصول منه مخصوصة جعلوها في موسوعاتهم الطبية، ثمّ أخذ الطلبة يدرسونه في بعض جامعات الغرب ...

ولكني، كذلك، أحببت الرجل لما لمسته، في تضاعيف الكتاب، من تواضعه المقرون بالثقة العالية بالنفس، تواضعًا لم يُعْفِه من أن يُحلّ به ـ بعد العزّ والإكرام ـ غضبُ السلطان، لأسباب كتمتْها عنّا المصادر التاريخية، فدخل السجن، وأصبح طبيبًا للسُّجناء، في حاضرة دولة المرابطين مَرّاكُش، طَوال سنوات نجهل عددها!

فازداد تعاطفي وإياه في محنته، تمامًا، كما وقع لأحمد بن محمد المقَّري التلمْساني في إعجابه وتماهي شخصيته بشخصية ذي الوزارتين «لسان الدين ابن الخطيب» صاحب «الإحاطة في أخبار غرناطة»، وقد عبّر المقَّري عن ذلك في أثناء زيارته وتدريسه في الجامع الأموي بدمشق (شعبان ورمضان سنة ١٠٣٧هـ/ربيع عام ١٦٢٨م)، وكان من شأن ذلك الإعجاب والتماهي، أن ألَّف الرجل، بُعَيد ذلك، وهو نزيل القاهرة «نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب»، كتابًا جاء ـ بعد تحقيقه وطباعته ـ في أجزاء بلغت، في آخر طبعاته عشرة مجلدات!.

يدافع عن رأيه حياً ومَيْتًا

بدا لي عبدالملك بن زُهْر (وهو الجيل الثالث في تلك السُّلالة من الأطباء العظام)، غيورًا على علمه، الذي سكبه في «كتاب التيسير»، يوم عادت إليه حريته وهو يرفل في النعيم الذي أضفاه عليه أول سلاطين الموحّدين «عبدالمؤمن ابن علي»، بأن جعله طبيبًا له ووزيرًا.

إنه، في إيمانه العميق بأنّ الشفاء لا يتأتى بالمحاكمة المنطقية، والدقائق السفسطائية، ولكن بالممارسة الدائمة مضمومة إلى الحكم المجرّد (كما لخّص مذهبَه الطبيبُ المستشرق الفرنسي «غابرييل كولان» في كتابٍ له عنه، باريس ١٩١١م) ... يقول ابن زُهْر في «التيسير» (ص ٣٢٦):

«كلّ ما ذكرتُه وأثبتُّه، لا شكّ أنه سيروم من يتعسّف تزييفه بالكلام! وأنا أُحاكمهم ـ كنت حيّاً أو مَيْتًا ـ إلى التجربة، فإنّ الكلام يدخله الصدق والكذب، والحجج: منها ما هو برهان،

ومنها ما هو إقناع، ومنها ما هو سفسطة، ومنها ما هو تخيُّل!.

«والبرهان هو ميزان حقٌ في الحجج. ولكنْ كثيرًا ما تدخل فيه أقوال، إمّا جدلية إقناعية، وإمّا سفسطة، وإمّا تخيُّلية. وليس يفرِّق بين الأقوال إلاّ البصيرُ بعلم المنطق، وخاصّةً إنْ كان بصيرًا بعلم الطبّ، فحينئذ يمكنه أن يميز الحقّ من الباطل فيما يكون له بالطبّ معلق ... والتجربة وحدها هي التي تُثبت الحقائق وتُذهب البواطل».

التغذية في حال تضيُّق المريء

كان الطبيب عبدالملك بن زُهْر كثير التجربة في الطبّ. وإنّ حماسته في ذلك لتزداد إذا ما رأى العليل بين يديه يُشارف الموت.

ولننظر فيما يقوله في الفصل الذي يتحدّث فيه، بكتابه «التيسير» (ص ١٥٤و١٥٥)، عمّا «يحدث في العَضَل الذي في المريّ (المريء)» من العُسر في البلع: «فإنّ العليل - يقول - يبقى لا يزدرد ولا يدخل معدتَه شيء، لا من دواء ينفعه، ولا من غذاء يغذوه، فإمّا أن يبرأ، وإمّا أن يموت هُزالاً وسقوط قوّة، فلم يبقَ إلاّ التلطيف في أغذيته بسبيل آخر!».

ولكن ما السبيل الذي يراه لتغذية مثل هذا العليل الذي يترصّده الموتُ بانقطاع الغذاء عنه؟

إنها سُبُلٌ ثلاثة:

❖ الأول: «أن يُتَلَطّف فيُدخَل في حلقه، رويدًا رويدًا، أنبوبٌ، إمّا من فضّة، وإمّا من قصدير، ويكون آخر الأنبوب واسعًا جدًا مّما يلي «المحُاوِل» لذلك بيديه» (أي أن تكون نهايته على شكل «قِمْع»).

❖ السبيل الثاني: لأنّ بعض الأطباء القدامى كانوا يعتقدون أنّ مَسامّ الجلد قادرةٌ على امتصاص شيء من الغذاء، فإنه يرى أنه يمكن التلطّف بتغذية العليل، في حالة تضيُّق المريء، وذلك بـ: «أن يكون العليل، إمّا في مَحْبَسٍ (مغطس) من لبن حليب، وإمّا من حسو، فيصل إليه بالمسامّ. كما زعم من زعم. شيء تغتذي الأعضاء به (ويستدرك مرة ثانية)، وهذا وجه ضعيف»!

❖ الثالث: «والسبيل القاصد الذي يقع الاغتذاء به. بلا شكّ ولا مِرْيَة. أن يوضع لبنٌ أو حسو، في مثانة عَنْز أو غيرها، ويُربط في فمها أنبوبٌ من فضّة، ويُدسّ الأنبوب في المَقْعَدة، ويُشَدّ على المثانة، فيندفع ما فيها إلى المِعَى المسمّى «المستقيم»، فينال المِعَى من ذلك بعض الاغتذاء، ويمتصّه عنه، ويختطف منه المِعَى الذي فوقه فينال منه بعض حاجته، ويختطفه ما فوقه، حتى يصل بعض ذلك إلى فم المعدة الأسفل (بوّاب المعدة)، وربما امتصّت المعدة منه، ونالت حاجتها بعد أن تُجيد هضمه».

وذاع اسم «عبدالله بن زُهْر»

لقد جَهلنا العام الذي وُلد فيه عبدالملك في إشبيلية، وقدره الباحثون بأنه كان بين سنتي ٤٨٤ و٤٨٧هـ (١٠٩١ و١٠٩٤م)، أي في آخر أيام أمير إشبيلية «المعتمد بن عبّاد» أو بُعَيد زوال مُلكة، وعاش في زمن المرابطين الذين ضمّوا الأندلس إلى ملكهم في المغرب، مدركًا أيضًا عهد الموحّدين الذين بسطوا سلطانهم على الأندلس في سنة ٥٤٢هـ. وتوفي بإشبيلية في سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م.

وقد ظلّ اسمه لا يكاد يُذكر في التاريخ، على حين يتردّد في سمع الزمان اسم ابنه الطبيب «أبو بكر محمد بن زُهْر»، بصفته شاعرًا وإماماً في الموشّحات ... إلى أن تم إظهار عبدالملك إلى النور من قِبَل المجلس الأعلى للعلوم في سورية، في «أسبوع العلم» عام ١٩٧٢م، فقدّم الباحثون من الدراسات المستفيضة عنه ما جعله ينتشر، ويذيع صيته.

وهو، في هذا، يُذكِّرنا بالطبيب الشامي المتمصّر «ابن النفيس» (ت٦٨٧هـ/١٢٨٨م)، الذي قبع في المكتبات منسيّاً نحو ستّة قرون، إلى أن جلا الغبار عنه، في عام ١٩٢٤م، طالبٌ مصري مجتهد، كان يَدْرس الطبّ في ألمانيا، هو «محيي الدين التطاوي». فذاع اسم ابن النفيس بصفته طبيبًا عظيمًا، ومكتشفًا للدورة الدموية الصغرى، في حين كان الغربيون ينسبون هذا الاكتشاف خطأ إلى لاهوتيّ إسباني اسمه «سرفيتوس» (ت١٥٥٣م). وأمّا التطاوي فقد طواه الردى عام ١٩٤٥م شاباً وهو يكافح وباء التيفوس.



تعاني من هذه المشاكل

لدينا
الحل ...









أرز
الوسام

... لمسة إبداعك



الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٣٣٢ - صفر ١٤٢٥هـ - ابريل ٢٠٠٤م
ALFAISAL MAGAZINE - NO. 332 - APR. 2004



- رحلة العلوم من الشرق إلى الغرب
- العالمية والخصوصية الحضارية
- المويبة: حيث وضعت حرب البسوس أوزارها

اختر رفاهيتك المنزلية



من وجبات مميزة إلى وسائل ترفيهية سمعية ومرئية في كنف ضيافة عربية أصيلة
نقدمها لك على مقاعد وثيرة ... لن تشعر بالفرق بين خدمتنا على أسطولنا الحديث وبين رفاهيتك المنزلية.

عالم جديد من الاختيارات

SAUDI ARABIAN AIRLINES الخطوط الجوية العربية السعودية

www.saudiairlines.com